ماضي شمال افريقيا

LE PASSÉ DE L'AFRIQUE DU NORD

أ. ف. غوتييه

E. -F. GAUTIER

تعريب



TRADUIT PAR
HACHEM EL-HUSSEINI



الناشر

الفرجاني

ص. ب ١٣٢

طرابلس - ليبيا

١٩٧٠

EDITOR FERGIANI

ماضي شمال افريقيا

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

سورة التوبة

أ. ف. غوتييه
E.-F. GAUTIER

ماضي شمال افريقيا

LE PASSÉ DE L'AFRIQUE DU NORD

تعريب
هاشم الحسيني

TRADUIT PAR
HACHEM EL-HUSSEINI

الناشر
الفرجاني
ص . ب ١٣٢
طرابلس - ليبيا
١٩٧٠
EDITOR FERGIANI

قام باصدار هذا الكتاب في باريس سنة ١٩٥٢
PAYOT, PARIS (Bibliothèque Historique)
اعيد طبعه وتنقيحه في سنة ١٩٦٤ ايضاً عن
PAYOT, PARIS (Petite Bibliothèque)

الطبعة الاولى

(ايار ١٩٧٠)

تمهيد

اميل فيليكس غوتييه (١٨٦٤ ــ ١٩٤٠) عالم جغرافي بارز قادته الجغرافيا إلى التاريخ ، والتاريخ مال به لدراسة الانسان .

اعتمد غوتييه في أبحاثه مختلف الوسائل العلمية وتوزّعت نشاطاته بين زيارة الأماكن ومراجعة الكتب القديمة وغربلتها، فتوصل على ضوء ذلك لأعمق الاستنتاجات .

بدأ المؤلف حياته استاذاً في مدغشقر قبل انتقاله للجزائر ليستقر فيها ، وقدعرف ببعده عن روح التقليد وامتاز بنزعته التجديدية .

وكتابه « ماضي شمال افريقيا » من المؤلفات النادرة التي وضعها بين أيدي الباحثين الغربيين ليفتح امامهم طريق البحث العلمي الشاق في شؤون الشمال الافريقي منذ أقدم العصور . وقد حرص المؤلف على عرض فرضياته حيث لم تتوفر لديه البراهين اللازمة لاستجلاء بعض الغوامض التي سعى الى كشفها .

ذلك لم يجنبه الوقوع في الخطأ والاجحاف بعض الأحيان ، فهو على

سبيل المثال لم يقدر واقع الجزائر كدولة عربية لا يمكن ان تكون جزءاً من فرنسا .

وكتاب غوتييه لم يفقد اهميته بمرور الزمن ، وإذا كان يحتاج لبعض الإضافات والمعلومات التي توفـّرت فيما بعد ، فإن المؤلف نفسه لا يمانع في الافادة منها وهو الذي دعا لتجنب التأويلات السطحية ونادى بضرورة التسليم بحقيقة الوقائع حين توفرها .

●

مُقـدّمـة

البلاد : إذا شئنا ان نفهم تاريخ المغرب علينا الا ننسى الإلمام بطبيعة هذه البلاد ذات الماضي المميز .

جزيرة المغرب : كثيراً ما يتردد على مسامعنا التعبير العربي « جزيرة المغرب » مع ان المنطقة ليست محاطة بالماء إلا من ناحية الشمال ، في حين تحاصرها الصحراء جنوباً وتعزلها اكثر مما يعزلها البحر الابيض المتوسط .

إن البلدان القارية التي تتصل اتصالاً حراً بما يحيط بها من شأنها ان تؤثر بلا هوادة في حياة الكرة الأرضية .

اما بالنسبة للمغرب فتختلف الحال نظراً لعزلته البعيدة . ففيه امتد العصر الحجري اكثر من امتـداده في اوروبا ، وفيه المغربي تأخـر عن ركب الحضارة اكثر مما تأخر غيره من سائر شعوب الابيض المتوسط البيضاء .

يضاف إلى ذلك ، أن أي حدث جديد في بلد هذه سماته ، من شأنه ان يحدث تغييراً بعيد المدى فيه على نحو من الاتساع لانعرفه في اوروبا . ولنلاحظ المناظر الطبيعية لنتأكد من ذلك . ففي فرنسا مثلاً لم تتغير

الطبيعة كثيراً عمّا كانت عليه في الطور الرابع ، وإن تغيّرت فليس إلى حدّ زالت فيه معالم الماضي تماماً . وبوسعنا ان نتعرف في فرنسا اليوم على ملامح بلاد الغال القديمة من حيث وجود النبات وحياة الحيوان .

أما في المغرب فلا نجد اليوم سوى نبات الصبّار على انواعه وقد استورده الاسبان من القارة الامريكية منذ ثلاثة قرون أو اربعة . أو بساتين البرتقال بأثمارها الذهبية وهي من أصل صيني عرفتها البلاد في القرون الوسطى . يضاف اليها الزهور الاستوائية التي تزرع في حدائق الاختبار وجلّ اسمائها لاتينية .

في بلادنا أيضاً تطوّرت أزهار الحدائق منذ قرنين أو ثلاثة لكنها ظلّت متواضعة تعيش في الدور السفلى أو على موائد الحفلات أو في آنية قاعات الاستقبال . وفي المغرب وحده نرى الزهور تعلو البيوت في انحاء المدينة على صورة تذكرنا بلندن يعشعش فيها نبات المريخ كما تصوره رواية ويلز : « حرب العوالم » .

وإن شئنا ان نتمثل منظر افريقيا الرومانية ، ينبغي لنا ان نحذف أنواع النباتات التي يثيرها في أذهاننا ذكر المغرب .

وسنتحدث فيما بعد عن الصعوبة التي نجدها في تصور حيوان افريقيا الرومانية حيث كان يحل محلّ الجمل – الذي لم يعرف في ذلك الوقت – قطعان من الفيلة البرية .

تلك القفزات المفاجئة نجدها ايضاً في التاريخ البشري. فيالها من هوّة

سحيقة بين قرطاجة البونية والرومانية ! بين افريقيا الرومانية والمغرب المسلم ! كذلك بينه وبين افريقيا الفرنسية !

كل شيء يتبدل على حين غرّة : اللغة والدين والمفاهيم السياسية والاجتماعية . إنه تاريخ شديد التقطع الى اجزاء منفصلة بعضها عن بعض . ففي اوروبا تطور متكامل حسب خط متصل . أما المغرب فسلسلة من التبدلات المفاجئة .

على ان هناك مجموعة من الظواهر تدفعنا دائماً لتذكر عبارة « جزيرة المغرب » . فقد حافظت بعض أنواع الأزهار والحيوان على بقائها الى جانب شكل من اشكال الحضارة رغم جميع التغيرات . ذاك لأنها في عزلتها لم تتعرض لصراع البقاء . ثم جاءت الحياة الجديدة لتطغى على معالم الأشياء الأولى الباقية .

الافتقار لنقطة مركزية

وللمغرب خاصة جغرافية أخرى لها دلالة كبرى. فليس فيه – كما عندنا – نقطة مركزية تجمعت حولها المقاطعات المختلفة قبل ان تنصهر في ما بينها .

ومن الثابت ان رقعة المغرب القابلة للسكن والحراثة لها إمكانيات ضئيلة . إنها شريط بمحاذاة المتوسط والمحيط طوله ٣٠٠٠ كيلومتر وعرضه ١٥٠ . وبسبب طبيعته الجغرافية هذه لم يتخذ المغرب شكلاً مستمراً ، كما يقولون .

وإذا كان هذا المبرّر وجيهاً فليس هو كافياً . فصحيح أن المغرب لم يبلغ درجة الوحـــدة السياسية ، غير ان جميع ممالكه الكبرى تبدي ميزة تثير الانتباه ؛ فما إن تكوّنت هذه الممالك حتى بلغ مداهـــا أقصى البلاد : شأن الملوك النوميديين لأن صفاقس حاكم سرتـا الواقعة على أبواب قرطاجة كان سيد رشقون مرفأ تلمسان . ولم يكد الفاطميون يسيطرون على القيروان حتى استولوا على فاس . كذلك الموحدون حكام فاس استولوا على تونس. ذلك على عكس ما جرى في اوروبا . فحول النواة المركزية التي تكوّنت في البداية اتسعت المناطق بمرور الزمان ، ونجم عن ذلك بناء متين. أما في المغرب فالوحدة سهلة التحقيق لكنها سهلة الزوال ايضاً . ودولة المغرب كالفطور تنبت في الليل وتذبل في الصباح .

وثمة قرينة جغرافية تساعد على تفسير هذه الظاهرة ، حيث ان هناك سلسلة من السهول المرتفعة حيناً والمنخفضة حينـاً آخر وتمتد من سرت حتى المحيط الأطلسي ، وهي طريق طبيعية تربط أجزاء المغرب وتفتحها بعضها على بعض. على هذه الطريق سارت جميع القبائل البدوية وجميع الجيوش. انه مبدأ الوحدة الكبير . فعلى طول هذا الشريان الحيوي تنطلق عدوى الفتوحات بسرعة مدهشة من سرت إلى الأطلسي وبالعكس. بيد انه الشريان الوحيد مع الأسف، وهو طويل جداً وضيق أيضاً كما تتخلله التعرجات مما يجعل عبوره صعباً ، فإذا بدأ الغزو فلا يمكن استمراره طويلاً .

بلاد الملح

ونرى من الواجب التوقف أمام لمحة جغرافية أخرى يبدو انها خفيت على كثيرين رغم أهميتها : انه المناخ ، فما من عامل جغرافي آخر له أهمية المناخ .

يروى عن فردينان برونتيار قوله حين جاؤوه بمقال عن انكلترا : « هل ذكرتم ان انكلترا جزيرة ؟» ليس من الضروري أن تكون هذه النكتة صحيحة غير انها ذات دلالة بحيث لا يمكننا الكلام عن الجزائر مالم نذكر أنها بلاد الملح .

فجميع مناطق المياه الراكدة في هذه البلاد عبارة عن شطوط جرداء لماعة زاخرة بالملح . وهناك نهر اسمه الوادي المالح . وفي وهران حيث تنتشر اللغة الاسبانية نجد طائفة من الأنهر تحمل اسم : النهر المالح .

وحيثما سرت في الطرق والمنعطفات تشاهد مواقع الملح . ليس هذا شيئاً جديداً بالطبع ؛ فالكل يعلم أن المغرب محاط بأكبر صحـراء في الكرة الأرضية كما يعلم الكل أن انكلترا جزيرة ، لكن النتيجة التي نصل اليها من جراء ذلك لا بد وان تثير الدهشة .

حتى في الأرض القابلة للزراعة في الجزائر لا تجد الرطوبة الكافية للخصوبة ، فتربة المغرب كلسية بفعل التبخر .

قد يبدو الأمر مستغرباً بالنسبة لنظرتنا المألوفة لافريقيا التي نطلق عليها اسم اهراء روما ، وكثيراً ما كان هذا التعبير يتردد إبّان الاحتلال الفرنسي .

هذا أمر صحيح ولكن إليك السبب الحقيقي للتسمية : كانت روما زمن الأباطرة تؤمن لشعبها القوت عن طريق فرض الضرائب ، وكانت افريقيا تدفع في الواقع ما يطعم ٣٥٠،٠٠٠ نسمة ، من هذه الجهة يمكن اعتبارها اهراء لروما . ولا ينفي ذلك وجود أساليب جديدة لتحسين الريّ . ولا سيما وان هناك نوعاً من الزراعة خاصاً ببلاد الملح . لكنها طريق شاقة والمغرب ليس أرضاً شديدة الخصوبة .

ولا هو البلد الصالح لتربية الماشية . فليست الثيران المغربية اضخم جثة من حمير اوروبا. وتربية الماشية تحتاج لتأمين السبل اللازمة للحصول على قوتها في سنوات الجفاف المريرة .

كذلك ليس المغرب بلاد صناعة . فوديانه ليست مخازن احتياطية للمياه . والأرض تفتقر للفحم الحجري والليينيت . ومنجم الفحم الوحيد المستغل حالياً هو منجم كيناسنا وليس مهماً جداً . أما منجم جرادة فيبدو أكثر اهمية لكنه لم يستغل بعد . والنفط لم يتفجر حتى الآن [١] . ولم يعثر الجيولوجيون في تربة المغرب على الفحم المتحول من اشجار

---

١ – وضع الكتاب قبل ظهور النفط في الجزائر ، وقبل بداية استغلال الطاقة المائية والصناعية .

الغابات وإنما عثروا على الملح والجبس . وكأن لعنة بلاد الملح قد حلّت به منذ أقدر العصور .

ولا نعني بهذا أن الشمال الافريقي يشكو الفقر المدقع . فقد عرفت الجزائر حقبة من الازدهار الكبير . وخليق بنا ان نفسر ظاهرة الغنى هذه . انها زراعة الكرمة . فقد عنيت الجزائر منذ البداية بالزراعة الصناعية التي تجلب الثروة . وجرّبت كذلك زراعة القطن وغيرها من الزراعات، غير ان نجاح الكرمة لم يعادله نجاح . فهي تجلب للجزائر مبالغ ضخمة من المال وقد أحدثت في البلاد تطوراً اقتصادياً ومعنوياً . إذ غيّرت جوّ البلاد وحضت على لذة العيش وحب العمل . كل ذلك على مستوى الجزائر بالطبع فليست هي امريكا. كان ذلك في العصر الفرنسي .

أما الجزائر الرومانية فكانت كما يقول علماء الآثار مدينة بازدهارها لزراعة الزيتون. وقد عثر على آثار في ايطاليا تثبت قدوم الزيت من شمال افريقيا كما يشير بول بورد .

وينقل الينا أحد الكتاب العرب وهو المؤرخ المسلم عبد الحكم أخبار مصانع الزيت في افريقيا الرومانية ولكن بطريقة مبهمة تصويرية . كان ذلك إبان الفتح العربي الأول حين لقي جرجير مصرعه .

ولم تكن الحملة الأولى سوى غزوة كبرى انتهت بفرض جزية على الإغريق المهزومين. ويحدثنا عبدالحكم عن هذه الجزية وعن اكوام الذهب والاشياء الثمينة. وقد تساءل رجل من البدو المنتصرين وقتئذ بدهشة قائلاً :

« ماذا يصنع الإغريق ليكونوا أغنياء على هذا النحو ؟ » فابتسم رجل اغريقي كان هناك وقال له بعد ان التقط نواة زيتون من الارض : « أنظر، هذا هو السبب » . انها نكتة طريفة لكنها في رأيي ذات مدلول كبير .

ويردد الناس عبارة أطلقها أحد المؤرخين المسلمين حول ازدهار افريقيا في عهد الرومان : « كل البلاد من طرابلس حتى طنجة ، كانت إطاراً واحداً وسلسلة متواصلة من القرى ». وتدلّ العبارة على ان السفر بين طرابلس وطنجة يجري في الظل .

ذلك شيء ليس فيه غرابة . فنحن نعلم أن الفواكه من زيتون وتين وعنب سبب من أسباب ازدهار ايطاليا الوسطى وبلاد البحر الأبيض المتوسط . تلك هي الزراعة الحقيقية في البلاد ، ولا تتخذ الزراعة أهميتها على كل حال إلا بفعل التصدير إذ تلزمها أسواق خارجية منفتحة، لذلك فالازدهار يمكن اصطناعه إلى حد ما لأنه منوط بظروف سياسية معقدة .

وقد أسهمت المناجم ايضاً في انطلاقة الجزائر الاقتصادية ولكن بالطريقة نفسها . فالصناعة تحتاج إلى زبائن في الخارج . ومن حسن حظ الشمال الافريقي توفر الفوسفات فيه بحيث أصبح مركزاً لتصدير هذا المعدن الى أرجاء المعمورة . وفيه ايضاً الحديد بكميات كبيرة . وكذلك التوتياء والرصاص . ولم يجر التنقيب عن هذه المعادن منذ الامبراطورية الرومانية وحتى الاحتلال الفرنسي . ولم يكن بالإمكان تصنيع المعادن

في البلاد نفسها لهذا كنا نرى في الموانىء الجزائرية أنواع المعادن تصدر الى جانب البضائع الأخرى . فيوضع الرصاص والتوتياء في أكياس أما الحديد والفوسفات فتجمع أكواماً تنتظر السفر الى الخارج .

وإذا كانت فرنسا بلداً متكاملاً يكفي ذاته على حد قول فيدال دي لابلاش ، فالمغرب على العكس من ذلك .

فليس هو بلاد الملح الذي لم يحسن استخراجه من الصحراء وحسب، بل هو فوق ذلك يتميز بمناخه شبه الصحراوي . والواقع ان هذا الشريط الذي يبلغ طوله ٣٠٠٠ كيلومتر يمتد من الشرق الى الغرب ضمن خطوط عرض وطول متشابهة . فحيثما نذهب نجد السماء نفسها والتربة عينها . فما من بلد أقل تنوعاً وتجانساً . وجفاف المناخ لا يسمح بتحقيق الازدهار محلياً . ففي بلاد واسعة كالمغرب تتمتع بإمكانيات طبيعية كبيرة من حيث المعادن والصوف والزيت والنبيذ ، لا تسهل الاستفادة من الثروة ، إذ يحتاج الأمر الى التنظيم وتوظيف الرساميل وتوسيع الانتاج وتأمين التصدير . فالمغرب بحكم مناخه لا يكفي نفسه اقتصادياً ويحتاج للتعاون مع الغير .

الكتاب الأوّل

الماضي السحيق

١ ـ ماقبل التاريخ

ليس في نيتنا سرد ثلاثة آلاف سنة من التاريخ . فليس مؤلفنا هذا كتاباً مدرسياً .

وتاريخ المغرب ليس كتاريخنا عبارة عن تطور منتظم مستمر ، بل انه شديد التقطع الى حد يتغير فيه شكل البلد برمته بين حين وآخر .

فهناك حقبات زمنية سلطت عليها الأضواء ، كإفريقيا في عهد الرومان مثلاً . وهناك حقبات أخرى تقبع في عتمة التاريخ . وعلى تلك الفترات المعتمة نودّ ان نلقي بعض الضوء .

ولكن هل بمستطاعنا الرجوع الى ما قبل ثلاثة آلاف سنة ، أي الى ما قبل التاريخ ؟

من المؤكد أن العصر الحجري في شمالي افريقيا هو نفس العصر الحجري في أوروبا تقريباً . والآثار التي نجدها معروضة في المتاحف تضم أشد الأسلحة الحجرية بدائية الى جانب افضلها صقلاً واتقاناً . ممّا يؤكد لنا ان انسان هذه المنطقة ، شأن الإنسان الأوروبي ، قد عايش الانقلاب المناخي الكبير من الطور الجليدي الى الطور الحالي . وعلينا ان نعطي لهذه الفترة اسمها الحقيقي من افريقيا أي الطور الرابع. فليس هناك جبال جليد بالطبع ، بل انهار كبرى اتخذت لها مجاري على سطح الصحراء : لقد كانت صحراء الطور الرابع مأهولة

يقطنها الإنسان الحجري .

لكن معروضات المتاحف لا تشير الى أي إنسان بالذات .

وفي متناولنا قرينة اخرى لا يصعب تفسيرها هي الرسوم المحفورة ، ففي جنوب وهران بعض منها تحمل اسماً عربياً: « الحجارة المكتوبة »[1]. وكان من شأن هذه الحجارة خلق تساؤلات جديدة ما كنا نجد الأجوبة عليها لو لم يعثر على قرائن اخرى .

وعثر على مجموعة اخرى من الحجارة في تسيلي بين جانيت وبولينياك وخاصة في وادي الجراد .

مع هذه الاكتشافات التي تمّ العثور عليها قبل مدّة وجيزة يمكننا ان نعمق دراستنا حول تاريخ المغرب .

البوشمان

وعثر ايضاً على رسومات مختلفة قديمة جداً وجدت في مرتفعات جبال الطوارق ومنها الحجرية في تسيلي والغرانيتية في منطقة الهجار .

وانه لمثير للدهشة حقاً ان تحافظ هذه الرسوم على بقائها مع الأيام . فهي إذا كانت منقوشة داخل بعض الصخور فإن الأتربة تتسرب اليها عبر الفجوات الصخرية . وقد حافظت المغرة على وجودها رغم ذلك .

ولكن علينا ان نتذكر ان المناخ الصحراوي ملائم للقشور الصخرية . لأن الرياح العنيفة التي تهب في الصحراء تحمل معها الرمال الصغيرة فتغطي الصخور وتحفظها ، فالمياه وحدها تتلف الصخور وتعرّضها للتآكل . وليس في الصحراء مطر .

---

١ – تحدث عن هذه ج.ب.م. فلامان ثم فربنيوس بصورة أكثر توسعاً .

وعلى أي حال فإن رسوم المغرة هذه موجودة في الصحراء وحدها . ويسهل علينا ان نستنتج زوالها في المناطق الممطرة من المغرب .

وما ان نلقي نظرة على رسوم صحراء الطوارق حتى نتوصل لاستنتاج فوري : إن رسوم المغرة شديدة الشبه بالرسوم النيوليتية الاسبانية التي درسها الأب برويل ، وكذلك برسوم البوشمان في افريقيا الجنوبية والتشابه في ما بينها متعدد الوجوه فهناك عدة ألوان قوامها الأبيض والأسود ، ثم إن طريقة الرسم واحدة والأشياء المرسومة ثيران ونساء .

والنقوش بدورها مغروزة في الصخور بعمق ولذا استطاعت مقاومة الزمن.

وفي جنوب وهران حيث يبلغ معدل هطول الأمطار ٣٠٠ مليمتر لا نجد أثراً لتعايش الرسوم مع النقوش . أما في صحراء الطوارق فلا يزال أثر هذا التعايش بادياً . كما هي الحال في افريقيا الجنوبية ايضاً . وفي متحف التاريخ الطبيعي فيل منقوش من صنع جنوب افريقيا شديد الشبه بفيلة المغرب .

من المرجح إذن ان تكون هذه الرسوم والنقوش آثاراً لإنسان البوشمان الذي عاش في المغرب والذي لم يبق من سلالته سوى الزنوج من قاطني الطرف الجنوبي من القارة الافريقية .

أجل لقد أقام البوشمان بالمغرب في الماضي السحيق . مهما بدا الأمر مستحيلاً أو بعيداً عن التصور .

مصر

وهناك تشابه كبير بين النقوش التي عثر عليها في صحراء الطوارق وبين نقوش جنوبي وهران وإن بدا بينها بعض الاختلاف في الجزئيات .

فقد تم العثور في تسيلي بوادي الجراد على مجموعة من الرسوم البشرية ، كما عثر على نظير لها في فزان . في حين لا نجد لها أثراً في جنوبي وهران .

انها اشكال رائعة بالحجم الطبيعي تقريباً نقشت بعمق في الصخور وحافظت على بقائهـــا مع الزمن . وهي ليست واضحة وحسب ، بل انها تضج بالحياة . والصور ليست تقليدية جامدة بل تتميز بوجود الحركة فيها .

والتفاصيل الجزئية واضحة للعيان ، فجميع الصور تمثل رجالاً لهم رؤوس حيوانات . ويشد قاماتهم حزام ربط به من الوراء ذيل اشبه بذيل ابن آوى ومن الأمام ربطت علبة على شكل عضو الذكر .

هذه التفاصيل ، كرأس الحيوان والذيل والعلبة لا تزال حتى الآن مستعملة في السودان في المناسبات الدينية .

ذلك ما يحدو بنا الى الاعتقاد بوجـــود الزنوج في المغرب في عصر ما قبل التاريـخ .

ولا يغربن عن بالنا ان رأس الحيوان الذي يعلوجسم الإنسان من مميزات الفن المصري على العموم .

ويعطي المتخصصون في الآثار المصرية تفصيلات دقيقة عن النقوش التي نحن بصددها . ويطلق هؤلاء على العلبة اسم القرمطة . وفي مصر نقوش مشـــابهة للنقوش التي عثر عليها في المغرب . ويرى الخبراء انها تعود الى ٣٥٠٠ سنة قبل المسيح . فصور الانسان ذي الذيل والقرمطة تعود إذن الى مصر ما قبل التاريخ أي الألف الرابع أو الخامس قبل الميلاد .

وهذه ملاحظة مهمة من الناحية التاريخية . فهي تسمح لنا بتعيين عمر تقريبي لهذه الرسوم . كما توضح لنا نقطة شديدة الاهميـــة . وهي ان للمغرب ولا شك صلات بمصر . ويصنف علماء اللغات اللهجات البربرية في المجموعة القبطية وكلها لغات حاميّة .

لكن مصر هي الدولة التي شعّت منها الحضارة الى العالم المتوسطي بأسره . أما المغرب فعلى العكس من ذلك ، إذ يقع في نقطة شديدة التخلف وهو موطن

البربر البيض .

وإذا كان من الواضح أن طريق الحضارة قد سارت من مصر الى المغرب ، فلا يصح ذلك بالنسبة لما قبل التاريخ . فمهما كانت الحضارة المصرية قديمة فقد لزمها وقت من الزمن لتتكون فيه . ولعل سكان الصحراء قد هجروهـــا في الطور الرابع بفعل الجفاف ليتمركزوا على ضفاف النيل .

وقد دلـّت النقوش القديمة على التشابه بين المغرب ومصر . ولكن أيهما أثر في الآخر اولاً ، ابن الطوارق أم المصري ؟ أغلب الظن انه الطارقي ، الجدّ الأول لأبناء الطوارق الحاليين .

العربات الايجية :

وقد أبدت لنا رسوم وادي الجراد ونقوشها ايضاً بعض الاشكال الأخرى . كانت عبارة عن عربات حربية . عثر على مثلها في فزان كما عثر تيودور مونو على بعضها في موريتانيا الصحراوية .

ويسهل علينا على كل حال ان نكوّن فكرة واضحة عن هذا الأمر ، فالعربات الحربية عرفت في مصر القديمـــة ولا تزال ماثلة في الآثار الفرعونية . فكلنا شاهدنا الفرعون رعمسيس الثاني بزيه الرسمي يحمل القوس بيده ويقف منتصباً فوق عربة تجرها الخيل المتباطئة في سيرهـــا . وحتى في الرسوم الفرعونية التي تمثل الحروب — مثل المعارك بين المصريين والحثيين — نرى القوائم الخلفية للجيـــاد مسمّرة في الارض ولا تجري بأقصى سرعتها . فالمثّال المصري لا يحسن تصوير الجري .

أما مثّال وادي الجراد فيحسن تصويره بشكل مدهش . وهو اذا كان لا يتمتع بدقة الفنان المصري فإنه يمتاز عنه بحيوية الحركة . فعرباتـــه تطير وراء خيولها المنطلقة بسرعة البرق . مما يجعلنا نستبعد تأثره بالمدرسة المصرية .

كما انه ليس خلا ّقاً على كل حال ، ونحن نعرف المدرسة التي ينتمي اليها حق المعرفة . انها العربات الآسيوية الايجية ذات الخيول الطائرة .

في عهد الاسرة الملكية العشرين وخاصة من – فتاح نحو ١٢٣٥ – ١٢٢٥ قبل المسيح ، كافح الفراعنة من ناحية الغرب ضد « الشعوب البحرية » المتعاونين مع الليبيين .

وهكذا ندرك كيف ان المغاربة قد اخذوا عن الشعوب البحرية صناعة العربات وفن تصويرها .

ثم إن نقوش وادي الجراد التي تمثل العربات الحربية لم تغمرها الأتربة على غرار النقوش القديمة . الأمر الذي يجعلها أكثر حداثة منها بآلاف السنين كما يدل ّ التاريخ .

ونحن نعلم بأن العربات الحربية قد اختفت في حوض البحر المتوسط الغربي ، بعد ان جرى استبدالها بالخيول ، نحو نهاية القرن الرابع قبل المسيح . ويقول المؤرخ « جزيل » بأن آخر العربات التي ذكرها الأدب القديم (ديودورس) هي تلك التي رافقت آجاتوكلوس الى صقلية . على أن عربات وادي الجراد تحمل بما لا يقبل الشك آثار حضارة عسكرية في الصحراء نهايتها القرن الرابع ، وتعود بدايتها الى ما قبل ذلك بثمانية قرون أو تسعة حين غزت الشعوب البحرية مصر .

ولا بد لنا لإبعاد الشك من الرجوع الى هيرودوتس الذي يذكر وجود العربة لدى عدة قبائل بربرية مجاورة لسرت . وفي الداخل عند الجرمنتيين الذين كانوا يطاردون الأحباش القدماء على عربات تجرها أربعة خيول .

والجرمنتيون معروفون جيداً وعاصمتهم التي تحمل اسمهم هي واحة جرمة في فزان . ويطلق عليها ايضاً اسم قارامه .

كان الجرمنتيون من القبائل الشديدة البأس المهيبة الجانب وكان الرومان يخشونها . وقد سيطروا على طرق القوافل بين البحر الأبيض المتوسط والحبشة ،

كما لعبوا في غابر الزمان الدور الذي يلعبه الطوارق حالياً في نفس المنطقة . وهم أسلاف هؤلاء إن لم يكونوا أجدادهم . وكانت تسيلي تابعة لمملكة الجرمنت .

وبوسعنا لتسهيل البحث أن نطلق على عربات وادي الجراد ، اسم العربات الجرمنتية . ونلاحظ أن هذه العربات تجعل ماقبل التاريخ مجالاً للحاق بالتاريخ . وليست هذه المنطقة الوحيدة التي تدفعنا لإبداء ملاحظة كهذه .

الاله الحمل والاله الثور

كتب المؤرخ كميل جوليان مقالاً عن « الفزير » عاصمة التروجلوديت اي سكان الكهوف ، يشبهها فيه « بآليزيا » عاصمة السلت وكذلك بليون عاصمة بلادالغال الرومانية .

في حين أن المؤرخ نفسه لا يأتي على ذكر عاصمة التروجلوديت في كتابه تاريخ بلاد الغال . واليك السبب :

ليس بالإمكان أن نربط فترة ما قبل التاريخ بالتاريخ نفسه إلا ّ اذا لجأنا للخيال . وعليه يمكننا القول ان الخيط ليس مقطوعاً بين النقوش القديمة والمغرب البربري الذي نعرف تاريخه .

وتمثل النقوش القديمة التي تم العثور عليها في جنوبي وهران وفي مرتفعات الطوارق الحيوانات على أنواعها ويرجع تاريخها الى سبعة آلاف سنة كما يقول خبراء التاريخ المصري . هذه الحيوانات هي الفيل والزرافة ووحيد القرن وفرس النهر وحيوان الزمبيز كما يقول بول . ومعظمها مشابه للحيوانات المعروفة حالياً في المغرب كالأسود والفهود والماعز البري والغنم الخ ..

والنقوش كبيرة الحجم صنعتها بعناية ودقة يد ماهرة تحسن استخدام الصوان . لذا يصعب علينا اعتبارها مجرد عبث الرعيان ، بل هي آثار للعبادة الدينية .

فحين نجد صورة حيوان متوحش نتخيّل الصيادين القدماء يقومون بطقوس

معينة أمامه قبل الذهاب للصيد .

وقد تمثل الصورة أحياناً حيواناً أليفاً كالحمل أو الثور وهو حيوان مهم جداً مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة قبيلة الرعاة . وتكفي نظرة لهذه النقوش لندرك ان الحيوانات كانت مؤلـّهة .

وفي جنوبي وهران كثيراً ما نشاهد نقوش الحمل الذي يتميز بصفات إلهية .اذ يحمل على رأسه دائرة تشع بالنور . ولعل عبادة الحمل نوع من عبادة الشمس .

وفي تمنتيت وهي واحة في صحراء وهران تمّ العثور على حمل مصنوع بحجارة بركانية واضح المعالم ، مع مسمار من النوع نفسه مخصص لتثبيت الرأس .

وكانت عبادة الحمل معروفة لدى البربر الجزائريين في عهد الرومان .

أما في مجموعة النقوش الشرقية فلا نعثر له على أثر . والحيوان المنقوش في الشرق هو من نوع البقر . ونجد في وادي الجراد أبقاراً تحمل دائرة بين قرنيها على غرار الحمل الغربي . وفي موطن الهجار بتزروك صنم صغير من البازلت يمثل رأس ثور له مسمار على غرار رأس الحمل .

وجدير بالذكر أن البربر الشرقيين في افريقيا البيزنطية كانوا يؤلـّهون الثور وليس الحمل . والثور الذي تحيط برأسه الهالة يذكـّرنا بهاتور الإلهة المصرية .

أما الحمل ذو الهالة الشمسية فيذكرنا بإله طيبة الكبير آمون . فالشبه عجيب في ما بينهما .

ولكن من أين أتت هذه القرابة ؟ في البداية كان الأمر يبدو يسيراً . فمن السهل الاعتقاد بأن المغرب قد استعار آلهته من مصر أم الديانات كلها .

أما اليوم فبتنا نعرف أن قرابة هذه النقوش مع مصر تعود الى عصر ما قبل التاريخ أي الى العصر الذي لم تكن فيه مصر كما نعرفها موجودة . ويقيننا أن

هاتور قد تحدرت من الإله الثور المغربي وأن آمون تحدر من الإله الحمل . انها آلهة قديمة جداً على كل حال ، عبدها الناس قروناً طويلة لا نعرف عددها بالضبط ولعلها سبعة او ثمانية أو عشرة آلاف سنة . وقد عبدوا الإله الثور في المغرب الشرقي والإله الحمل في المغرب الغربي .

إن جزيرة المغرب هي البقعة الأكثر محافظة في العالم المتوسطي . بحيث تمتد دياناتها الى عصر ما قبل التاريخ .

البربر

والبربر يقطنون المغرب . ونحن لا نعرف أصلهم ولا من أين قدموا .

واكثر الافتراضات احتمالاً أنهم أتوا من الشرق نحو الغرب . ومرتفعات مراكش في الغرب لم تعرف السكان إلا في وقت متأخر .

وهناك افتراض آخر يبدو غريباً ومثيراً في آن معاً . وهو الذي يربط البربر بقارة الاطلنطيد البائدة وهذا يعني انهم نزحوا من الغرب الى الشرق .

تلك هي ترجيحات عقلية لا تستند على شيء .

وحول أصل البربر ليس لدينا من دليل سوى النقوش والصور المحفورة على الصخور . وهي معطيات ناقصة متقطعة وضبابية في معظمها . لكنها المعطيات الوحيدة على كل حال . وليس بمقدورنا تجاوزها إن نحن شئنا البحث في ماضي المغرب الغابر .

ويمكننا ان نلاحظ تأثيرات الزنوج والمصريين والايجيين على البربر وليس غير ذلك .

٣ ـ التاريخ المعروف: ألف سنة من عمر قرطاجة

يبدأ تاريخ المغرب بقرطاجة . فمجرد ذكر اسمها يلقي على القضية نوراً ساطعاً . ويقودنا الفكر أول ما يقود الى الحروب البونية . حيث يروي لنا مؤرخو روما قصة الكفاح المرير ، ورواياتهم ولا شك منحازة تحمل صيحة البغضاء والنصر. على ان الحرب البونية تشكل منعطفاً كبيراً في التاريخ الروماني فهي التي كرست عظمة روما وقدرتها بشكل نهائي . وقد وصلت الينا بجميع دقائقها وتفاصيلها .

فنحن نعرف جيداً كيف كانت نهاية قرطاجة . لكننا لا نعرف تفاصيل حياتها. ويبدو ان سيطرة الفينيقيين على الحوض الغربي للبحر المتوسط ترجع إلى اثني عشر قرناً قبل المسيح . في حين لم تؤسس قرطاجة نفسها إلا بين ٨١٤ – ٨١٣ قبل المسيح ، بينما سبقها الى الظهور كل من بنزرت وبون (عنابة) وطرابلس. ومن المعلوم ان قرطاجة قد دمّرت سنة ١٤٦ قبل المسيح . مما يدلّ ان نفوذ الفينيقيين في المغرب دام نحو الف عام .

ثم اننا لا نعرف غير القرن الأخير ، أي حقبة الانهيار. لأن القرون الثمانية أو التسعة الأولى عصور مظلمة . وفيها نشأت قرطاجة وترعرعت ببطء دون ان نعرف عنها شيئاً . فما الذي عاشت عليه هذه المدينة ؟ ومن اين استمدت قدرتها الهائلة التي ضاهت بها روما وكادت تقضي عليها ؟ لا نعرف عن ذلك شيئاً .

وظننا أن إلمامنا بالأمر ليس مستحيلاً إن نحن أفدنا من المعلومات التي

تفضي بها الينا رحلة حنّون .

فالقرطاجيون لم يتحدثوا عن أنفسهم . يبقى هيرودوتس الاغريقي وحده ، إمام المؤرخين . وقد سار على خطاه عباقرة آخرون من اغريق ورومان .

لقد ابتدعت الحضارة الاغريقية — الرومانية التاريخ ، تماماً كما نحن مدينون بحضارتنا للبخار والكهرباء ، غير انها احتكرت هذا العلم طيلة ايام عظمتها . فالحضارات الشرقية كالمصرية مثلاً أو الكلدانية لم تعرف شيئاً عن التاريخ . لذلك يعمد العلماء في دراسته لفحص الآثار والنقوش ، الى جانب اعتماد الافتراضات والاستشفاف . وقرطاجة كانت دولة شرقية بلغتها وبإحساساتها العميقة .

وهي لاتوازي مصر وبلاد الكلدانيين بكتاباتها المنقوشة . ورحلة حنّون وحدها هي التراث الوحيد الذي نستطيع ان نستقي منه معلومات عن الماضي.

وليست لدينا المخطوطة الأصلية لهذه الرحلة باللغة البونية . لأنها أتلفت مع ما أتلف في معبد كروزوس حين غزا الرومان المدينة . وفي صورة تمثل حريق المدينة تبدو زوجة آستروبال وهي تلعن الغزاة قبل أن تلقي بنفسها في النار مع طفلها الرضيع .

أما ما وصل الينا فالترجمة اليونانية والمترجم هو الذي أطلق عليها اسم الرحلة .

ومن الأمور المستغربة حقاً أن تكون الرحلة مصدراً لتزويد القارىء بالمعلومات وارشاد الملاح إلى الطريق . لكن القرطاجيين شعب تاجر يميل لكسب المال والاستمتاع بالحياة . وليس من شأن شعب كهذا أن ينقل أسرار تنقلاته إلى الغير . لذلك لم يخلوا سوى وثيقة كتب عليها اسم حنّون .

ولم يكن حنون عالماً جغرافياً أو فاتحاً يجري وراء الاكتشاف . بل هو شخصية كبيرة قام بجولة تفتيشية على طول الشاطىء الافريقي الغربي مهد

السيطرة القرطاجية .

وكتب تقريراً قدمه لمجلس شيوخ قرطاجة على مايبدو ، يمجد فيه ذلك الإبداع العظيم الذي حق لقرطاجة أن تفخر به . وقد علّق في المعبد بعد ان حفر على البرونز وحذفت منه بعض التفاصيل ليكون سبيلاً لبناء الشعب ونوعاً من الدعاية والاعلان .

إن وثيقة كهذه لا تشكل سبيلاً موثوقاً لمعرفة الحقيقة . غير أن رحلة حنون هي الوثيقة الوحيدة التي تفيدنا عن تجارة قرطاجة وسيطرتها الممتدة على طول الشواطىء الأطلسية لإفريقيا الغربية . فهي إذن على جانب كبير من الأهمية .

ولا سيما وان المنقبين قد أشبعوها دراسة وتمحيصاً .

ولا نعلم في أي وقت بالضبط كان يعيش حنون . لكنّ تاريخ الترجمة اليونانية يرجع لبداية القرن الثالث قبل الميلاد .

والسؤال: ما قيمة هذه الترجمة ان لم يتوفر النص الأصلي؟ فحتى لو افترضناها أمينة فإن تداولها من ناسخ لآخر عبر ٢٣٠٠ سنة لن يقيها من التحريف والتعديل .

غير أن المنقبين لم يتوانوا عن مناقشتها وتقييمها . وقد صرفوا الكثير من الجهد في تحديد الجهات التي أبحر نحوها ملاّحون لم يعرفوا البوصلة ، وفي احصاء أيام سفرهم على متن سفن تتجاذبها الرياح . قالوا بأن حنون قاد ٦٠ سفينة من ذات الخمسين مجذافاً تحمل ثلاثين الف رجل . يعني ذلك أن كل سفينة كانت تحمل ٥٠٠ رجل وهذا مستحيل . وعلينا أن ننحي جانباً أحد الرقمين أو كليهما معاً .

وقالوا أيضاً إن في عاصمة جزيرة سرنه التي تحمل نفس الاسم ٥ إستادات دائرية . وهذا غير صحيح لأن في المدينة ١٥ إستاداً . ولكن لماذا الرقم ١٥

بالذات ؟

أبحر حنون يومين بمحاذاة الساحل، ومن الأرجح أنه أبحر اثني عشر يوماً .

فلماذا أيضاً الرقم ١٢ ؟

أما تحديد الاتجاهات فلا يحتاج لدقة أكثر من الأرقام . وعلينا هنا أيضاً ألا ننسى الثغرات التي قد تحصل في احصاء عددها ورسمها .

ولا بدّ للباحثين في هذه المعطيات أن يتوصلوا لنتائج متباينة .

عندها يفترضون بأن رسم الشاطىء وتخطيط المناخ قد تغيرا عما كانا عليه منذ ألفي عام . ويذهبون الى ما ذهب اليه افلاطون حين تكلم عن اطلنطيد القارة البائدة .

وليس لمن له دراية بسيطة بعلم طبقات الارض أن يجاريهم : فإذا كانت فترة ألفي سنة طويلة جداً بالنسبة لتاريخ الإنسان ، فهي لا تساوي اكثر من لحظة في حساب الجيولوجيا. ولم يتمكن العلماء من تسجيل أي تغيير يذكر في الظروف المناخية طيلة ألفين او ثلاثة آلاف سنة من التاريخ البشري .

لقد جاب مالافوي مدير مصلحة الجيولوجيا في دكار كل موريتانيا من الشمال الى الجنوب دون ان يعثر على أثر لتلك الوديان المندثرة التي تعود للطور الرابع ، والتي توجد بكثرة في سائر الصحراء . وفي شمالي موريتانيا واد يطلق عليه اسم الساقية الحمراء يمكن اعتباره على الأرجح أحد وديان الطور الرابع . وفي جنوبها تم العثور على أسماك متحجرة يرجعها الجيولوجيون الى الطور الرابع تشهد باندثار خليج كان هناك. ويؤكد لنا اكتشاف تيودور مونو بأن هذا الخليج لم يكن شديد التوغل في اليابسة . على اننا لا نستطيع ربطه بأي حال بالتاريخ البشري . وفي جنوب موريتانيا ايضاً منطقة جافة أثارت نقاش الجيولوجيين . لكن البلاد مكسوة بكثبان الرمل العتيقة التي ثبتتها النباتات ، مما يبعد الاحتمال القائل بأن مناخها كان رطباً .

وهكذا نلاحظ كيف أن علماء الجغرافيا والجيولوجيا قد اقتفوا أثر التغير التاريخي دون جدوى حتى الآن . ففي موريتانيا كما في غيرها ، يبدو أن الصحراء لم تتغير عما كانت عليه قبل الفي عام .

واذا افترضنا أن الشاطىء والمناظر الطبيعية لم تتغير منذ حنون ، وهذا هو الافتراض الوحيد المحتمل ، فبالإمكان اذن الاستناد الى رحلته شرط ألاّ نطلب منها ما ليس بمستطاعها ان تعطيه وان نقتصر على نقاط التشابه البارزة .

نهر كريتس ونهر السنغال

هناك تشابه كبير بين نهر كريتس ونهر السنغال كما اتصور .

فبعد ان جاب الصحراء عثر حنون على نهر « طويل عريض مليء بالتماسيح وافراس النهر » اطلق عليه اسم كريتس . ما تراه يكون غير نهر السنغال ؟ وقد تعرف عليه الباحثون مع الكثير من التردد والتحفظ اللذين لا أفهمهما . فالقضية على بداهتها خفيت عليهم .

قطع حنون رحلته البحرية ، ووجه ركبه نحو نهر كريتس ثم عاد من حيث اتى ليعود الى خط سيره الأول على طول شاطىء المحيط . وهنا نجد قرينة أُخرى تدل على السنغال غير التماسيح وأفراس النهر . فنهر السنغال هو النهر الوحيد الصالح للملاحة التجارية على طول الشاطىء وحتى طرف خليج غينيا .

والى الأمس القريب وقبل مدّ السكة الحديدية كان احد مفتشي المستعمرات يجوب المكاتب المالية واحداً تلو الآخر على طول شاطىء افريقيا الغربية ، ولم يغير خط سيره إلا حين عبوره نهر السنغال ليصل الى المكاتب الموجودة في الدواخل .

ولنلاحظ ان نهر السنغال هو طريق مناجم الذهب ، ولو لم يكن نقطة معروفة لما ذكرته رحلة حنون .

وجنوبي قايس مباشرة وهي آخر نقطة للملاحة بين نهر السنغال وروافده

فاليميه ، يقع مثلث من الأرض يستخرج منه الذهب وهو معروف منذ قرون بل منذ آلاف السنين . انها مقاطعة بمبوك المثلثة الشكل .

وكثيراً ما يذكر المؤرخون والجغرافيون العرب ذهب بمبوك . وإليك ما أورده أحدهم ياقوت في وصف المرحلة الأخيرة في تبادل السلع مقابل تبر الذهب .

كان التجار المغاربة ينبئون بوصولهم بقرع الطبول . وما إن يسمع زنوج بلاد الذهب قرع الطبل حتى يخرجوا من مخابئهم وينتظروا بلا حراك على مسافة معينة . ويفض التجار بضاعتهم ثم يبتعدون ... عندها يتقدم الزنوج ليلقوا كمية من تبر الذهب ثم يعودون للابتعاد .. فيتقدم التجار بعدئذ لينال كل منهم نصيبه من التبر الملقى إلى جانب البضاعة . ثم يعودون من حيث أتوا على صوت الطبول معلنين به رحيلهم بعد اتمام الصفقة .

يبدو لأول وهلة أن هذا الكلام فقرة من فقرات قصة السندباد البحري . ولكن لنستشهد الآن بهيرودوتس (٤/١٩٦) وهو يصف القرطاجيين يبادلون البضاعة بالذهب في بلاد تقوم وراء أعمدة هرقليطس . « ينزلون البضاعة بانتظام على الشاطىء ثم يعودون الى مراكبهم يرسلون منها الدخان لإشعار أهل البلاد برحيلهم ... الخ » . الى ما هناك من حديث مشابه لكلام ياقوت مع اختلاف بسيط فهذا يتحدث عن قرع الطبول وذاك عن تصعيد الدخان .

وضع هيرودوتس كتاباته في القرن الخامس قبل المسيح أما ياقوت فقد عاش بين ١١٧٨ و١٢٢٩ ميلادية . وليس من المحتمل أن يكون قد تأثر بالمؤرخ الإغريقي لأنه لم يطلع عليه . ووجه الشبه كما نرى كبير في طريقة إتمام الصفقة بصمت . بيد أن ياقوت أكثر دقة من هيرودوتس .

فبينما يذكر مؤرخ اليونان أن الصفقات التجارية كانت تتم وراء أعمدة هرقل ،

نرى ياقوت يحدد المكان في السنغال .

وحين استولى الرومان على قرطاجة عاود بوليبيوس مبعوث سبيون اميليان الرحلة نفسها . ولم يصل إلى أيدينا الفصل الذي كتبه عن الرحلة ، لكن عبارة منه تثير الانتباه عثرنا عليها في ترجمة بلين : لقد شاهد بوليبيوس نهر التماسيح وافراس النهر ولكن دون أن يطلق عليه اسم كريتس بل أسماه نهر بمبوتم . وقد تكون المنطقة المقصودة مقاطعة بمبوك الغنية بالذهب .

وخلاصة القول إن السفن القرطاجية قد عبرت نهر السنغال وبلغت نواحي قايس ، بلاد الذهب وهي المكان الوحيد للمبادلات المباشرة على ما يبدو . ولم يعرف العرب غيرها .

سرنه وسان لويس

ومن أجل المزيد من الدقة حول رحلة حنون نذكر أن الملاحة النهرية عبر الكريتس كانت تنطلق من مستعمرة سرنه وتعود اليها، وقد أسهب المعلقون في الحديث عن موقع هذه المستعمرة دون أن يصلوا الى نتيجة .

أما اذا كان الكريتس هو نهر السنغال نفسه ، فيسهل عندها تحديد مكان سرنه . ففي أيامنا هذه تنطلق السفن المبحرة في نهر السنغال من مدينة سان لويس وتعود إليها . وبها نقطة الاتصال بين الملاحة النهرية والملاحة البحرية . وتذكر رحلة حنون أن سرنه تقع وسط جزيرة. وكذلك سان لويس التي تتصل بالأرض بواسطة جسر جميل نجد صوره على بعض البطاقات البريدية .

بيد أننا لا نؤكد أن سان لويس تقع تماماً في نفس المكان الذي كانت فيه سرنه . فالسنغال السفلي نهر يضيع في المستنقعات ولا يعرف مجراه بالضبط . ومن المحتمل أن يكون مصبه غير مستقر . فقد عثر شودو على مجرى نهر جاف شمالي سان لويس .

ثم إن طبقات الرمال في الجزر وشبه الجزر ليست ثابتة هي الأخرى، لأن

التيار البحري يضربها على الدوام ويغير من أشكالها . ولعلّ جزيرة الرمل التي كانت تحيط بسرنه قد زالت من الوجود أو ان الآثار الباقية منها قد خفيت عن الانتباه .

وجلّ ما في الأمر ان موقع سرنه في تصورنا شبيه بموقـــع سان لويس في مكان تلتقي فيه الملاحة النهرية بالملاحة البحرية .

ولم تكن سرنه مجرّد مكتب عادي بل كانت مستعمرة كاملة . فقـد حمل اليها حنون فريقاً من القرطاجيين ظلوا فيها لتعزيز تجارتهم . ثم إنها واقعة في الجنوب وتمثل آخر مستعمرة من المستعمرات التي زرعها القرطاجيون على طول الشاطىء الأطلسي . وهذه من الأمور التي نفهمها حق الفهم هذه الأيام .

وفي سان لويس ودكار وعلى طول شاطىء السنغـال حتى الرأس الأخضر يخيم مناخ مميز يسمى شبه الكناري لشبهه بمناخ جزر الكناري أو مناخ السواحل المراكشية على الاطلسي . واليوم نجد في السنغال جالية سورية كبيرة تلعب فيها دوراً هاماً . ولا يذكرنا هؤلاء بسرنه ، وإنما نلاحظ أنهم قـد اختاروا المناخ الذي يلائمهم وعائلاتهم على غرار أسلافهم البونيين .

ولا نعثر على الظروف الملائمة عينها لو اتجهنـــا أكثر نحو الجنوب . فالرأس الأخضر هو الحد الأقصى وندخل بعده مباشرة في المناخ الاستوائي . ومن المحتمل جداً إذن أن تكون سرنه أبعد منطقة جنوبية وآخر مستعمرة للقرطاجيين .

عربة الآلهة والكاميرون .

ولم يكن الرأس الأخضر أكثر مما هو عليه اليوم أي الحدّ الأقصى للملاحة والتجارة . وبعد أن قفل حنون راجعاً الى البحر من سرنه تابع إبحاره على طول الشاطىء أياماً طويلة وذهب بعيداً جداً .

فما هو المكان الذي بلغه ؟ هنا نعثر على قرينة نتوقف عندها .

في نهاية رحلته شاهد حنون « ليلاً أرضاً مكسوة باللهب . في وسطها نار متأججة بدت كأنها تطال النجوم ، وإذا بها عند مطلع النهار جبل يدعى عربة الآلهة » . ولا يمكن أن ينطبق هـذا الوصف إلاّ على بركان الكاميرون في آخر خليج غينيا ، شمالي خليج دوالا لجهة مدخله . وقد بلغ ارتفاع نيران هذا البركان ٤٠٠٠ متر عندما هاج لآخر مرة سنة ١٩٢٢ .

لقد أدرك المفسرون بأن جبل الآلهة لا يمكن أن يكون غير بركان ، ولكنهم لا يميلون الى الاعتقاد بأن سفن قرطاجة قد بلغت هـذا المبلغ . وافترضوا أن بركان عربة الآلهة قد خمد منذ حنون . وجدّوا في البحث عنه في كاكوليما ، وهو عبارة عن بركان مخروطي يشاهد من كوناكري عاصمة غينيا ومرفأها . لكن الجيولوجيين يعرفون بركان كاكوليما حق المعرفة وهو فجوة قديمـــة لا يعتبرها العلماء من النوع البركاني ويعود عهدها الى ما قبل حنون .

واليوم يطلق أهل الكاميرون على بركانهم اسماً شبيهاً بعربة الآلهة ، وهـذه أيضاً قرينة مهمة . لكن هناك ظواهر أخرى أكثر دلالة :

يرى علماء الجيولوجيا أن البركان الخامد منذ ألفي سنة يحافظ على عـــدّة بركانية جديدة كما يقولون . وعلى طول شاطىء افريقيا الغربيـــة من طنجة الى الرأس الأخضر لم يعثر أحد من الجيولوجيين على بركان أو عـدّة بركانية جديدة إلاّ في الكاميرون .

ولا يمكننا بعد هـذا إلاّ ان نقرّ بأن بحـــارة قرطاجة قد بلغوا بركان الكاميرون في زمن حنون اي قبل المسيح بخمسة قرون تقريباً .

بعد عربة الآلهة يمضي حنون في رحلته الى ابعد من ذلك ولعلّه وصل الى الغابون ، على اننا لا نملك دليلاً موثوقاً على ذلك . ولم ينبئنا حنون في توغله نحو الجنوب عن مصاعب صادفها غير نفاد المؤن .

وهنا تعود بنا الذكرى الى الاسطورة غير المؤكدة التي تناقلها القدمـــاء ،

وتقول إن المراكب البونية المنطلقة من البحر الأحمر قد بلغت أعمدة هرقل بعد ان دارت حول افريقيا من الجنوب .

ولدينا دليل اكيد على ان تدمير قرطاجة على يد سبيون اميليان قد أخر اكتشاف الشواطىء الافريقية نحو خمسة عشر قرناً ، حين قام باكتشافها فاسكودي غاما .

لقد كانت الملاحة البحرية تعيش على التجارة ، ولم يكتب لها الاستمرار بعد زوال قرطاجة وطنها الأم .

كان على الجمهورية الرومانية أن تأخذ عن قرطاجة إرثها التجاري في المحيط الاطلسي ، غير أنها لم تفعل . فانهارت التجارة البحرية بانهيار الوطن الأم . ولم يبق منها سوى تمتمات في رحلة حنون .

ولكن هل ذكر الأدب أخبار قرطاجة ونشاطها التجاري ؟

هناك آثار عديدة تدل على اهتمام الأدب بها .

ففي المتاحف الأوروبية تماثيل برونزية رائعة من صنع الافريقيين . ولا بدّ من وجود علاقة لهذه التحف بالحضارة المتوسطية . نحن نعرف مدى تعطش الحضارات البرونزية القديمة لمعدن القصدير حيث كان القرطاجيون يقصدون الى انكلترا القديمة للبحث عنه . كما كانوا يقصدون الى بنين للغاية نفسها لأنهم عرفوا بركان الكاميرون ووصلت سفنهم حتى مصب النيجر أي بنين .

لقد علمت قرطاجة زنوج افريقيا الغربية فيما علمتهم صناعة الذهب والقصدير وهي معادن حصلوا عليها بالمبادلة . ولم ينس الزنوج ذلك لأن تجارة المبادلات قد استمرت في البحر وفي البر عبر الصحراء .

ولدينا الكثير من المعلومات حول استخدام التجار العرب للممرات الصحراوية. لكن العرب ورثوا هذه الممرات عن القرطاجيين الذين سلكوها قبلهم .

وبعد سقوط قرطاجة البونية ، اصبحت لبدة (طرابلس) محطة للتجارة الصحراوية عبر فزّان وعلى يد الجرمنتيين بنوع خاص . وإذا نحن نفينا كل اثر لنشاط القرطاجيين في الصحراء سوف نجد تفسيراً لوجود حجر الايغريس حول اعناق الزنوج .

وحجر الايغريس نوع من الأحجار الكريمة شبيه بالفيروز تصنع منه العقود. والسود مولعون بهذا النوع من الحلى القديمة التي يعثرون عليها في المقابر. والشواطىء الغينية هي المركز الأول لمبادلات هذه الأحجار ، غير ان وجودها لا يقتصر على بلاد الزنوج وحدها ، اذ تمّ العثور عليها في المقابر الموجودة في سائر انحاء الصحراء ، ويمكننا مشاهدتها في متاحف تونس والجزائر. ثم إن وجود اللؤلؤ — وهو الحجر الذي كان يعتبر كالعملة — زاد عدد المحطات البرية للقوافل المتنقلة بين قرطاجة والخليج الغيني .

وفي افريقيا الغربية السوداء نشاهد بقايا الآثار المتوسطية القديمة التي صنعتها قرطاجة .

ولسنا الآن بصدد تعداد الوقائع التي حصلنا عليها في إثبات ذلك ، بيد اننا نودّ اعتماد هذه الوقائع منطلقاً لبحثنا .

وانني لأعتذر عمّا أبديته من نقد لبعض العلماء الكبار الذين شرحوا رحلة حنون . فهم أصحاب فضل في نواحٍ عديدة ، غير أن ما تمّ اكتشافه أخيراً في أفريقيا السوداء قد اعطى للبحث فيها أسساً جديدة لم تتح للعاملين من وراء مكاتبهم فرصة الاطلاع عليها .

هكذا يصبح بإمكاننا تصور حياة القرطاجيين قبل الحروب الرومانية .

ظلت قرطاجة طيلة ألف سنة امبراطورية تجارية افريقية بلغت اقاصي الخليج الغيني .

وقد حاولنا إثبات حقيقة وجود هذه الامبراطورية ولا ندعي بأننا قد ازحنا كل ما اكتنفها من غموض تاريخي .

على ان الف سنة من عمر قرطاجة حقبة مهمة جداً في تاريخ بلاد المغرب .



الكتاب الثاني

المصادر التاريخية

١ ـ التاريخ

غرض كتابنا هذا تاريخي بالدرجة الأولى .

بدأ تاريخ المغرب منذ الحروب البونية ، حين شرع المؤرخون الإغريق والرومان يتحدثون عن القرطاجيين الذين لزموا الصمت . وحول نهاية قرطاجة وضعت مؤلفات عديدة كتبها المؤرخون القدامى من أمثال بوليبيوس وسالوست وتيت ليف ، تضاف اليها الوثائق الأثرية والنقوش . وقد عني المؤرخ غيزل بجمع هذه الوثائق وتصنيفها في كتاب تاريخي كبير .

يبدأ تاريخ المغرب بداية واضحة وسرعان ما يكتنفه الضباب . ثم يعود الى نوع من الوضوح في العصور المتأخرة . ففي القرن الثاني عشر نعرف الكثير عن الأسر المالكة الكبرى من الموحدين وحتى المرابطين . ولدينا من عصر النهضة عدد وفير من الوثائق المختلفة والأخبار والأحاديث على لسان المؤرخين الاسبان والبرتغاليين والعرب . ولاسيما وثائق المحفوظات والتماثيل والنقوش . ولكن ذلك ليس كافياً وعلى الباحث جلاء الكثير من الغموض وهذا ما يعجز عنه رجل واحد. كما وانني سأتجنب تلخيص كتاب التاريخ القديم « لغيزل » .

والفترة التي نود جلاءها هي المرحلة المتوسطة الواقعة بين سلسلتين من الفتوحات العربية ، أولاهما فتوحات ممثلي الخلفاء في نهاية القرن السابع ، وثانيتهما غزوات البدو الهلاليين التي بدأت في أواسط القرن الحادي عشر . ذلك هو العصر الوسيط الأول في بلاد المغرب . وهو يمثل فترة تاريخية منفصلة في تاريخ

هذه البلاد . وهي من أهم الفترات على كل حال .

ففي ذلك الوقت بسط المغرب سيطرته على أسبانيـة وصقلية ومصر . ولم يحصل له قبل هذه الفترة أو بعدها أن بلغ هذا الحدّ من الإشعاع . لهذا نطلق على هذه القرون الأربعة أو الخمسة اسم الأعصر الظافرة ، لكن ما رمينا اليه من التسمية ليس الاشادة بعظمة المغرب وانما جـلاء الحقائق في ذلك العصر الوسيط .

والمغرب بتواضعه المعهود لا يذكر بنفسه شيئاً عن أمجاده تلك . فهو رائد في الإسلام وجزء من العالم الإسلامي كما يحمل قناعاً عربياً نجد تحته حقيقة هذه البلاد . فهناك قبائل كبرى انتظمت صفوفها في دول حكمها الأمراء الأجانب ثم السلاطين البربر . لقد أفاد هؤلاء من تصدع خلافة الأمويين في الشرق فاغتنموا الفرصة لإثبـات وجودهم وتأسيس دولة مستقلة تعي ذاتهـا وذلك للمرة الأولى والأخيرة .

ولكن كيف لنـا أن نوضح جميع الملابسات في وقت لم تتضح فيه معالم الأمور في تلك الفترة المجيدة والمظلمة معاً .

فالوثائق الحديثة غـير موجودة ، والفاتحون المسلمون لم يكتبوا سيرتهم . فالعربي شأن البربري لم يكن يعنى بالتـاريخ . ولم يستيقظ الفضول العلمي في الاسلام الا في مرحلة متأخرة مع العباسيين وتسرب الأفكار الدخيلة . حيث بدأ بعض المؤرخين الشرقيين يتحدثون عن فتح المغرب ، وقـد جاء حديثهم متأخراً عدّة قرون .

على أن أشد الفترات تشوشاً تلك التي انتقلت فيهـا الحضارة المسيحية للمرابطين .

لقد أحدث ذلك أثراً كبيراً في المغرب . فتغيرت لغته وديانته وروحه ، ولم يبلغنا بكل أسف شيء يذكر عن تلك المرحلة المهمة . فقد التزمت وثائقنا الصمت

حيالها في وقت نحن بأمس الحاجة اليها .

ولكن هل لنا أن نعوض بأسلوب آخر ؟ أغلب الظن أن التعويض ممكن عن طريق الغربلة والتفسير . فلا يمكننا ان نقتصر على المنهج التاريخي المعروف وهو العودة الى المحفوظات وحدها ، فهي لن تفسر لنا شيئاً وعلينا أن نتجه نحو دلائل أخرى اغفلها الكثيرون .

فالبلاد لم تتغير ، وهي لا تزال قائمة . ونحن نزداد معرفة بها كل يوم . وقد احرزت جغرافيا المغرب تقدماً لم يحرزه تاريخه . ومن الوقائع المبعثرة هنا وهناك نستطيع أن نصل لنتيجة معقولة .

والانسان المغربي بدوره لم يتغير أيضاً . ولعل الصعوبة في معرفـة تاريخه تكمن في انقسام هـذا التاريخ الى شطرين منفصلـين . فقطاع الدراسات الكلاسيكية لا يتصل بقطاع الدراسات الشرقية. في الوقت الذي قطع الانسان المغربي جميع الحواجز التاريخية واستمر بقاؤه . فالحيـاة لا تبدأ من جديد كل مرة وانما تستمر عبر الأجيال .

وظننا أن الحقبة الأولى من تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، لا بـدّ وأن تنجلي ان نحن عرفنا كيف نربطها بالحقبات التي سبقتها . إذ ليس بإمكاننا أن نظلّ حبيسي العصر الوسيط الأول . وعلينا ان نتعداه كي نحسن فهمه .

لأجل ذلك احتجنا لمقدمة طويلة لاستخلاص ما يجب استخلاصه من العصور القديمة كما احتجنا لخاتمة تساعد على ربط الماضي القديم بالعصر الوسيط كي تتسلسل نتائجنا وترتقي حتى تبلغ العصور الحديثة .

وهكذا اصبح كتابنا المتواضع هذا مشتملاً على الخطوط العامـة لتاريخ العصر القديم .

ولدينا العديد من المراجع عن تاريخ المغرب من كتـاب مرسيه القديم الى دراسة جوليان الحديثة .

غير اننا لسنا بصدد إعادة كتابة الأشياء نفسها . فغرض كتابنا مختلف كل الاختلاف و كذلك اسلوبه . ونحن لا ندعي الكمال في ما كتبناه وإنما ركّزنا الانتباه على عدد من النقاط كانت بمثابة عقد مستعصية في مجرى الأحداث . وبودنا انتفهم الأمور لا أن نكتفي بسردها .

هذه ولا شك مهمة شاقة مميزة ،تختلف عن الأساليب العادية في الدراسات .

وخليق بنا في بداية الحديث عن العصر الوسيط الأوّل أن نبـــدأ الكلام بإسهاب عن المصادر .

٢ ـ المصـادر العربيـة
روض القرطـاس

إن كل ما بلغنا عن العصر الوسيط الأول في المغرب يعود به الفضل للمراجع العربية . فهل يحق لغير المستعربين الخوض فيه ؟ إنهــا مسألة معقدة في عصر التخصص العلمي هذا .

وإن نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد صعوبة في فهم الأمور ، ذلك لأن الدراسات الشرقية تتسم ببعض الانغــلاق على الرأي العام . على أن الأمر قـــد أصبح مختلفاً عمّا كان عليه منذ نصف قرن ، حيث جرى نقل العديد من المؤلفات العربية الى اللغـــات الأجنبية ومنها كتاب لأبي زكريا ترجم الى اللغة الفرنسية بعد العثور عليه مخطوطاً .

وقد خصص أحد المستعربين البارزين وهو السيد فانيان الأوقات الطوال لترجمة المصنفات التاريخية العربية من اللغة العربية . وقد نقل الى الفرنسية ابن الأثير والبيان والمراكشي والزركشي .

بدأ الاهتمام بالترجمات في مطلع عهد الاحتلال الفرنسي وقد نشر في المجموعة المسماة مجموعة الاستكشاف العلمي بالجزائر عام ١٨٤٥ ترجمة للقيرواني يقال انها ضعيفة . ثم ترجم البارون دي سلان ابن خلدون بين ١٨٥٢ و ١٨٦٢ . وفي بفس الفترة أي بين ١٨٥٢ و ١٨٥٣ ترجم الأب برجيس التواريـــخ الخاصة نتلمسان وتوغرت . كما ترجم جورج مارسي سنة ١٩١٧ كتاب « تاريخ ملوك فاس » .

على أن هذه الترجمات ليست متساوية في قيمتها، وحتى ترجمة ابن خلدون التي تركت أثراً كبيراً في الغرب كانت سريعة جداً .

لكن الصعوبة ليست هنا ، وإنما الصعوبة في التسرب الى عقـول المؤرخين الذين يختلفون عن مؤرخي الغرب ويصعب علينا فهمهم .

لذا رأيت لزاماً عليّ أن أبدأ دراسة نقدية لبعض المؤلفين العرب كي يتسنى لي على ضوئها الوصول لبعض الاستنتاجات المفيدة . وقد اخترت لذلك مصنفين هما روض القرطاس وكتاب ابن خلدرن .

روض القرطاس

لروض القرطاس عنوان فرعي هو « تاريخ ملوك مراكش وحوليات مدينة فاس » وهو عبارة عن تاريخ لهذا الجزء من المغرب الذي نطلق عليه اليوم اسم مراكش وذلك منذ ظهور الاسلام فيـه وحتى سنة ١٣٢٦ ميلادية . والكتاب وثيقة هامة ترجمه تورنبورج الى اللاتينية (سنة ١٨٤٦) كما ترجمه بوميه الى الفرنسية (سنة ١٨٦٠) . وبعضهم سمّاه روض قرطاس بدون التعريف وهو اسم مكان في بلاد فارس . ولكن من المرجح أن يكون اسمـه روض القرطاس على غرار مروج الذهب والكتب العربية الأخرى التي تحمل عناوين على هذا النحو .

وهناك تساؤل آخر حول اسم الكاتب . فالصفحة الأولى من المخطوطـة تنسبه لابن عبد الحليم الغرناطي ، ولكن هناك احتمالاً يعززه ابن خلدون يفيد بأن المؤلف هو ابن أبي زرع المولود في فاس . ودرج العرب على تسمية الكتاب اختصاراً « بالقرطاس » .

وسواء كان الكاتب ابن ابي زرع أم « الشيخ الإمام والعالم العلاّمة بن عبد الحليم » ، فإن مؤلف القرطاس عاش في فاس وكان يعمل سنة ١٣٢٦ ميلادية في خدمة السلطان المريني الحاكم . ولا حاجة لنا لمعرفة المزيد عن حياته لأن مصنفه ليس مميزاً جداً . وكثيرون غيره ممن كتبوا في التاريخ لجـأوا للأسلوب

نفسه . والقرطاس نموذج للاسلوب العربي في التاريخ .

يقول المستشرق فانيان مترجم كتاب البيان أن هذا المصنف التاريخي ليس فيه إنصاف المؤرخ المنهجي . وكتاب القرطاس من النوع نفسه .

ثم إنه يصنف الحوادث حسب تسلسلها التاريخي . وقائمـة التواريخ هي السلاح القوي في النص ، على أن تفاصيل الأرقام كثيرة ودقيقة على نحو غـير مألوف في الغرب ، فالمؤلف لا يكتفي بذكر السنة واليوم المعـين في الشهر بل يحدد اليوم من أيام الأسبوع وحتى اللحظة التي وقعت فيها الحادثة. مثال ذلك أن القائد الفاطمي جوهر وهو مسيحي قد دخل فاس بعد حصارها في «صبيحة يوم الخميس الموافق للعشرين من رمضان سنة ٣٤٩ » . ويقول أيضاً : « في ليل يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال ٢٦٧ ، وقعت هزة أرضية لا يذكر أي انسان من قبل أنه شعر بمثلها » .

الى جانب هذه التواريخ الدقيقة نجد أشياء تقريبية :

« في سنة ٣٤٩ استولى السلطان الناصر الادريسي على سوته وطنجـه ... ويقول بعضهم إن الاستيلاء قـد تم عام ٣١٩ » . فبينما يحرص مؤلف القرطاس على ذكر الساعة واليوم نراه أحياناً يتسامح في اختلاف بالتاريخ يبلغ الثلاثين سنة . ويذكر القرطاس بكثير من الدقة التواريخ المتعلقة بالفلك :

« سنة ٢٦٦ ، وفي ليل ٢١ صفر ، لاح في السماء صبح شمالي استمر طيلة الليل ... وفي سنة ٢٩٩ وقع كسوف شمسي كلي يوم الأربعاء ٢٩ شوال وقـد اظلمت الشمس بعد صلاة العصر » .

وهنا يتضح لنـــا أمر مهم : فلعل اهتمام القرطاس بالأيام والساعات يفوق اهتمامه بالسنين شأن المنجمين وعلماء الأبراج . وحتى التاريخ الروماني كان في بدايته فرعاً من فروع التنجيم ، يهتم بأيام السعد وأيام النحس، والقرطاس قريب لهذا النوع من التاريخ .

ولعنوان الفصل الأخير من الكتاب، وطوله سطران ونصف السطر ، أهمية في كشف طابعه المميز :

«حكم امير الزمان ونور العصر الإمام السعيد أمير المسلمين أبي سعيد خليفتنا بدأ في سنة ٧٢٦ هذه » .

والفصل كله يسير على هـــذا النحو من الإطناب . وظني أن أبا سعيد هو السلطان المريني العاشر . ويخصص الكتاب ١٦٠ صفحة أي نحو ثلث صفحاته للحديث عن هذه الأسرة بنوع من التزلف . وهو لا يتحدث عن السلف إلاّ من وجهـــة نظر المرينيين . وهكذا فإن مفهوم مؤلف القرطاس للتاريخ يختلف ومفهومنا له اختلافاً تاماً .

وإليك على سبيل المثال بعض المعلومات التي يوردها :

« كان في فاس أيام حكم المنصور الموحّـد ٧٨٥ مسجداً و ٩٥ حماماً عاماً و ٤٧٢ طاحونة . أمّا في أيام حكم الناصر فكان فيها ٨٩،٢٣٦ بيتاً و ٤٦٧ فندقاً و ٩٠٨٢ حانوتاً وسوقان كبيران ، و٣٠٦٤ معملاً و ١١٨ مغسلاً و ٨٦ دباغة و ١١٦ مصبغة و ١٣٦ مخبزاً ، و ١١٧٠ فرناً و ٤٠٠٠ مصنع ورق » .

ويخصص الكتاب الصفحات الطوال لوصف جامع القرويين في فاس . ويذكر لنا تاريخ المسجد الذي اندثر منـــذ سنين طويلة ، وكانت قد أمرت ببنائه امرأة ورعـــة ثرية . وبدأ البناء فيه في اليوم الأول من شهر رمضان سنة ٢٤٥ هجرية وكان طوله ١٥٠ شبراً من الشمال الى الجنوب،وله اربعـــة صحون وباحة صغيرة ومحراب » .

ويستفيض القرطاس بالحديث عن جامع القيروان القائم حالياً والذي شيد في مكان المسجد القديم ويذكر لنا بتوسع ما كتب على جدران المسجد حول تاريخ بنائه ، كل ذلك بدقة تامة (بين ٣٤٤ و ٣٤٥) واجريت عليه اصلاحات مهمة سنة ٦٨٨ .

ومئذنته عبارة عن برج مربع يبلـغ عرض كل جانب منهـــا ٢٧ شبراً واستخدمت ٥٢،٠٠٠ آجرة في تبليط الباحـة . وإليك المزيـــد من التفصيل : للمسجد ١١ رواقاً يغطي كلاً منها ٢٠ صفاً من الآجر وفي كل صف ٢٠٠ آجرة الخ ...

أشرف على بناء الحوض ونافورة المياه وسط الباحة مهندس بارع اسمه ... وذلك سنة ٥٩٩ . والحوض مصنوع من المرمر الأبيض وهو مزود بقسطل من الرصاص مدّ تحت الأرض .

وفي المسجد ٢٧٠ عموداً تؤلف ١٦ صحناً كل منها مكوّن من ٢١ رواقاً . ويتسع كل رواق لأربعة صفوف من المؤمنين أي ٢١٠ أشخاص بمعدل ٤٨٠ شخصاً في كل صحن ... بحيث يبلغ مجموع المصلـــين ٢٢،٧٠٠ . وقـد استخدمت ٤٦٧،٣٠٠ قرميدة لتغطيـــة سقوف المسجد . وللمسجد أيضاً ١٥ باباً كبيراً وبابان صغيران للنساء . وزنة الثريا ١،٧٦٣ ليبرة ولهـا ٥٠٩ مناقير . وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان حين تضاء جميع مصابيح المسجد وعددها ١٧٠٠ ، يبلغ استهلاكها من الزيت ثلاثة قناطير ونصف القنطار .

وإذا كانت المساجد من اهم الابنية في فاس ، فالقرطاس يذكر لنا ايضاً متنزهاتها العامة ومراحيضها المبلطة بالرخام .

كما يعير القرطاس انتباهه لأحياء فاس فيصفها بدقة . فمن بوابـــة افريقيا الى ينبوع زليطن تقوم الفنـــادق والحمامات والطواحين والأسواق . وتكثر المصابغ هناك نظراً لقرب المكان من الماء وذلك على ضفتي الوادي الكبير . ولا يزال هذا الوادي بادياً للعيان حتى اليوم في حين اختفت السواقي الأخرى تحت الأبنية .

وفي الكتاب صفحات وصفحات تتحدث عن خطبـاء الجوامع . وخطيب جامع القرويين لا يقتصر عمله على المهمات الدينية بل هو الوجيه الأول في المدينة قضاتها .

وعن الخطباء يتحدث مؤلف روض القرطاس بكثير من التحبب ، ولا يغرب عن باله ذكر تاريخ مباشرتهم العمل وتاريخ انتهائهم منه . مثال ذلك أن « ... ألقى خطبته الأولى نهار الجمعة أول جمادى الأولى سنة ٥٤٠ وظلّ خطيباً للجامع حتى آخر حياته » . ويذكر أحياناً بعض التفاصيل المهمة كأن يقول مثلاً : « بمجيء الموحدين حلّ في مكان ابن عيسى الفقيه الفاضل ابن عطية الذي كان يتقن اللغة البربرية » . ويقول ايضاً « كان الفقيه الجروري لا يتقن اللغة البربرية كل الاتقان بحيث أنه لا يستطيع إلقاء الخطبة ، ولذلك احتفظ بوظيفته كإمام وأوكل أداء الخطبة لشخص آخر » .

إن تفصيلاً من هذا النوع من شأنه ان يلقي ضوءاً ساطعاً على عصر الموحدين لكن مؤلف القرطاس لا يذكر هذه الأمور إلاّ بطريق الصدفة . أما التفاصيل التي يقف عندها طويلاً فهي من نوع آخر : « كان ابن عيسى ذرب اللسان واضح الكلام قوي الحجة . وكان في كل جمعة يلقي خطبة جديدة » .

والمعلن تسلّم وظيفته بصورة مثيرة وقد أعد العدّة لذلك بالدموع والصلاة . « حين بدأ المؤذن صلاة الفجر ، ارتدى المعلن أبهى حلله وسار وراء المؤذنين الى المسجد الكريم ... وظلّت دموعه تنهمر طيلة فترة الأذان ... وأدى الصلاة بلا خطأ او وجل ثم وقف تحت المحراب وألقى خطبة كلها حكمة ووضوح ولم يستطع الحاضرون حيالها ان يوقفوا دموعهم عن الانسياب » .

ليس هذا الاسلوب غريباً علينا معشر الأوروبيين فقد ورد في كتب سير القديسين كثير من الكلام المشابه ، غير أن جمع هذه الأخبار في مصنف تاريخي أمر لا نفهمه أبداً . وكتاب روض القرطاس لا يفرق بين أهم الحقائق التاريخية وأبسط الحوادث العادية .

« سنة ٥٩١ انهزم المسيحيون في معركة ألركوس ولاقوا حتفهم بالآلاف » . ومعركة ألركوس تحتل مكاناً بارزاً في التاريخ الاسباني شأن معركة بواتييه في تاريخ فرنسا .

« بنيت مدينة الرباط سنة ٥٩٣ » ثم يذكر مئذنة اشبيلية ، (لاجيرالدا) و « مئذنة الكتبية في مراكش » . وهي من أهم المآذن التي تمثل الهندسة المغربية . هذه برأينا وقائع مهمة ، لكن القرطاس لا يتطرق اليها إلاّ في ملخص موجز « للأحداث المهمة في عصر الموحدين » .

بعد الموجز مباشرة ينتقل مؤلف الروض الى القول : « في سنة ٥٩٣ نفسها توفي العالم الفقيه بن ابراهيم الذي بلغ الاربعين من عمره ولم يقم الصلاة مرّة واحدة خارج المسجد » كما توفي الفندلاوي الفاضل « الذي حضر دفنه أمير المؤمنين » .

ولنلاحظ هنا أن ذكر معركة ألركوس المهمة لم يتعد السطرين ، وبناء الرباط لم يزد على الخمسة في حين خصص صفحتين كاملتين للحديث عن مراسم دفن العلماء .

وإليك فقرتين متتاليتين من الفصل الذي يوجز فيه « الحوادث المهمة تحت حكم المغراويين :

« سنة ٣٨٥ هبّت رياح عاتية قذفت الحيوانات بين الارض والسماء . ليقنا الله من غضبه » . « وفي سنة ٣٩١ توفي الامير زير بن عطية » وجدير بالذكر أن هذا الامير هو مؤسس حكم سلالة بن عطية .

وفي روض القرطاس فصل مخصص لحكم بن كنون آخر أُمراء الاسرة الادريسية . وهو انسان عاش حياة صاخبة عرف خلالها الظفر والانكسار والسجن ، وإليك كيف تنتهي مغامرته : « أُرسل رأسه للمنصور ، وقد تسلمه في قرطبة في أول جمادي الأوّل سنة ٣٧٥ » .

وكان الامويون حكام اسبانيا والفاطميون حكام تونس يتنازعون على مراكش طيلة فترة حكمه .

وقد حقق القائدان غالب وجوهر النصراني انتصارات عديدة كما حاصرا فاس واستوليا عليها . وفي زحمة الحوادث الجسام ينتقل مؤلف القرطاس

للحديث بإسهاب عن قطعة من العنبر عثر عليها بن كنون على الشاطىء، ويخصص لها صفحة كاملة .

ويذكر القرطاس احياناً بعض الصور المفيدة ، فيقول مثلاً : ان جوهر النصراني عاد الى المهدية بعد استيلائه على فاس حاملاً معه اميرها وخمسة وعشرين رجلا من شيوخها مسجونين في اقفاص وضعت على ظهور الجمال .

لقد كان كاتب الروض من مدينة فاس يعرف كل ركن فيها ، ويرى انها مدينة بكل شيء للأسرة الادريسية . ويقول القرطاس في وصف وفـاة بن كنون آخر امراء هذه الأسرة : « عندما توفي بن كنون هبّت ريح هائلة حملت معطفه الى مكان لا يعرفه احد » . وذلـك دلالة على اهميته ودخولـه في الاسطورة .

وفي الفقرة التالية يذكر الروض وجهة نظر الامويين بلا مقدمات : « يقول ابن الفياض ان حسن بن كنون كان شريراً عاتيـاً لا رحمة في قلبه » . ويورد المؤلف هذا التناقض غير عابىء به .

وإليك ما ذكره الكتاب عن موقـف بن كنون من الجيوش الفاطميـة والأموية :

« اعترف بن كنون بسيادة الفاطميين طيلة إقامة جوهر (القائد الفاطمي) . وبرحيل جوهر في نهاية عام ٣٤٩ وضع نفسه في خدمة الأمويين لا حباً بهم وانـّما خوفاً منهم ،وظل موالياً لهم حتى مجيء بلكين خليفة جوهر ».

« وبمجيء بلكين، كان بن كنون المقيم في البصرة اول من شق عصا الطاعة على الامويين وعمل على زعزعة حكمهم » .

ولكن الروض لا يوضح لنا كيف ان بن كنون كان يؤثر الفاطميين . وميزة الكتاب انه يترك لنا مجال التأويل والتفسير. وإليك كيف يوجز تاريخ الأسرة الادريسية :

« لقد دام حكمهم بين اعتلاء ادريس العرش يوم الخميس السابع من ربيع الأول عام١٧٢ ، ومصرع بن كنون في شهر جمادي الاول سنة ٣٧٥ ، مايقي عام وعامين وخمسة اشهر . وامتدت سيطرتهم من سوسه الى وهران . وقد حاربوا الفاطميين والامويين الذين انتزعوا منهم الخلافـــة... والبقاء لله وحده» .

وهكذا نرى ان مؤلف القرطاس يعنى اكثر مـا يعنى بأخبار الانتصار والهزيمة دونما اهتمام لتفاصيل المعارك وظروفها .

وإليك نموذجاً عن اسلوب القرطاس يعطينا فكرة عامة عنه . فيذكر وفاة المهدي مؤسس أسرة الموحدين وأشهر حكامهم دون أن يسعى لإزالة الالتباس:

« توفي المهدي صبيحة الخميس ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤ كما روى البرنسي .ويرى ابن الحاشب أنه توفي يوم الأربعاء في ١٣ رمضان ٥٢٤ . ويذكر كتاب آخرون أن المهدي قد تولـّى الحكم في أول يوم سبت من شهر محرّم سنة ٥١٥،وتوفي في ١٣ رمضان سنة ٥٢٤ . ويضيف هؤلاء أن حكم المهدي دام ثماني سنوات وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً .

« وأصحّ الروايات على ما يبدو روايتا الصلاح وابن رشيق ، وتذكران أن المهدي بويع بالملك يوم السبت الموافق لأول رمضـان سنة ٥١٦ وانه توفي يوم الأربعاء الموافق١٣ رمضان سنة ٥٢٤. ويأتي آخرون ليزعموا بأنهم قرأوا كتاباً للأمير أبي يعقوب يفيد بأن حكم المهدي قد دام ٣،٥٨٥ يوماً ، أي ثماني سنوات وخمسة عشر يوماً ابتداء من نهار السبت يوم مبايعته حتى نهار الأربعـاء يوم وفاتـه » .

ذلك نموذج لأسلوب مؤلف القرطاس في التاريخ وهو يعدّ من المؤرخين العرب المعروفين.وهنا يتبادر الى الذهن قول رينان في مقارنته بين الشرقيين والغربيين: ليس لدينا نحن الأوروبيين أي حس ديني ، أما الشرقيون فليس لديهم حسّ بالتاريخ، ولعلّ الحسّ الديني والتاريخي يتعارضان .

يبقى ان نذكر شيئاً عن طريقة تأليف الكتاب . لقد اعتمد مؤلفه المقص اعتماداً كبيراً وإليك آخر استشهاد يأتي به :

« اخذت كلّ ما سبق عن القويقري ناظر المدينة تحت حكم الناصر الموحد». الى ان يقول : « يروي ابن غالب عن عبد الملك ... ذهبت الى تلمسان عام ٥٥٠ وعثرت على لوحة مكتوبة ...»ويسرد القرطاس كل الرواية .

وهناك امثلة من هذا النوع لا تحصى . على ان كاتب القرطاس لا يحرص دائماً على ذكر مصادره . ولا يسعى لغربلة المعلومات المتضاربة بل يوردهـــا كما هي بدون تعليق .

فإدريس الثاني مؤسس فاس توفي عن عمر يناهر الثالثة والثلاثين وذلك سنة ٢١٣ كما يروي بعضهم ، اما البرنسي فيقول بأنه مات مختنقاً وهو يلتهم العنب في ١٢ جمادي الثاني سنة ٢١٣ وكان في الثامنة والثلاثين .

ويورد البعض انـــه توفي في فاس ودفن في المسجد من ناحية الشرق او من ناحية الغرب . اما البرنسي فيقول انه مات في « وليلي » ودفن في مقبرتهـا الى جانب ابيه . ولا يرى كاتب القرطاس ان من واجبه ترجيح احدى الروايتين.

وفي الجزء المخصص للموحدين يصور الكتاب قبائل صنهاجة الصحراويين على انهم قوم اتقياء يؤدون فريضة الحج الى مكة ويشنون الحرب المقدسة على الزنوج .

وفي الصفحة اللاحقة يصمهم بالوثنية المخيفة وقد «توصل احد الدعاة لإقناعهم باعتناق الاسلام . والحمد لله » .

والكتاب مقسم الى فصول يتناول كلّ منها احدى الأسر الحاكمة كالادريسيين والزناتيين والمغرينيين والمرابطين والموحـدين والمرينيين . يعقب ذلك ملخص للفصل بعنوان أهم الأحداث التي وقعت في عهد كل أسرة وهو نوع من التكرار . غير انه يورد أحياناً معلومات جديدة لم يذكرها في الفصل الموسع . ويعني ذلك أن المؤلف لم يبذل مجهوداً في التأليف ، وجلّ همه أن يسرد مـــا صادفه من

معلومات مع الحرص على عدم اغفال أي منها .

ولا يغربن عن البال أن كتاب القرطاس ينتمي للقرن الرابع عشر أي عصر ابن رشد وابن خلدون .

أما لماذا سمي الكتاب بروض القرطاس فذلك كما يقول الشارحون العرب في القرن التاسع عشر : « لأن الإمام عبد الحليم قد جمـــع الكثير من النتف والوثائق والأوراق المبعثرة وضمها بين دفتي كتاب ، كما تضم الحديقـــة أنواع الزهور » .

ثم إنه لا بدّ لي من ذكر الصعوبة التي يصادفها المترجمون في نقل اللغة العربية الى اللغات الاوروبية . فكلمات اللغة العربية ومدلولاتها لا تنطبق تمامـــاً على كلماتنا ومدلولاتنا .ونقل كتاب من العربية الى الفرنسية أمر شاق جدّاً يختلف عن الترجمة من لغة اوروبية للغة أوروبية أخرى .

على أن المستشرقين والمستعربين يتنبهون دائماً لهـــذه المشكلة التي تعترضهم دائماً وهم لا يألون جهداً في تجنبها قدر الإمكان .

٣ـ ابن خلدون

يختلف ابن خلدون كل الاختلاف عن كاتب روض القرطاس . فهو فريد من نوعه بين المؤرخين العرب – المغاربة على الأقل – نظراً لتفوقه وعبقريته .

ويحق للمغرب ان يفخر بابن خلدون ويضعه في مصاف هنيبعل والقديس اغسطينوس . ومن العجيب حقاً ألاّ يصادفك اسم ابن خلدون على لائحة العظماء في مكتبة القديسة جنفياف بباريس الى جانب الرازي وامثاله . ومن غير الإنصاف أن تقتصر معرفة اسمه على المتخصصين وحدهم . بل ينبغي ان يحاط بكل آيات التعظيم والإكبار . وبوسعنا ان نؤكد انه لولا ابن خلدون لما استطعنا أن نتعرف على ما جرى بين تونس وطنجه منذ الفتح العربي وحتى العصور الحديثة . وانه لشرف عظيم للإنسانية ان يأتي رجل كابن خلدون فيسجل في ذاكرة البشر ما أغفله البشر طيلة ألف عام . وبإلحاح كليّ ادعو لإضافة اسم ابن خلدون الى مؤرخينا الكبار من امثال غريغوار دي تور ، وفرواسار وسالوست ، لتدريسه في المعاهد . ومهما يكن من أمر فإنه إذا ذكر المغرب لا بد وان يذكر ابن خلدون . ولنحاول الآن ان نلقي ضوءاً على حياة هذا الرجل وأثره .

عصره

عاش ابن خلدون بين سنة ١٣٣٢ و١٤٠٦، ولدينا في غير الأرقام معلومات تدلنا عليه .

ففي سنة ١٤٠٠ بالضبط وفي مدينة دمشق بالذات مثل شيخ في السبعين بين يدي تيمورلنك الذي غزا مدينة الأمويين . وهي الحقبة التي تعاصر في تاريخنا حرب المئة عام في نهاية العصر الوسيط .

ومما يزيد في اهمية ابن خلدون انه عاش في فترة انتقال بين العصر الوسيط والعصور الحديثة .

وكان يعي بعبقريته الفذة تلك الحقبة التي عاش فيها . وفي ذلك يقول : « يعيش المغرب هذه الأيام ثورة عميقة ». كما أدرك انه عاش في «فترة تقهقر تتغير فيها معالم البلاد » وان العالم يجتاز فترة « انقلاب شامل » ... « وستتغير طبيعته من اجل ولادة خلف جديد » .

والتشابه واضح بين « الخلف الجديد » وبين « عصر النهضة » كما يسميها الاوروبيون . ففي بلاد المغرب انهزم المسلمون في اسبانيا وانهار بذلك العديد من الممالك البربرية ، فانهار المغرب المستقل بانهيارها وتبددت الآمال الوطنية . وجاء الأجانب ليبسطوا سيطرتهم . وعلى مرتفعات الجزائر العالية حلّ البدو الهلاليون نهائياً محل البربر الزناتيين . ثم تمركز اتراك بربروسه على الشواطىء .

انها ثورة عارمة لا تصح تسميتها بعصر النهضة . ومن غريب الصدف ان تكون تلك الفترة مشابهة لما كانت عليه اوروبا في نفس الوقت ، مما يعزّز الاعتقاد بأن الحجاب بين الشرق والغرب ليس كثيفاً بقدر ما يتصور الناس .

وفي مغرب ابن خلدون ملامح من مغربنا اليوم . ففي كتابه نلاحظ التمايز

بين التل والصحراء . كما نعثر على الشاوية والقبائل والعرب وهي الشعوب التي كانت تقطن الجزائر .

ويفسّر لنا ابن خلدون كيفية سيطرة هذه الشعوب على مناطقها . « فلم يستطع العرب السيطرة إلاّ في البلدان الواقعة في السهول » في حين « تحصن القبائل في الجبال الوعرة » .

ويرسم لنا ابن خلدون ملامح المغرب القديم وقد بدأت تتسرب اليه سمات العصر . كانت الأسر البربرية الحاكمة من حفصيين ومرينيين وموحدين وحتى المرابطين كانت لا تزال قائمة أو أن ذكراها لم تزل من الأذهان . لقد عايش ابن خلدون تلك الحقبة ونقل إلينا صلة الوصل بين العصر الوسيط والعصور الحديثة وهذا ايضاً مما يضاعف من أهميته التاريخية . وكتابه بمثابة قبس من نور يضيء قروناً عديدة .

إنه شخصية أدبية فريدة يتمتع بموهبة النظر والتحليل والسرد الحي .

سيرته

وشخصية ابن خلدون متميزة في أدق تفاصيلها . فهو انسان بكل ما للكلمة من معنى . وكتابه وحده ينبئنا عن مدى قوة شخصيته ونفاذ بصيرته . وقد ترك لنا ترجمة كتبها بكثير من الوضوح وضمنها أدق التفاصيل عن عصره .

ومن الغريب حقاً أن يكون قد فكر بكتابة سيرة حياته ، لعلّه قد أدرك ببصيرته الخارقة حاجتنا اليها في يوم من الأيام .

ابن المغرب

كانت حياته ضاجة بالأحداث ، فقد تنقل بين جميع البلدان الاسلامية الواقعة في جنوبي المتوسط . وجاب الطريق من غرناطة الى اشبيلية من ناحية وتنقل بين القاهرة ودمشق من ناحية اخرى .

ويوضح ابن خلدون الرابط بين كتابه وبين إقامته بالمغرب فيقول : « بودّي أن أقصر البحث على تاريخ المغرب وقبائله واوطانه وممالكه واسره الحاكمة. وليس في نيتي الاهتمام بالبلدان الأخرى ، ذلك لأنني لا املك ما يكفي من معلومات عن المشرق وشعوبه فالمعلومات المستهلكة لا تسد حاجتي » .

وفي سنوات حياته الاخيرة في مصر تخلّى عن مخططه الاول . ففي مصر تولّى منصب مفتي المذهب المالكي اي مذهب اهل المغرب . ومهام الافتاء كما هو معلوم ليست دينية بحتة بل قضائية وادارية أيضاً . فقد كان على حدّ تشبيهنا قنصلاً للمغرب في مصر .

ولما مثل بين يدي تيمورلنك في آخر حياته كان ابن خلدون يرتدي عمامة خفيفة وبرنساً أشبه بلون الغسق . يعني ذلك انه لم يغيّر هندامه المغربي بعد إقامة عشرين سنة في المشرق . وقد أثار البرنس انتباه تيمورلنك وقال : « هذا الرجل ليس من أهل هذه البلاد » .

وكتاب ابن خلدون يحمل اذا صحّ التعبير برنس صاحبه . وكان شغوفاً بالمعرفة الحية ، المعرفة الملموسة . وهي صفات تجعله عبقري الكتاب المسلمين في عصره بل أقول في كل العصور .

أصله النبيل

ابن خلدون اسم العائلة التي ينتمي اليها كاتبنا الكبير ، وهذا نادر في البلدان الاسلامية . واسمه الأوّل أبو زيد عبد الرحمن وكنيته وليد الدين . غير ان التاريخ لم يذكر لنا اسماً آخر من أفراد عائلته حتى غدا اسم العائلة اسمه هو .

يتحدر ابن خلدون من اسرة حضرموتية عاشت في القرن العاشر للهجرة ، وما كانت أصوله البعيدة لتهمنا لولا انها تلقي بعض الضوء على حياته . وكان جده خالد او خلدون ضابطاً في جيش الفتح العربي بشبه الجزيرة نحو القرن التاسع (٨٣٠ — ٨٤٠) . ويبدو من المؤكد ان الأسرة أقامت في أشبيلية عدة

قرون وكانت تعتبر من وجهائها في القرن الحادي عشر ، ونزحت في منتصف القرن الثالث عشر هرباً من الغزو المسيحي لتلجأ الى افريقيا .

كانت أسرة ابن خلدون اذن أسرة أندلسية نبيلة نزحت الى المغرب قبل قرن ، حين ولد فيها العلاّمة الكبير . ويقول المؤخون إنه ينتمي للجيل الخامس من النازحين وهو الوقت الكافي لحصول أسرة أندلسية على الجنسية المغربية . ولا تغربن عن البال اصوله الاسبانية والعربية وقد كان يدرك ذلك جيداً . ويكاد يكون مواطناً عالمياً .

وفي المغرب كما في اسبانيا مارست أسرة ابن خلدون مهنة واحدة توارثتها اباً عن جد ، كانوا رجال بلاط وسياسيين . وكان جد صاحبنا وزيراً لبيت المال في تونس وحكم عليه بالإعدام وحجزت امواله . واهمية الوزير تقاس بشدة سقوطه .

وسار الابن على خطة آبائه الذين عملوا منذ نزوحهم الى الاندلس في خدمة اسرة حاكمة واحدة هي اسرة الحفصيين في تونس . اما ابن خلدون نفسه فعمل في خدمة الحفصيين والمرينيين في بجاية وفاس وفي خدمة عبد الواحد في تلمسان . كما خدم سلاطين غرناطة وحكام مصر . وقد تسنى له ان يدخل بلاط بطرس السفاح ملك قشتاله سفيراً وكذلك قابل تيمورلنك .

ويشبه ابن خلدون في سعة افقه وميله لاستخلاص القواعد العامة كبار المؤرخين الذين انتقلوا من السياسة الى التاريخ على غرار توسيديوس وسان سيمون. وخليق بنا الآن ان نبدي ملاحظة حول اسلوب ابن خلدون . لقد كان الرجل ذا ثقافة واسعة ، واسلوبه لم يكن سهلاً ابداً وكأنه كان يكتب لنفسه غير عابىء بضعف القارىء . والثابت انه وضع كتاباته على عجل ولم يكن لديه الوقت الكثير للمراجعة بسبب نشاطاته الواسعة . ولا سيما وانه لم يبدأ الكتابة قبل سن الثانية والاربعين أي عام ١٣٧٤ حين وجد لزاماً عليه

الاقرار بفشله كسياسي ولجأ الى قصر توزرت العربي على بعد تسعة اميال جنوب غربي تيهرت على الضفة الشمالية لمينا العليا . وقضى هناك سحابة اربع سنوات في تحرير مقدمته الشهيرة .

وفي اوكتوبر أو نوفمبر ١٣٧٨ غادر توزرت قاصداً تونس مسقط رأسه ولم يكن قد زارها منذ عشرين سنة . ووجد لدى سلطانهـــا الحفصي شعوراً طيباً حيال اهل الفكر « وحيث كان الامير راغباً في اغناء معلوماته التاريخية فقد كلفني بالعمل على انهاء كتابي عن البربر والزناتة . وحين فرغت من تأليفه... اهديت نسخة لمكتبته الخاصة ». كان ذلك قبل شهر اوكتوبر من سنة ١٣٨٢ . وهكذا يكون ابن خلدون قد خصص ثماني سنوات فقط لوضع مؤلفه الكبير المكوّن من ستة اجزاء او سبعة كلها زاخر بالمعلومات . وسرعة التأليف يبترر الى حدّ ما اسلوبه المرسل .

امّا في باقي حياته وخاصة في المرحلة الاولى فكان جاداً في السعي وراء السلطان .

حياته السياسية والسلاطين

بين الواحدة والعشرين والرابعة والثلاثين كان ابن خلدون متنقلاً بين سلطان وآخر بحيث يصعب حصر تنقلاته. وكانت أسرته مدينة للسلاطين الحفصيين في تونس وبدأ هو عمله كاتباً لديهم مذ كان في العشرين ، ينمق كتابات السلطان ويديجها « الحمد لله والشكر لله » .

وما كاد يدخل معترك السياسة حتى تنكر لأصحابه الأوّل بعد ستة اشهر كما يقول المؤرخ سلان . وقد كان للحفصيين اخصام تقليديون هم المرينيون في فاس ، عمل كاتبنا في خدمتهم واضعاً نصب عينيه هذا المبدأ : إذا كان وضع اصحابك في خطر فاعمل من اجل مستقبلك . واغتنم فرصة البلبلة التي سادت احدى المعارك الحربية وفرّ الى كنف المرينيين . وفي طريقـــه الى فاس عين

موظفاً في مدينة بطحا التي اختفت اليوم من الوجود وما لبث ان انتقل الى العاصمة حيث مكث فيها عشر سنوات اي بين سن العشرين والثلاثين . وهنـــاك قضى فترة من القلاقل السياسية حيث شهد موت السلطان والوصاية على العرش والثورة ثم الثورة المضادة ثم الثورة المضادة للثورة المضادة وظلّ محافظاً على وجوده في ذلك الجوّ المشحون . وفي بداية دخوله في خدمة المرينيين تآمر ضدهم بالاشتراك مع امير حفصي « واهملت اتخاذ الاحتياطات اللازمة في مثل هذه الاحوال » وحكم عليه بالسجن عامين . ويبـدي في مناسبة اخرى اسفه « لأن طيش الشباب قد دفعه للتطلع عالياً جداً » .

وفي سنة ١٣٦٢ غادر فاس قاصداً جبل طارق ساعياً وراء الحظوة لدى سلطان غرناطة . وعينه هذا سفيراً له ، وقد رأيناه في اشبيلية يغازل بطرس السفاح . « لقد اراد ان يستبقيني في خدمتـه (يعني ملك كاستيليا) ووعدني بأن يسترجع لي ثروة اجدادي » . ورفض ابن خلدون ووهبه السلطان قطعة ارض جميلة في سهل غرناطة « اقام فيها مع عائلته . ولم تدم الحال طويلاً ، ففي مارس — ابريل سنة ١٣٦٥ استقل البحر من العامرية وبلغ بجايه بعد اربعة عشر يوماً .

هناك لاقى شريكه الحفصي الذي تآمر معه وقد اصبح ملكاً . وفي تلك الفترة بلغ ابن خلدون ذروة مجده السياسي فقد اصبح الوزير الاول وحاجب السلطان اي نائبه . وذلك لعدة شهور . وقتل أمير بجّايه في ارض المعركة على يد ابن عمه ابي العباس سيد قسطنطينة . ويقول في وصف الوضع حينذاك « جاء لمقابلتي في البلاط وفد من اهـالي بجايه طالباً اليّ ادارة دفة البلاد وتنصيب احد ابناء السلطان المتوفى ملكاً . غير انني لم اسمع كلامهم وغادرت المدينة قاصداً ابا العباس ، فاستقبلني هذا بجفاوة . وسلمته حكم بجّايه». لكن ابا العباس كان حذراً منه ووضع حـداً لوظيفته بالبـلاط سنة ١٣٦٦ وكان في الثالثة والثلاثين . لقـد سعى ابن خلدون الى الحكم بجميع الوسائل ، لكن

محاولاته باءت بالفشل .

وجدير بالذكر ان كاتبنا لم يرتبط عاطفياً بأحد . ويذكر عن أيام سجنه أيام السلطان المريني في فاس : « طلب السلطان اليّ بعض المعلومات عن بجايه وقد أبدى رغبة في الاستيلاء عليها ، فأشرت عليه بأن العملية سهلة ... فأمر بإطلاق سراحي في اليوم التالي ».

وبعد ان عمل في خدمة ابي حموّ سلطان تلمسان دبّر عملية استولى فيها الوزير المريني على كنوز ابي حمو وامتعته في الزاب .

كذلك في بلاط تيمورلنك ، فحين استولى هذا الأخير على دمشق أعمل في أهلها قتلاً وتشريداً وسبى نساءها ولم يتورع ابن خلدون عن مقابلته . ودعاه تيمورلنك للعشاء مع عدد من الوجهاء المصريين وراح القائد التتري يحدج ضيوفه بنظرات غريبة دبّت الرهبة في قلوبهم فأمسكوا عن الطعام . في حين تناول ابن خلدون طعامه بشهية ، وقال مخاطباً تيمورلنك : « سيدي واميري ، لقد بلغت من العمر عتياً واصبح بوسعي ان اعرف من هو جدير بالملك . إن مصر لا تريد ملكاً سواك ... أمّا بالنسبة اليّ فأنت لي بمثابة الثروة والعائلة الخ ... » وهكذا خرج من ورطته . وكان شيخاً في الثامنة والستين . ولكن ما هو نصيبه من مواقفه تلك ؟ وهل ضاق الحكام ذرعاً به ؟

علينا ألاّ ننظر لابن خلدون نظرة عصرية ونزنه بمعيار الخيانة والإخلاص . وقد اعجب المحدثون بطباعه تلك كما اعجبوا بعلمه ، وحتى السلاطين الذين خانهم لم يضمروا له الحقد .

ذلك ان التقلقل كان ميزة العصر برمته وليس عيباً في شخص ابن خلدون وحده . فالوفاء لم يكن صفة حميدة في بلاد البربر . وحتى الرومان نددوا « بالعقيدة البونية » .

وبعد ان فشل صاحبنا بسبب سلوكه هذا في المحافظة على اصدقائه في المغرب

والأندلس بدأ يعتنق مبادىء جديدة مذ بلغ الرابعة والثلاثين . وعاش بين العرب حياة الجندي بعد ان عرف حياة البلاط .

فقد عاشر بدو بني هلال الذين أمّوا بلاد المغرب مع نسائهم واطفالهم وباتوا يشكلون عنصراً بشرياً جديداً منذ نهاية القرن الحادي عشر .

وكان هؤلاء حتى القرن الرابع عشر متميزين عن الوسط البربري الذي نزحوا اليه ، وقد عاشوا في عزلة جنوبي تونس بمنطقة هدنة واتخذوا بسكره عاصمة لهم ، كما كانوا يعملون في خدمة السلاطين ولحسابهم في الغزوات على غرار حرب المئة عام في اوروبا.

وكتب ابن خلدون عن هؤلاء البدو الشيء الكثير « لقد كانوا طائفة من القراصنة وقطاع الطرق ، يهدمون عمارة بكاملها كي يقتلعوا منها حجراً يسند قدرهم الموضوعة على النار . واذا لزمهم بعض الحطب اقتلعوا السقوف لإحراق خشبها في النار».

وبين هؤلاء عاش ابن خلدون حيث استقرّ في بسكره عام ١٣٦٦ مع عائلته. وقد وجد ان سلاطين المغرب والبدو الهلاليين على صلة وثيقة ، فالسلاطين بحاجة للرجال والبدو يحتاجون للمال . وأمضى في هذا الجوّ سحابة ثماني سنوات أي من عام ١٣٦٦ وحتى ١٣٧٢ ، وسيطاً بين الجنود العرب والسلاطين البربر .

وكانت أسرة عبد الواحد البربرية تحكم تلمسان وقتئذ ، وهي الوحيدة التي لم يكن ابن خلدون قد عمل في خدمتها على ما أظن . ورفض الإقامة في تلمسان غير انه كان يتنقل بينها وبين بسكره باستمرار. ولم يكتف بتجنيد البدو لصالح الأسرة الحاكمة بل تولّى بنفسه قيادة احدى العصابات واشترك في معركة القطفة (وهي مرتفعات جبلية تقع على بعد ٢٢ ميلاً جنوب شرقي الجزائر) .

وفي هذه المرّة ايضاً كان عاثر الحظ ، فقد انقلب حاكم فاس المريني على حاكم تلمسان وأقصاه عن الحكم ، فعمد ابن خلدون للتعاون مع الرابح كعادته

وقاد معركة القطفة مرة اخرى لحساب الحاكم الجديد . وهنا بلغ اوج مجده العسكري .

وأثار نجاحه الكبير في اوساط البدو حفيظة احمد بن مزنه حاكم بسكره . وكان ينوي التآمر عليه . وفي سنة ١٣٧٢ غادر ابن خلدون بسكره غير آسف . وأدرك أن أبواب السلطة اقفلت دونه وراح يعود نفسه على نسيان الملك سواء في مراكش أو تلمسان لينصرف كلياً للأدب . وعامل السن وحده هو الذي دفعه الى ذلك . وأغلب الظن انه لو أصبح كبير وزراء المرينيين او بويع بإمارة بسكره لما كتب سطراً واحداً .

نزوعه للاستقلال

كتب ابن خلدون مقدمته دون الرجوع الى المراجع ، وجميع مصادره كانت من بنات أفكاره . وكتاب المقدمة هو ولا ريب أهم مؤلفاته . لانه نتاج من خبر الحياة وقد بذل نشاطاً كبيراً . وهذا ما يجعل له قيمة فريدة . وجدير بالذكر هنا أن ابن خلدون لم يكن موالياً لأسرة واحدة ، لهذا فليس كاتب بلاط يتصرف بعقلية موظف صغير . ولم يقدم خضوعه لأحد بل كان صديقاً شخصياً للأمراء والحكام الذين عرفهم . ومن هنا انطلق نزوعه للاستقلال الفكري دون غيره من أدباء عصره .

الروح النقدية

وبخلاف الكتاب الشرقيين يبدو أن لابن خلدون ذهنية غربية من حيث الروح النقدية . ويرى من واجبه « استخلاص ما هو صحيح ممّا يبلغه من مراجع . لقد قرأ كثيراً وكثيراً جداً غير انه أدرك ان خبرته في الحياة والناس أمر لا يستغنى عنه » . ويقول « من صفات المؤرخ ان يكون ملمّاً بشؤون الحكم ، قادراً على تفهم الأحداث ، مطّلعاً على تباين طبيعة البلدان ، كي يتسنى له غربلة المراجع التاريخية التي تصل اليه » . لذا كان يعتمد كثيراً على اجتهاداته الشخصية .

وكمسلم مؤمن يختم كلامه بقوله : « والله اعلم » .

غير انه لا يكتفي فيما يتعلق بالقضايا التاريخية بالتدقيق في هوية الراوي فاذا كان من اهل الثقة صحت الرواية وإلاّ فلا تصح ، ويقول ابن خلدون ان المسائل التاريخية تختلف عن القضايا الدينية بحيث يجب البحث في النص نفسه والتأكد من قيمته وامكانية حدوثه .

وهكذا نراه يعمل العقل في ما يراه ، وبذلك يدخل عصر النهضة الذي عرفناه في اوروبا بعده .

الروايات غير المعقولة

من طبيعة العقل الشرقي القديم عدم تمييزه بين الاسطورة والواقع . وقد اصطدم الغربيون كثيراً بهذه الحقيقة حيث كانوا يتكبدون الكثير من المشاق للحصول على أمر مهم سمعوا عنه ، وسرعان ما يفاجأون بأنه مجرّد أسطورة .

وابن خلدون صادف اشياء كثيرة من هذا النوع :

منها ان الاسكندر الكبير حين بنى منارة الاسكندرية نزل الى قاع البحر في قفص زجاجي لتحدي الوحوش البحرية . وتقول بعض الروايات ان لإحدى المدن القريبة من بحر قزوين عشرة آلاف باب . وأن احدى المدن القريبة من صحراء عدن قد صنعت من الذهب والفضة والياقوت ولكنها تخفى على العين المجرّدة ولا يراها إلاّ الانسان المؤمن .

وتلتهب مخيلة الشرقي في وصف الآثار القديمة كقناة قرطاجة والأهرام وفي ذلك يقول : « كان لرجال ذلك العصر اجسام اضخم من أجسامنا واعضاء اعظم من اعضائنا بحيث ان احدهم كان يلتقط السمكة من أعماق البحر ثم يرفعها ليشويها على نار الشمس » .

أراد ابن خلدون أن يقصي كتاب المبالغات والاساطير عن معشر المؤرخين

ويحصرهم في باب « الرواة المحترفين » . ولا ننسى ان كاتبنا الكبير قد اكتشف هذه المبالغات لدى كبار المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودي والبكري وليس فقط لدى الأسماء الصغيرة .

لغة الأرقام

ولا يكتفي ابن خلدون بتجنب الروايات الأسطورية ، فكانت له نظرة نقدية بالنسبة للأرقام . ويقول « علينا ان نتوقع الكثير من الكذب والمبالغة في ما يتعلق بكمية الدراهم وعدد أفراد الجيش » . و « علينا ان نحذر هذه الأرقام الخيالية التي لا نعثر على مثلها في تجاربنا اليومية » . « ذلك ان الماضي والحاضر يتشابهان تشابه قطرتين من الماء » .

مثال ذلك ان ابن خلدون لا يجاري المسعودي حين قدر جيش اليهود بستماية ألف محارب . بينما يصدقه حين يروي بأن تعداد جيش سليمان بلغ ١٢ الفاً من المشاة و١٤٠٠ جواد .

الروح العلمية

ولابن خلدون ايضاحات مهمة تسبر غور الاشياء . فحين يتحدث عن الثراء الفاحش في مدينة القاهرة وفي بلاد الهند والصين ، فإنه لا يجاري العامة بأن هذه الثروة تقتصر على كنـــوز الذهب المتوفر في كل مكان « فالذهب والفضة وسائل للحصول على الحاجيات ليس أكثر والعمران هو الذي يزيدهمـــا او ينقصها » . ويكون العمل بالتالي هو مصدر الثروة . والثروة الطائلة سببها كثرة الناس الذين ينتجون كثيراً . تلك هي مبادىء الاقتصاد السياسي الذي نعرفه اليوم . وإليك نظريته في الربح : « بوسعنا ان نفهم الربح حين ندرك معنى الفوائد التي يجنيها التجار والصناع نتيجة ما يبذلون من نشاط » .

بعده بخمسة قرون حدّد مفكرون اوروبيون من امثال باستيا وفردريك

باسي رأس المال على انه شغل متراكم . ويكاد تحديدهما هذا ان يكون تحديـد ابن خلدون ذاته .

حتى ان حس صاحبنا بالواقع بل نقول روحه العلمية قـد حدت به للبحث في العلوم الطبيعية : « من الملاحظ ان الجبال قائمة على العموم في جوار البحار ، ذاك ان القدرة الإلهية شاءت ان تضع حاجزاً في وجـه الأمواج » . والعلم الحديث لا يعطي هذا التفسير اللاهوتي بالطبع ، غير ان الملاحظة صحيحة جغرافياً .

نقد النصوص

اليك عبارة عظيمة المدلول على ايجازها . « هناك نصوص ينبغي على القارىء ان يتجنبها لأنه لا يستطيع ان يعرف اذا كانت قديمة صحيحة النسبة أو جديدة مختلفاً عليها » . وهذا ينمّ عن رغبة في التدقيق حول المصادر واستخلاص روايات المحدثين وتقصي مواقع الخطل . وكلهـــا أمور تخص القرن التاسع عشر وليس القرن الرابع عشر حيث عاش ابن خلدون .

الفهـــم

ويوجه ابن خلدون انتقاداته للمؤرخين القدماء ويقول : « يذكر المؤرخون اسم الامير والعائلة التي تحدر منها واسم امه وابيه واسماء زوجاته ولقبه والكتابة المحفورة على خاتمه واسم كبير قضاته وخادمه ووزيره » .

« تلك تفاصيل خليقة بكتاب خاص بالعائلة المالكة . حيث يحتاج ابنـاء الأمراء ومعاصروهم لمعرفتها ، لكنها لا تخص التاريخ في شيء » .

ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد ادوا واجبهم كاملاً اذا ذكروا اسماء الملوك وسني حكمهم . في حـين يرى ابن خلدون ان معلوماتهم ترهات لا طائل تحتهـــا .

فما هو معنى التاريخ اذن ؟ لابن خلدون في هذا المجـــال رأي واضح : على المؤرخ ان يقارن بين السلالات الحاكمة من حيث سلطتها وغزواتها وان يصنفها حسب أهميتها النسبية وان يهمل سقط المتاع ويستخلص الخطوط الرئيسية .

ويذهب صاحبنا الى أبعد من ذلك . فهو لا يريد لقارئه ان يجهل الأسباب والمبررات . وفي نيته ان يوضح له لماذا عمدت هذه الأسرة لإظهار قوتها ولماذا اقتصر نشاطها على هذا المجال بالذات . ثم يريد ان يفسر نشوء الأوطان ويتعرف على اصول الأحداث وما تحمله من تشابه وتباين . و« بوسعي أن ادرس تاريـخ الجنس البشري اذا ولجت الى الحوادث الخاصة من باب المبادىء العامة » .

ابن خلدون يريد ان يفهم الأشياء . وهذه ميزة غريبة لديه .

المقدمـــة

تطالعك المقدمة بالكثير من التشابك . ففيهـا التـاريخ والاقتصاد السياسي والفلسفة واللاهوت . فهل يمكن اعتبارها موسوعة ممّا هب ودب ؟

كلا ، فالمادة فيها منظمة ، واوّل ما يتبادر للذهن أنها كتـــاب في فلسفة التاريخ . وهي كذلك الى حدّ مـــا ، لأن صاحبها يسعى لاستخلاص قوانين التطور البشري ليستعملها كقياس في فحص مصادره التاريخية وتأويلها . وإليك ما قاله في شرح اهدافه :

« الهدف المنشود هو بناء قاعـــدة أكيدة للتفريق بين النصوص الصحيحة وغير الصحيحة . أي ايجاد آلة تمكنني من تقدير الأحداث بدقة . ذلـــك هو الهدف الذي سعيت إليه » .

هذا هو العلم الجديد الذي وضع أسسه في مقدمته . « انـــه علم لا صلة له بالبلاغة أو فن الادارة وليس له من فائدة إلاّ في البحوث التاريخية » .

ويدعى هذا العلم الجديد بالنقـد التاريخي كما يسميه الفرنسيون . ولنلاحظ كيف حاول ابن خلدون تحديده بذكر العلوم التي لا تشابهه .

كتب الغربيون في التاريخ دون ان يعرفوه نظراً لحسهم بالواقع وتعلقهم بـه منذ عهد الإغريق . وبمجرّد ذكر هيرودوتس يلفت انتباهنا لظاهرة بارزة وهي أن تاريخ امبراطورية فارس من سيروس الى دارا وقمبـــيز كله معروف بفضل المؤرخـين اليونان . ولو اكتفينـــا بكتابات المؤرخين الفرس لما عرفنا شيئاً عنهم .

وابن خلدون وحده — بين الكتاب المسلمين — تطرّق لنقد التاريخ . حتى ان الذين جاؤوا من بعده لم يأخذوا شيئاً عنه وظلّ تاريخ المسلمين كما كان عليه قبله . لهذا يحتل صاحبنا مكاناً فريداً من نوعـــه دون ان يكون قد عرف مؤرخي الغرب أو درس عليهم . فليس من المبالغة القول ان ابن خلدون قـد اكتشف بعبقريته علم التاريخ مرة اخرى بعد هيرودوتس .



٤ ـ نمط التفكير لدى المؤرخين العرب

الشرق والغرب

كلما لاح لنا اسم ابن خلدون ننعته بالعبقري، لأنه هو وحده الذي ينبئنا عن العصر الوسيط في المغرب . ففي تاريخ المغرب – كما يتراءى لمتوسطي الثقافة – ثغرة كبيرة تحول دون الالمام بجمله . انها الهوّة الفاصلة بين نهاية الامبراطورية الرومانية والعصور الحديثة . ففي هذه الفترة نرى المغرب يغرد خارج سربه وكأنه فوق كرة أرضية أخرى ، ارض المسلمين . غير ان وجود مؤرخ عبقري تحدث عنها ما يسدّ حاجتنا للعديد من المعلومات . ولم نستطع رغم ذلك أن نفيد من هذا الوضع قدر الإمكان نظراً للتباين بين عقل الغربيين وعقل الشرقيين. وسنسعى هنا ما استطعنا للإفادة من جميع ما وصل الينا من مصادر متجاوزين هذه الصعوبة .

الترجمات

وضع البارون دي سلان ترجمة موفقة لمقدمة ابن خلدون ، مكّنت الغربيين من الاطلاع عليها ، غير انه لم يطلق عليها اسم المقدمة بل استعار لذلك كلمة اخذها عن اليونانية فهو لم يألف مقدّمات بهذا الطول . ثم إن البارون لحرصه على الأصل لم يتجنب الغموض في بعض الاحيان فكلمة عمران ترجمها بكلمة حضارة في حين أن ابن خلدون يحدّد العمران بوضوح ويجد في قول الفلاسفة

« الانسان بطبيعته مدني » خير تفسير له . وقد عنوا بذلك انه لا غنى للإنسان عن المجتمع . ولا اجد تطابقاً كلياً بين كلمة عمران وترجمتها الى الفرنسية بكلمة حضارة . فكلمة مجتمع أو اجتماع أو تنظيم سياسي واجتماعي هي الموازية لكلمة عمران . فالكلمات ليست متطابقة كل المطابقة في جميع اللغات . وليس خليقاً بالمترجم أن يتقيد بحرفية النص الاجنبي الى حدّ يضيع معه المعنى الذي ذهب اليه الكاتب . ولا ندعي على كل حال القدرة على الاتيان بترجمة أفضل ولكن وجب التنويه بالمفارقات الموجودة في مدلول الكلمات بين لغة وأخرى .

والآن ما الذي يذكره ابن خلدون عن التاريخ الروماني القديم ؟ لم يكن مطلعاً إلاّ على خطوطه العريضة ، فقد ذكر أن الاسكندر قتل دارا وأن تيتوس استولى على القدس وان أرسطو هو أستاذ الاسكندر . كما سمع لماماً عن سقراط . غير انه وقع في مغالطات عديدة اذ نسب لسقراط برميل ديوجين ، ولم يميز بين الاسكندر تلميذ أرسطو وبين الاسكندر الأفروديسي على الرغم من ان خمسة قرون تفصل بين الاسكندرين .

وإليك نظرته الخاطفة لمجمل التاريخ القديم :

« كان الاغريق اصحاب الامبراطورية وهم شعب احرز تقدماً كبيراً في العلوم الفكرية ... بعد انهيارهم ، انتقلت السلطة للقياصرة الذين اعتنقوا النصرانية ودافعوا عن تلك العلوم، تماماً كما يحدث في قوانين جميع الشعوب» .

وإليك كيف ينظر ابن خلدون الى المغرب قبل الاسلام :« وجه الرومان انظارهم نحو افريقية (اي تونس) . وطمع القوط بمراكش ، وركب هؤلاء البحر وانتقلوا الى هذه البلدان واستولوا عليها ... واصبح لهم فيها مدن مكتظة بالسكان مثل قرطاجة وجلولة ومرنق وطنجه . اما الملوك الفرنج و (يقصد لاتين روما) فلم يمكثوا في بلاد البربر الوقت الكافي لتعودهم على حياة الاستقرار » .

الى ان يقول : « والفرنجة هم اصحاب اليد الطولى في افريقيا ، لأن الروم (اي البيزنطيين) لم يكن لهم اي اثر هناك ... وجريجر (غريغوار) الذي قتل اثناء المعركة لم يكن رومياً (اي اغريقياً) . وانما من الفرنجة (اي لاتينياً) .

على أن ابن خلدون لم يتمثل جيداً القرون الخمسة للسيطرة الرومانية ، لكن ذكرى قرطاجة لم تتبدد من ذاكرته : قبل الغزو الروماني « أعلن ملك قرطاجة الحرب على روما » ويضيف « دمّر أمراء روما مدينة قرطاجة ثم أعادوا بناءها في ما بعد » .

وقد ضاع الأصل السوري لهذه المدينة العريقة عند ابن خلدون في حين نعرف عنها في الغرب الشيء الكثير .

ذاك أن الحجاب كثيف بين تاريخ كل من المشرق والمغرب وقد لاحظ ابن خلدون ذلك حيث قال : « يشكل الوثنيون معظم سكان الأرض ... ولهم ممالكهم ... وقد تركوا الآثار الضخمة من بعدهم ... واثبتوا وجودهم في التاريخ ... وكان الجنس البشري موجوداً إذن قبل ظهور النبوة » .

لكنه يؤمن في الوقت نفسه بأن الماضي قد ولّى : « ماذا حلّ بعلوم فارس التي أتلفها عمر بعد الفتح العربي وكذلك بعلوم الكلدانيين والأشوريين والبابليين والأقباط والاغريق لولا أن المأمون قد أمر بترجمة بعض نتاجهم .

وابن خلدون مؤمن بأن جميع الوثائق التي تعود إلى ما قبل الإسلام بعيدة عن مناله أو انها أتلفت وضاعت إلى الأبد . »

وهنا نلقي نظرة على ما نسميه تاريخ المغرب في العهد الإسلامي ، لنجد أن الذاكرة لا تستطيع حصر الحوادث المتشعبة المتشابكة والحروب العديدة التي لا تعرف أسبابها ونتائجها في تلك الفترة . فما إن تقوم مملكة حتى تنهار وتنشأ على انقاضها أخرى بدون سبب واضح او نتيجة ملموسة . انه تاريخ خاو جاف بل اقول

صحراء قاحلة . لا يعرف أوّلها من آخرها .

فنحن في الغرب نعتبر أن التطور يصنع التاريخ . والمغرب لا يتطور أو أننا لا نراه كذلك .

ولكن هل غربلنا جميع وقائعه وفسرناها ؟ وهل الصلة مقطوعة فعلا بين الأحداث أم اننا لم نستطع العثور عليها ؟ ابن خلدون عبقري المغرب الذي كتب في فلسفة التاريخ هو الوحيد الذي يستطيع أن يحلّ بعض المشكلة .

المقـــدمة

إليك الأجزاء الرئيسية الستة كما يعرضها ابن خلدون في بداية مقدمته : يتناول الكتاب الأول العموميات ، والثاني حياة البداوة والثالث فن الحكم والرابع حياة الحضر والخامس التطور الاقتصادي والسادس الحركة الفكرية لأن هذه العناصر الثلاثة الأخيرة من معطيات الحياة الحضرية في حين أن الثلاثة الأولى ترجـــع لحياة البداوة .

فالمقدمة اذن مؤلف واسع يتناول التنظيم السياسي والاجتماعي كتبه مغربي لم يطلع قط على أرسطو وهو بعيد عن افكار الغربيين واساليبهم . وهـذا لعمري شيء قيم ومهم .

فمفهوم الدولة هو النظام الملكي الشرقي ويتمثل هذا النظام بالانعدام الكلي امام السلطان والاكتفاء بالولاء والمبايعة . « انها مناسبة لتحيـــة الملك حسب الطريقة المتبعة في بلاط كسرى ، أي تقبيل الأرض بين يديه » . على حدّ قول ابن خلدون .

انه نظام ملكي شخصي يحض على العداوة بين أقرب الأقارب .

وللملكية والتوحيد نفس المنطلق في ذهنيـــة الشرقيين . ففي السياسة كما في العلوم الدينية يعتبر النصارى من المشركين .

وفي المقدمة فضلاً عن ذلك فصل مؤلف من سبعين صفحة يقول عنه : « انه يخص الذين يتمتعون بموهبة رؤية الاشياء غير المنظورة ، وذلك بفضل الاستعداد الفطري أو ممارسة الطرق الدينية » .

وليست هذه على كل حال من الامور المستغربة لدى الشرقيين ، فلا شيء يفهم في الشرق بمعزل عن الدين . وقد وصف ابن خلدون انتشار الاسلام وانحساره وكأنه امبراطورية عسكرية .

وفي المقدمـــة صفحات قليلة تتحدث عمّا نطلق عليـه في الغرب اسم الديمقراطية . ولابن خلدون رأي خاص فيهـا لأنه لا يستطيع تصور الحكم الديمقراطي الذي نعرفه ولو كان ملكياً .

وقد ركز جلّ انتباهه على الحضارة وقضاياها . ويرى أنها على صلة وثيقة بحياة الاستقرار في المدن كما في بغداد والقيروان والقاهرة . ويلاحـــظ الرابط بين الازدهار الصناعي والتجاري وبين زيادة عـــدد السكان . ويرى ان النمو الاقتصادي يؤدي لخلق الرفاهيـــة الى جانب الثقافة العلمية والرقي الفكري . لكن الثروة هي التي تثير انتباهه بالدرجة الاولى : « فالقبيلة المقبلة على الملذات والترف تخلق لنفسها العراقيـل وتسير في طريق الانهيار . والحضارة في رأي ابن خلدون هي حياة الاستقرار والترف... وطبيعة البشر الذين يتأثرون بحياة الاستقرار والترف تجسد الشر نفسه » .

ونظرته هذه تناقض رأينـــا في الحضارة ، لأن صاحبنا لا يؤمن بالتطور ويرى ان الحياة سلسلة من البناء والهدم دون رابط او ارتقاء .

في حين يمجد حياة البداوة ، ويعرب عن اعجابه برعاة الابل وبالابل نفسها وينوه بقدرتها وقدرة اصحابها على الجوع والعطش . ويمتدح البدو الاقوياء الذين لا تلين لهم عزيمة . فهم يمثلون الفضيلة الحربية والقوة وهم مصدر السلطة الوحيد وينبوع التنظيم السياسي والاجتماعي ، وهم الذين يكونون الارستقراطيـــة الطبيعية على الارض .

وهذا أمر طبيعي بالنسبة لرجل قضى حياته بين السلاطين الزناتيين والبدو العرب . فالزناتيون والبدو العرب كانوا أسياد المغرب في الحقبة التي عاش فيها ابن خلدون .

ان الوقائع الحية التي عاشها صاحبنا لا بدّ وان تملي عليه النتائج التي يصل إليها . والواقع ان حياة البداوة هي التي ميزت التنظيم السياسي في الشرق . والبداوة هي التي تميز الشرق عن الغرب .

وهكذا نرى ان أوصاف الدولة الشرقية تنطبق على ملاحظات ابن خلدون فهي ملكية تستمد أسسها من الدين وتهدم الثقافة بمرور الزمن .

المفهوم البيولوجي للتاريخ

حين نطالع المقدمة بوسعنا أن نستخلص افكاراً لم نصادفها في أي كتاب آخر . أولا يوجد فارق أساسي بين الشرق والغرب حيث ان للشرق ماضياً بشرياً وان له تاريخاً ، أي مفهوماً بيولوجياً في حين ان مفهومنا جغرافي ؟

إن مصدر قوة البدو الرحل في رأي ابن خلدون انما يكمن في عصبيتهم بحيث ان كل فرد منهم على استعداد لبذل حياته فداء للآخرين. وسرعان ما تتبدد هذه العصبية القبلية بفعل الحياة الحضرية . ويضيف قوله : ان صلات الدم هي التي تفرزها . « بحيث انك لا تجد عرقاً اصيلاً إلاّ لدى البدو».

من هنا نلاحظ الفارق بين المفهوم الغربي ومفهوم ابن خلدون . فنحن ننظر الى الوطن على انه رقعة جغرافية ذات حدود . رقعة ثابتة نشعر بالغربة عند الابتعاد عنها . والتعلق بهذه الأرض شعور حضري. أما القبيلة فعلى العكس من ذلك لأنها مجموعة بشرية جاءت نتاج أجيال متعاقبة ، ولا تحتاج للإطار الاقليمي في تحقيق وجودها وانما هي عرق وفئة بيولوجية .

والروح العشائرية نموذج موسع للروح العائلية ويسودها رابط الدم وليس

الصلة بالارض . ويقول النبي : تعلـّموا انسابكم. ويقول الخليفة عمر بن الخطاب: تعلموا انسابكم ولا تكونوا كأنباط بابل حين يسألون عن نسبهم ويجيبون نحن من تلك القرية . يعني ذلك نفياً واضحاً لمبدأ رقعة الارض التي يقوم عليها الوطن .

ومن الواضح ان الانساب هي اساس الروح القبلية .

وهناك كاتب عربي معروف هو الكلبي متخصص بعلم الانساب ولا نعرف من مؤلفاته سوى العناوين كما يقول دي سلان ومنها كتاب الجمهرة وهو مجموعة كاملة للأنساب وابن الرقيق كاتب معروف أيضاً وضع شجرة انساب القبائل البربرية .

وهكذا نرى بوضوح لماذا تحمل كلّ من القبائل العربية والبربرية اسماً موحداً مثل بني هلال وغيره في حين ان الغربيين ينتمون الى البلدان التي ولدوا فيها .

واذا كانت التوراة قد قسمت البشر من حيث السلالة الى ساميين وحاميين ويافثيين ، فنحن لا نتطلع الى سام حين نتحدث عن الساميين . وحين نقول اننا ابناء يافث نكون قد عنينا كوننا اوروبيين .

ويقول ابن خلدون ان الشعوب البدوية من عرب وبربر تتميز بقوتها وصلابتها نظراً لانها تتنقل بين بلد وآخر وتستطيع احتلال المقاطعة التي يحلو لها الاقامة فيها . ولعلّه يريد أن يقول ان اقوى الشعوب تلك التي لا اوطان لها .

غير أن هذه النظرة لا تتلاءم مع تفكيرنا كغربيين لأننا نجد تنافراً بين العنصر الجغرافي والعنصر البيولوجي . وهكذا نجد رأي ابن خلدون بعيداً عن الصواب في ما ذهب إليه من هذه الجهة .

ولا يميز ابن خلدون عالم الجغرافيا عن المؤرخ ويرى أن البكري والمسعودي

ينتميان للطائفة نفسها : « كلاهما مؤرخ ، لكن البكري صرف اهتمامه للحديث عن الطرق والممالك وأغفل جميع الأمور الأخرى » .

وإذا كنا في الغرب نرسم الأوطان بحدودها الجغرافية فإن ابن خلدون يحددها بأسرها الحاكمة .

الأسرة الحاكمة والامبراطورية هما بالنسبة للشعوب كالصورة بالنسبة للهيولى .

والقوة العددية هي التي تمنح الدولة الشرقية قوتها ، وليس مساحتها وحدودها الجغرافية .

إن أكبر امبراطورية تأسست على يد البربر مثلاً هي الامبراطورية الفاطمية التي ضمت في حدودها مصر . يعني ذلك ان قبيلة كتامة التي أنشأتها هي أكبر القبائل عدداً وأغناها ثروة . فالقبيلة الظافرة كما ذكرنا هي التي تبني وتحدد الدول .

واستمرار الروح القبلية هو الذي يرسم مع الوقت حدود هذه الدول . غير ان كثرة الانتصارات تؤدي الى انصراف الحكام لملذاتهم وتنهك قواهم مع الزمن.

ويرى ابن خلدون أن الامبراطورية الواحدة لا تعيش أكثر من ثلاثة أجيال أي ١٢٠ سنة قبل ان يدركها الانهيار . وقد ينقص هذا الرقم أو يزيد على حد تقديره لكن النتيجة واحدة فالدول كالافراد تولد وتشب وتشيخ قبل ان تموت. وليس هذا تشبيهاً مستعاراً عنده وإنما يصرّ على تأكيد صحته علمياً ، من هنا مفهومه البيولوجي للتاريخ بخلاف مفهومنا الجغرافي له .

ويرى صاحبنا ان المدينة لا يمكن ان تعيش بعد زوال الدولة التي انشأتها؛ ذلك حال فاس وبجايه . في حين نرى بدورنا ان مصير المدينة إنما هو منوط بظروفها الجغرافية وهي قابلة للبقاء آلاف السنين .

ونحن نتطلع إلى العراق وسوريا ومصر على أنها دول شرقية قديمة لمجرد ان لها

حدوداً جغرافية .

ويرى ابن خلدون ان مصر بقيت لأن سلطانها عاش في اطمئنان تام ، في بلد لا يحب أهله العصيان . ويقول عن دولة الفرس : كانت هذه الدولة قائمة حتى قهرها العرب ، فانهارت ولن تقوم لها قائمة بعد الآن. وغني عن الايضاح ما يتضمنه هذا الرأي من خطأ . فنظرتنا ليست نظرة ابن خلدون لأنه يعني بالفرس كما يعني بالفاطميين والموحدين ، سلالة حاكمة تقف وراءها قبيلة . وهو محق من ناحية واحدة ، فأين الملوك الساسانيون مثلاً ؟ لكننا نتطلع الى فارس على أنها حدود جغرافية قائمة مهما تغيرت الأحوال والظروف والأسر . وعين ابن خلدون لم تكن من القدرة بحيث تستطيع تسجيل الواقع الجغرافي .

من ناحية أخرى يرى صاحبنا أن حراثة الأرض من دلائل التقهقر ، في حين نرى أن الزراعة هي عماد مجتمعنا الغربي . والواقع أن الفلاح لم يكن محترماً في الغرب زمن ابن خلدون، لكن صاحب الأرض كان يحمل اسمها ويفخر بامتلاكها.

خلاصة

خليق بنا أن نعترف هنا بأن نظرة ابن خلدون البيولوجية للتاريخ لها ما يبررها ، فالإنسان كائن حي والبشرية سلسلة من الأجيال المتعاقبة ومن المستحيل أن نبعد التاريخ عن هذا الواقع

غير انه من الخطأ الجسيم ان نربط مصير الدول بمصير الأسر الحاكمة ، فنحن حين نتطلع إلى وادي الفيزير ندرك بأن بانيه هو انسان البوشمان الذي لا يعثر عليه اليوم إلا في جنوبي افريقيا ، ومع ذلك نقول: ان الذين عاشوا على أرضنا منذ آلاف السنين هم أجدادنا .

وليس بامكاننا على كل حال أن نتوصل هنا لنتيجة حاسمة في هذا المجال كما في الرياضيات مثلاً . ولكن اليك ما نود أن نخلص اليه :

ان ابن خلدون حين يحدثنا عن تاريخ المغرب ، ينطلق من مفهوم بيولوجي

أو سلالي سائد لدى الشرقيين . فاذا ذكر قبيلة زناتة مثلاً ، نراه يخصص فصلاً للجيل الأول الذي ينتمي اليها وآخر للجيل الثاني وهكذا دواليك .

ولو شاء مؤرخ غربي أن يتحدث عن تاريخ النورمنديين على غرار ابن خلدون لقال عن سكان النرويج انهم السلالة النورمندية الأولى وسمّى سكان النورمندي السلالة الثانية ولكان أهل صقلية السلالة الثالثة . لعمري ان تصنيفاً من هذا النوع سيحول دون فهمنا لتاريخ هؤلاء فهماً صحيحاً .

فليس بمقدورنا أن ننظر للتاريخ بمعزل عن الإطار الجغرافي الذي ألفناه .

فهل نستطيع أن نعيد لتاريخ المغرب اطاره الجغرافي اللازم ، علّنا نعثر بالنتيجة على صلة الوصل بين الأحداث المبعثرة ؟



الكتاب الثالث

ما لا يستغنى عن معرفته من تاريخ المغرب القديم لتنسيق تاريخ العصر الوسيط

١ ـ أثر قرطاجة

تلك كانت باختصار المصادر التي بحوزتنا للاطلاع على تاريخ العصر الوسيط الأول لبلاد المغرب : كاتب لامع جداً هو ابن خلدون وآخرون مجهولون تقريباً على غرار مؤلف روض القرطاس . غير ان لهم جميعاً ذهنية شرقية بمعنى أن مفاهيمهم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل . فضلاً عن أنهم عاشوا جميعاً بعد العصر الوسيط الأول . فابن خلدون وكاتب القرطاس ينتميان للقرن الرابع عشر وكذلك النويري . وحده عبد الحكم عاش في القرن التاسع .

أما البكري العالم الجغرافي فينتمي للقرن الحادي عشر واليعقوبي الجغرافي الآخر عاش في القرن العاشر .

هكذا نرى ان جميع ما وصل الينا من معلومات لم يأت عن طريق أناس عاصروا الأحداث وإنما جاؤوا بعدها .

غير ان المؤرخين العرب كانوا مقبلين على المكتبات، ولا شك أنهم استهلكوا من قبلهم ولم يحصل بينهم تناقض ، الأمر الذي يسهل مهمتنا في إيجاد منطلق للبحث . لكننا الصعوبة في ربط هذه الأحداث وفهمها .

ومن عادة المؤرخين ان يوجزوا الكلام عن العصر الوسيط الأول بينما يسهبون في الحديث عن العصور التي عاشوا فيها . فكيف لابن خلدون الرجل الذي عاش نهاية القرن الرابع عشر أن يتطلع الى المغرب القديم في القرنين الثامن أو السابع

حين كانت البلاد خاضعة لتأثير المسيحية؟ خليق بنا هنا ان نلقي نظرة على التاريخ القديم لتتضح أمامنا بعض الشيء معالم المغرب في العصر الوسيط الأول. ولا نودّ بذلك أن نسرد التاريخ القديم لكننا نهدف لاستخراج الأحداث الخفية في تلك الحقبة. فهي التي ترشدنا إلى طريق العصر الوسيط المتقدم الذي لم يُعنَ به أحد.

عليه سنتوغل في البحث حتى نبلغ الماضي القديم زمن قرطاجة .

قرطاجـــة

في متناولنا تاريخ مستفيض عن هذه المدينة وضعه المؤرخ غيزل لسنا بصدد تلخيصه وإنما سنعمل على إكماله في هذا الكتاب الصغير مشددين على عهد سيطرة قرطاجه على افريقية، وهو العهد الذي كان سبباً في ازدهارها الطويل .

ومن واجبنا أن لا نغفل أثر الفينيقيين في افريقيا والمغرب ذلك الأثر الذي دام نحو ألف عام أي بمعدل ضعفي عمر الامبراطورية الرومانية وذلك في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثاني عشر قبل المسيح وسنة ١٤٦ ميلادية السنة التي دمرت فيها قرطاجة .

فهل يعقل ان يمرّ حدث كهذا الحدث الضخم دون ان يـــترك أثراً في الحوادث التي تلته ؟!

يحدثنا المؤرخون أن الغـزاة الرومانيين حرثوا رقعة قرطاجة وزرعوهـــا ملحاً . إعراباً عن عزمهم الأكيد على إزالة آثارها من الوجود. ولكن هل يمكن محو شعب من الوجود محواً تاماً كما كنا نظن في عهد الدراسة ؟ إن إرادة الهدم لا تكفي لمحو الشعوب ، ويبدو من غير المعقول مبدئياً أن يكون أثر قرطاجة قد زال نهائياً بعد الاحتلال الروماني .

على أنها قضية تطرح ، وعلينا ان نبحث عبر الحوادث التاريخية عن الحلقة

المفقودة التي تربط قرطاجة بالجزائر وتونس مروراً بالعصر الوسيط الاول .

كلمة افريقيا

اسم افريقيا لا بدّ وأن يثير الانتباه . حيث انه كان يطلق في البدايـة على قرطاجة ومناطق نفوذها قبل أن يشمل القارة بأسرها . ففي زمن الحروب البونية كان المؤرخون اللاتين يطلقون اسم أفري على المواطنين القرطاجيين . وكان السكان الثائرون يسمون باسم قبائلهم منهم المور والبربر وليس الأفارقة . فالإفريقي هو المواطن القرطاجي . وافريقيـا الأسم الرسمي للمقاطعة المحيطة بقرطاجة في عهد الرومان وهي مستقلة إدارياً عن نوميديا وموريتانيا . وكان العرب يطلقون على تونس التي نعرفها اليوم اسم افريقيا . لهذا يربط المستشرقون كلمة افريقيا بأصل سامي أصبح بالعربية « الفرق » .

ويرى سلان أن الكلمة الفينيقية التي تحولت باللاتينية لأفريقيا تعني القطعة أو الجزء وهي المقاطعة التي تنفصل عن الوطن الأم .

أما غيزل فلا يعير انتباهاً لهذا الأمر . على ان كلمة افريقيا ليست لاتينية وإنما أخذت من اللغة البونية .

ويبدو لي أن بقاء الاسم مع مرور الزمن يعني توفر عناصر معينة لاستمراره.

مملكة قرطاجة

كانت صور وصيدا وجميع المدن الفينيقية واقعة على شاطىء البحر. وموقعها هذا ذو دلالة ولا شك . ويقول فيدال دي لابلاش ان هذه المدن عبارة عن جزر صغيرة أو شبه جزر يصلها باليابسة برزخ يسهل الذود عنه . ولم تكن قرطاجة غريبة عن هذا الطراز . ويحدثنا المؤرخون عن المصاعب التي كان يصادفها الغزاة في حصار المدن الفينيقية ، حتى الكبار منهم من أمثـــال الاسكندر الكبير وسبيون أميليان لم يستطيعوا الاستيلاء عليها بسهولة . ولم تكن المواقع الداخلية

لتهم الفينيقيين إلا بمقدار ما تؤمن لهم زبائن لتجارتهم ، فجميع انظارهم متجهة إلى البحر ، وهنا يحق لنا التساؤل إذا كانت قرطاجة مدينتهم قد أحدثت أثراً عميقاً في بلاد المغرب .

علماً بأن قرطاجة احتلت مكانة خاصة في حضارة الفينيقيين ، وليست مدينة عادية على غرار صيدا وصور ، وإنما كانت من الأهمية بحيث قضت مضجع الامبراطورية الرومانية بجيوشها وأسلحتها وقائدها هنيبعل .

ناهيك بأن سوريا والمغرب لا يتشابهان . فلم يكن لصور وصيدا ظلّ من السيطرة على الأراضي المجاورة لمملكتي مصر وأشور العظيمتين ، في نفس الفترة كان المغرب مجموعة من الشعوب شبه المتوحشة استطاعت قرطاجة السيطرة عليها بفضل تفوقها التنظيمي والثقافي .

ولما بلغ الاغريق الحوض الغربي للأبيض المتوسط وجدوا المستعمرات الفينيقية قائمة قبلهم ولا سيما على الشاطىء الأفريقي . فقد استحوذ المغرب على انتباههم قبل كل شيء . واصبحت قرطاجة عاصمة له . وظروف سقوطها شاهدة على ذلك . وكانت الحرب البونية الثالثة حرب إبادة أرادتها روما كرصاصة الرحمة. ليس لمجرد الحقد القومي وحده كما تصور لنا الكتب المدرسية ولكن هناك سبباً أعمق كما يقول غيزل . لقد دمّرت روما قرطاجة لتحول دون استيلاء مسينا عليها وتجعل منها عاصمة لها .

ويدل كلام هذا المؤرخ على أن قرطاجة لم تسع لابتلاع المغرب ولم تنهج سياسة السيطرة على المناطق الريفية رسمياً كما فعل الرومان . غير انها فعلت فعلها في تلك المناطق عن غير قصد وهذا أمر طبيعي بالنسبة لجميع الشعوب .

وعلى طول الشاطىء كانت المدن الفينيقية التابعة لقرطاجة تتوالى واحدة بعد الأخرى كحبات السبحة . فعلى شاطىء سرت شرقي قرطاجة جرى التعرف على عشرين مدينة . ولم يسلك القرطاجيون في تلك المدن مسلكاً عنصرياً بل

تمازجوا بسكانها الأصليين عن طريق الزواج . وأحدث تعلم اللغة المنتظمة والتعرف على حضارة جديدة أثره البعيد في نفوس هؤلاء السكان وتعدى هذا الأثر المناطق التي كان القرطاجيون يسيطرون عليها . وكانت اللغة البونية اللغة الرسمية للملوك النوميديين وشاع استعمالها في عاصمتهم سرتا .

بعد السقوط

جلّ ما يهمنا من تاريخ قرطاجة معرفة الأثر الذي أحدثته هذه المدينة في بلاد المغرب ، والاطلاع على ما خلفته فيه بعد زوالها، وبودنا تركيز الانتباه على عهد سقوطها بغية رأب الصدع بين افريقيا البونية وافريقيا الرومانية ؛ وواضح أثر قرطاجة في هذه البلاد ، فإذا كانت المدينة نفسها قد اندثرت فإن المدن الفينيقية الأخرى التي اوجدتها لم تزل من الوجود .

وقد درج علماء الآثار على اعتبار النقوش المكتوبة باللغة القرطاجية والتي ترجع لعهد ما بعد قرطاجة – آثاراً بونية جديدة. وتكثر هذه النقوش في تونس وشرقي الجزائر .

وهناك أمثلة عديدة من آثار وتسميات تاريخية تدل على عمق الأثر الذي تركته في بلاد المغرب ، ولكن يصعب تحديد الفترة التي ظلّ فيها هذا الأثر ماثلاً فيه .

ويخلص غيزل لنتيجة واضحة فيقول : « ذكر القديس اغسطينوس أن اللغة البونية في عصره كانت منتشرة في الأرياف . ولم يكن الفتح العربي بعيداً عن تلك الفترة ، الامر الذي مكّن اللغة العربية من الحلول محلّها كما حلّت الآرامية محلّ الفينيقية في فينيقيا قبل ذلك بعدة قرون . ومن السهل القول إن البربر أقبلوا على اللغة العربية نظراً لتشابهها مع اللغة البونية .

هذا لعمري أمر مهم جداً ، فلأول مرة يخلص عالم من هذا الوزن لنتيجة كهذه دون أن تبلغ آذان الكثيرين ، لا بل قابلها المستعربون بكثير من الفتور لأنهم لا يرون أي شبه بين العربية والبونية .

ولسنا الآن بصدد التعليق على كتاب غيزل لا سيما وانه يشير إلى أن الحقائق التي أوردها معروفة قبله وقد ذكرها جاسينيوس مثلاً . ولكن من الذي يقرأ جاسينيوس ؟ بودنا على كل حال أن نتقصى جميع الحقائق المتعلقة بتاريخ المغرب ولا بأس إن انعمنا النظر في كل ما نصادفه من وثائق .

سبتيموس سفيروس

يبدو لي ان مراجعة الوثائق الخاصة بسفيروس من شأنها إلقاء الضوء على موضوعنا . فالكلّ يعلم بأنه امبراطور روماني عظيم، استتب في عهده الامن والنظام . وقد ولد بلبدة في قلب سرت البونية ولولادته في هذا المكان بالذات مدلول هام .

جميع المراجع التاريخية على اختلافها أبرزت حياة سبتيموس سفيروس ، فقد كان افريقياً بكل معنى الكلمة ، عني بشؤون القارة أيّما عناية . وأدرك معاصروه بوضوح مدى حبّه لكل ما هو افريقي . وهو إذا أمر ببناء هيكل ضخم فلكي يبهر أنظار القادمين من روما أو الذاهبين اليها بطريق افريقيا . ولم يكن الامبراطور شرهاً في مأكله ومشربه وكان يؤثر تناول الفاكهة ، نتخيله يأكل التمور وهو جالس على عرشه . ويقول المؤرخ سبارتيان: انه كان حسن اللفظ ولكن كلامه لا يخلو من لكنة افريقية ، أي لكنة بونية .

أما شقيقته فكانت أقل اتقاناً للاتينية . سبب ذلك أنها نشأت في عائلة ارستقراطية بلبدة حيث كان النساء يتكلمن اللغة البونية دون غيرها ، أما الرجال فلم يستطيعوا التخلص من لهجتهم الافريقية . ويحدثنا سبارتيان عن الزواج الثاني لسبتيموس فيقول :

بوفاة زوجته الأولى بحث في الأبراج – وكان مولعاً بعلم التنجيم – فوجد أن هناك امرأة سورية كتب لها أن تصبح ملكة فاقترن بها ». فكانت جوليا زوجته الثانية .

واهتمام سبتيموس بالتنجيم دليل آخر على طبيعته الشرقية ، فقد تخلّى عن جميع حسان بلاده ليقترن بامرأة سورية من ضفاف نهر العاصي .

واحتفظ سبتيموس بجوليا على الرغم من فضائحها وتآمرها عليه ، وهذا ان دلّ على شيء فعلى عمق الصلة بين ذاك القرطاجي وتلك الفينيقية .

لقد عثر سبتيموس على ضالته بأحاسيس شرقية ونمط تفكير شرقي . حتى اللغة الآرامية التي يتحدثون بها في سوريا كانت قريبة من اللغة البونية .

ثم إن الامبراطور كركولا ابن سبتيموس من جوليا، نصب في أرجاء مملكته عدّة تماثيل لهنيبعل ، فيا له من ثأر عظيم لم يكن هنيبعل ليحلم به .

نذكر ايضاً بيتاً من الشعر قاله جوفنال يعزز عملية الثأر هذه : « لزمان طويل مضى أصبح العاصي رافداً من روافد التيبر » .

بيد أن الأثر الحقيقي الذي أحدثه الشرق في روما يفوق ذلك بكثير . فإذا كانت بلاد الإغريق قد أثرت في عاصمة الرومان من حيث الثقافة والتفكير فان الشرق قد طبع الغرب بطابعه ، فالمسيحية انبثقت من الشرق واعتنقها الغرب ، ونشأت امبراطورية شرقية جديدة لها عاصمة أشهر من أن تعرف هي القسطنطينية .

ومع الامبراطور هليوغوبال حفيد سبتيموس سفيروس دخلت العربة الشرقية التي تجرها ستة جياد بيضاء الى أرض الرومان . كان ذلك عام ٢١٨ بعد مرور سبع سنوات على وفاة سفيروس . ثم إن كركولا تزوج على غرار أبيه من امرأة سورية من عائلة جوليا أمه . أراد بذلك أن يخلق لنفسه جواً عائلياً شرقياً . حتى أن مؤامرات الحريم كانت سائدة كما في الشرق ، أو لم تدفع جوليا ابنها كركولا لقتل أخيه جيتا ؟

صحيح أن هناك سابقة عند آغريبين أم نيرون ، ولكن مضى عليها مئة وأربعون عاماً . ناهيك بأن قتل الأشقاء ومآسي الحريم في الممالك الشرقية من

الحوادث العادية التي ترافق تغيّر العهود .

سبتيموس سفيروس هو الذي حمل تأثيرات الشرق إذن . وهليو غوبال سار قدماً في تطبيق رسالة جده .

كذلك كانت الشراكة بين فينيقيا وقرطاجة ، وقد دامت طيلة ثلاثة قرون ونصف القرن بعد سقوط مدينة هنيبعل .

وأودّ أن أوضح هنا نتائج كهذه تقرأ بين السطور في كتب المراجع التاريخية الموجزة عن تلك الحقبة من حياة المغرب .

القديس أغسطينوس

بعد ذلك بقرن واحد نقل إلينا القديس أغسطينوس من القرن الخامس الميلادي أن اللغة البونية كانت سائدة في رعيته ، وكان هو اسقفاً لمدينة هيبون أي بون (عنابة) . وقد تحدث عن شيوع هذه اللغة بصورة غير مباشرة في رسائله ومواعظه . ولا أفهم رغم كل هذا عزوف المستعربين عن ملاحظة الشبه بين العربية والبونية .

وقد كتب القديس اغسطينوس للبابا سلستيان مطالباً بتعيين أسقف لرعية فوسالا وهو مكان يبعد نحو ستين كيلومتراً عن بون ولم يعثر له اليوم على أثر ويقول في وصف مرشحه لهذا المنصب ويدعى انطونيوس انه يحسن اللغة البونية .

وفي رسالة اخرى وجهها اغسطينوس إلى كريسبان أسقف جيلما الذي دعا أبناء ماباليا الى الهرطقة يقول :« تدعي بأن المابالين قد أيدوك بملء إرادتهم . إذن تعال معي نتحدث اليهم ونسجل كلامنا خطياً ، ويتولى المترجم نقل حديثنا إلى البونية » .

وفي رسالة الى منافسه الأسقف ماكروب يقول أغسطينوس ان أحد المترجمين

قد نقل كلام الأوّل الى البونية كي يفهمه أهالي المدينة .

ويقول أيضاً في احدى عظاته : في بلادنا عدد من الفلاحين الهراطقة بل أقول كان هناك بعض منهم ولكنهم تضاءلوا تدريجياً . انهم أهل هابيلون . وهو اسم بوني مأخوذ من اسم هابيل ابن آدم .

وكان اغسطينوس شديد الاهتمام باللغة البونية ، وإليك بعض ما قاله في خطبته رقم ١٥٧ . « هناك مثل بوني – أورده لكم باللاتينية لأنكم لاتعرفون اللغة البونية – يقول المثل: إذا طلب الطاعون اليك درهماً فاعطه درهمين ودعه يذهب » . يود اغسطينوس أن يوجد صلة بين المثل وقول الانجيل : « إذا أراد أحد أن ينازعك ويأخذ جبتك منك فأعطه الجبة والمعطف فوقها » . ولكن هناك فارقاً كبيراً بين المعنيين . وبيت القصيد ليس هنا على كل حال .فالقديس اغسطينوس يسعى لإثبات القرابة الشديدة بين بلاده وبين البلد الذي ينتمي اليه الانجيل ، بغية المزيد من التأثير في نفوس سامعيه .

وفي مجال آخر يشرح القديس الاختلاف بين الصوت والكلمة أي بين الكلمة والفكرة ، ويرى أن الفكرة تبقى دائماً كما هي والكلمة وحدها تتغير . « فلكي يفهمنا الإغريقي علينا أن نلجأ للكلمة اليونانية وكي يفهمنا اللاتيني علينا بكلمة لاتينية وكذلك علينا بكلمة بونية حتى يفهمنا البوني » وهكذا وضع اللغة البونية في مصاف أهم لغتين عرفتهما الامبراطورية ، وهما الرومانية واليونانية . وما كان له أن يأتي بهذا القول لو لم يوجه حديثه لأناس يولون اللغة البونية أهمية قصوى .

مرة واحدة فقط نعثر على كلمة بونية في تراث القديس اغسطينوس . ويروى عن فاليريوس أحد أسلافه أنه كان يصغي ذات يوم لبعض الفلاحين يتبادلون الحديث بالبونية طبعاً. وسمع كلمة لاتينية هي الجرس :« سالوس » وسأل عن معناها فقيل له إنها تعني بالبونية « ثلاثة » فتبادر إلى ذهنه الثالوث المقدس ولاحظ الشبه بين كلمة سالو التي تعني الخلاص وثلاثة التي تشير إلى الثالوث ، لأن

الثالوث هو الخلاص. على أن الشبه واضح بين لفظة ثلاثة العربية ومرادفتها اللاتينية . وتشديد اغسطينوس على التشابه اللغوي مع البونيين دليل آخر على اهتمام الجمهور بهذه اللغة .

ولم يكن فاليريوس على كل حال فقيهاً في اللغة البونية ، شأنه شأن القديس اغسطينوس رغم مولده الافريقي . لكن الرعية لم تخل من رهبان يتقنونها .

ويقول اغسطينوس : كان الفلاحون حين يسألون عن اصلهم يجيبون بأنهم شنانيون أي كنعانيون . فمعاصرو القديس كانوا يعون صلتهم بالفينيقيين . على أنهم بونيون بالدرجة الأولى ، ومعظمهم لا يفهم اللاتينية .

على أن القدماء لم يعيروا اهتماماً للغة وكل ما ورد عنها عند اغسطينوس جاء نتيجة خلاف مذهبي بين الفرق الدينية ، على الرغم من أن تراث هذا الفيلسوف الافريقي قد وصل الينا برمته نظراً لأهميته الدينية . وإذا كانت هذه هي الحال في عَنّابه فلم لا تكون كذلك في تونس حيث كانت البونية منتشرة في عهد سفيروس .

في القرن الخامس وصل الفنداليون إلى أبواب هيبون (عَنّابه) وتوفي اغسطينوس أثناء الحصار . وتلاشت الامبراطورية الرومانية ولم يسبق مجيء العرب سوى بعض الغزوات الفندالية والبيزنطية . ولكن ما الذي حلّ باللغة البونية ؟ هناك مؤرخ آخر يجيب على سؤالنا وأعني بروكوبيوس الذي جاء بعد اغسطينوس بزمن طويل .

بروكوبيوس والمؤرخون العرب

ذكر بروكوبيوس أن أهل البلاد كانوا يتكلمون اللغة البونية . ويعني بهؤلاء المغاربة الذين عاشوا بعيداً عن قرطاجة . الأمر الذي يدلّ على ان البيزنطيين عثروا عند قدومهم على اللهجة البونية في الأرياف . وقد مرّ قرن من الزمن دون أن تتغير لغتهم هذه .

ويأتي كلام بروكوبيوس في سياق نص مسهب يقول فيه : يعود ذلك إلى الوقت الذي استولى فيه العبرانيون على بلاد كنعان ، وقد تولى قيادتهم بعد وفاة موسى يوسف ابن نافيه . « في تلك الحقبة كانت فينيقيا تضم جميع البلدان الساحلية الممتدة من صيدا الى مصر . وحين شعر الفينيقيون بعظمة هذا القائد هجروا بلادهم إلى مصر ثم قصدوا بعد ذلك إلى افريقية (المغرب) واحتلوها بأكملها حتى أعمدة هرقل . » ثم ترد هذه العبارة : « كان أهل البلاد يتكلمون البونية حتى ذلك الوقت » .

ويضيف بروكوبيوس : «في مدينة تجيزس عمودان من الحجر الأبيض بجوار نبع ماء عذب نقش عليهما بالفينيقية : « نحن الذين هربنامن قاطع الطرق يوسف ابن نافيه » .

وقد جرى التعرف على مدينة تجزيس على بُعد نحو خمسين كيلومتراً جنوب شرقي قسنطينة في مكان يطلق عليه اليوم اسم عين وبرج . وفيه نجد النبع الغزير الذي ذكره المؤرخ . أما العمودان فهما بونيان وأما الكتابة فلا يتفق معناها وترجمة بروكوبيوس . وليس بالإمكان فهمها الآن لأن اللغة البونية قد اندثرت كلغة مكتوبة ولم يبق منها سوى اللهجة العامية . ويضيف بروكوبيوس: بعد ذلك ، وجد الفينيقيون الذين هاجروا برفقة ديدون جالية من أبناء جنسهم وأسسوا قرطاجة بالاتفاق معهم . لكن القرطاجيين أقصوا الجالية القادمة من فلسطين وهم الذين نسميهم اليوم مغاربة وأرغموهم على الإقامة بعيداً عن المدينة.

وناقش المؤرخ غزيل هذا القول . لأن هناك أسطورة شعبية نشأت عن بقاء اللهجة البونية حية في السهول الأفريقية يتداولها الفلاحون الذين سموا أنفسهم كنعانيين . غير ان هذه الواقعة استرعت انتباه المعاصرين في القرنين الخامس والسادس في الوقت الذي كانت فيه قرطاجة نفسها قد أصبحت لاتينية.

وبدت السهول البونية والمدينة القديمة التي فقدت طابعها البوني وكأنهما كتلتان متباينتان ، وأغفل الناس كلّ الصلات التاريخية التي تربطها فنشأت

الأسطورة في أذهان أبناء الشعب . تلك هي النتيجة التي استخلصها غيزل وهي عين الحقيقة . غير انه اكتفى بهذا القدر من التعليق ، وهناك شرح مهم أورده المؤرخون العرب حول نصوص بروكوبيوس ويتناول المواطنين المغاربة الذين كانوا ينسبون أنفسهم للكتامين والصنهاجيين ، وتنطبق أوصافهم على من نطلق عليهم اليوم اسم القبائل وكانوا يدعون المغاربة في الماضي .

يقول المؤرخون العرب ان الكتاميين والصنهاجيين من أصل شرقي وليسوا من البربر وهم ينتمون للحميريين . ولكن من هم هؤلاء الحميريون ؟ قبل المسيح بعشرة قرون أو عشرين وحتى القرن الخامس الميلادي كانت تقوم في جنوب غربي الجزيرة العربية حول عدن حالياً مملكتا حمير وسبأ وكانتا عنوان الازدهار والثقافة العربية في العصر القديم . وقد سمي البحر الأحمر باسم الحميريين لأنهم كانوا مسيطرين عليه وعلى المحيط الهندي ايضاً من الناحية التجارية . فهم أرباب التجارة البحرية بين الهند والحوض الشرقي للأبيض المتوسط ، وهم فينيقيو البحار الشرقية . وقد سمي الحميريون في الآثار المصرية البون . وتغنى العرب كثيراً بهم ، فقد كانوا مدعاة لفخرهم قبل مجيء النبي .

وإليك ما أورده ابن خلدون عنهم : قام افريقوس بن قيس بن صيفي بحملة على افريقية أدت لسحق البربر . وافريقوس هو الذي أعطى البلاد اسمها ومنه يتحدر الصنهاجيون والكتاميون .

عاش ابن خلدون في القرن الرابع عشر ، فلا بد من تأثره بالمؤرخين القدماء. وأسطورة افريقوس تناقلتها الأجيال بين مؤرخ وآخر حسب المفهوم العربي التقليدي للتاريخ .

ويورد ابن خلدون نقلاً عن مالك بن مرابط ان البربر ينتمون لقبائل مختلفة من أصل حميري ومضري وقبطي وكنعاني وقريشي تجمعوا في سورية وكانوا يتحدثون البربرية . وأطلق افريقوس عليهم اسم البربر لفرط ثرثرتهم .

ويضيف نقلاً عن المسعودي والطبري والسهيلي أن افريقوس كوّن جيشاً

لفتح افريقية ، وكان وراء الهجرة اليها. ويروى انه قال بيتاً من الشعر بما معناه: كان الشعب الكنعاني يبربر كلّما أرغمته على الهجرة من بلاد بائسة الى بلاد زاخرة بالخير .

ويقول ابن الكلبي انه لا اتفاق على اسم الرجل الذي أبعد البربر عن سورية. فبعضهم يقول انه داود وبعضهم يقول يوسف بن نوح وآخرون يقولون افريقوس .

ويبدو هنا ان أسطورة بروكوبيوس قد استعادها العرب فحلّ افريقوس محلّ يوسف والحميريون محل الكنعانيين . لكن ذكر يوسف والكنعانيين لم يزل من الوجود . ففي مقاطعة وهران لا تزال تقوم قبة كان يوسف يقدسها وقد درسها رينيه باسيه . وهي آخر أثر بقي من تلك الأسطورة . ولا أظن أن المؤرخين العرب قد عرفوا بروكوبيوس ولكنهم اطلعوا على الاسطورة من مصادرها .

والمستعربون مطلعون ولا شك على ما أورده ابن خلدون . ولم يجدوا صعوبة في التوصل إلى ان افريقوس اسم لغير مسمى وان الحميريين لم يصلوا الى المغرب حتى بطريق البحر أو البر ايضاً . وليسوا بحاجة لإثبات ذلك ، فالأسطورة لا تحتاج برهاناً لعدم تصديقها .

غير أنهم لم يطلعوا على نص بروكوبيوس . ولم يشك الدارسون الكلاسيكيون بما أورده ابن خلدون. ولم يبلغني انه قد جرت مقارنة بين النصين. وهذا دليل آخر على عدم وجود مبرر للفصل بين الدراسات الشرقية والدراسات الكلاسيكية .

لأن كلاً من هذين النصين ينير واحدهما الآخر ولايمكننا أن نفهمهما كلّ الفهم ما لم نقارب بينهما . وصحيح أن المؤرخين العرب والبيزنطيين قبلهم لم يتمتعوا بالروح العلمية ومزجوا بين الأساطير والواقع ولكن قد يكون للأسطورة نفسها

منطلق واقعي. وبروكوبيوس أفصح لنا عن ذلك حين قال: ان اهل البلاد كانوا يتكلمون البونية . وهذا تفسير للأسطورة التي أوردها ابن خلدون فكلاهما من مصدر واحد. ونخطو خطوة إلى الأمام عندما نستنتج أن العرب حين غزوا افريقية وجدوا فيها اللغة البونية ، لكنها ليست بالخطوة الكافية على كل حال .

إن عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش ،فكم شاع لديهم أن ينسبوا الذكريات التاريخية الفينيقية والبونية إلى أصل حميري . واليك مثالاً على عدم الدقة أورده مؤرخ اسباني نقلاً عن مؤرخ عربي قصد الحديث عن أعمدة هرقل : « ثلاثة تماثيل ، أصفر وأخضر وأسود نقش على صدر واحد منها ما يلي : «صنعها أبرهة ذو المنار الحميري لإلهته الشمس خطباً لودها. » ولنلاحظ أن صورة الشمس وخطب ودها تذكرنا بالأعمدة البونية التي لا نزال نعثر عليها حول قرطاجة حتى اليوم .

أو ليس من الأرجح إذن أن يكون المؤرخون العرب قد فكروا بحمير التي امتلأت أذهانهم بها وأغفلوا قرطاجة البونية التي لم يكتشفوا وجودها قط ؟

الخلاصة .

يبدو لي رغم نفي المستشرقين أن المغرب قد احتضن تحت الرماد طابعه البوني كما حمل الاثر القرطاجي طيلة عهد الامبراطورية الرومانية وفي زمن الفندالين وفي ظلّ السيطرة البيزنطية . واعتنقت قرطاجة الإسلام بكل ما فيها من استعداد شرقي تبلور من جديد .

وقد حافظت افريقيا في عهد الامبراطورية الرومانية على نوع من الشخصية الدينية : فعطارد وسيلست (السماء) معبودا افريقية الرومانية صنوان لبعل هامون وعشتروت قرطاجة . ويضيف غيزل قوله : انالافريقيين طبعوا بالروح البونية لإيمانهم بالديانة البونية . وقد وضعوا الآلهة في مرتبة فوق مراتب البشر.

وعرفوا مشاعر لم يعرفها الاغريق واليونان وانما عثروا عليها في الانجيل : هذه المشاعر هي الخضوع لمشيئة الرب . وكانوا جميعاً في المدن والقرى يعبدون بعل الذي حمل اسم عطارد وقد وضعوه في المرتبة الأولى بين الآلهة قبل سيلست. وهذه خطوة في طريق التوحيد . ولعلّنا نحتاج العودة إلى المعتقدات القرطاجية لنفهم السهولة التي انتشرت بها المسيحية في افريقية .لننظر مثلاً إلى تمثال تانيت أو سيلست المعروض في متحف العلوي بتونس : انها الام الإلهة تحتضن وليدها وتقدم اليه ثديها . وإلى جانبها صورة سيلست على نحو مختلف تماماً . فهي عبارة عن رأس لبوءة تعرف فيها علماء الآثار على ساخيث الإلهة المصرية . وفي هيكل الكرنك تحتل ساخيث هذه احدى الكنائس الثلاث إلى جانب كنيستي الآب والابن . وقد اوضح لي المرحوم لوجران مدير الحفريات بأن ساخيث شبيهة بالعذراء . وهنا أرى ان غيزل على حق في اعتباره أن الفينيقيين لم يعبدوا الثلاثية الفينيقية الشرقية ، حتى ان معبد سياجو خصص لعبادة إلهين هما بعل وتانيت وليس لثلاثة آلهة . على ان الآثار الموجودة في متحف العلوي تشير إلى عمق المشاعر الدينية لدى الافريقيين قبل أن يعرفوا المسيحية . حتى أن بعض العادات القديمة قد انتقلت إلى الإسلام على نحو الحجاب الذي نسميه اليوم كف فاطمة ، والهلال نفسه يشير إلى تانيت .

وقد أشرنا في السابق للصلة بين الهرطقة واستمرارية الحياة البونية في الأرياف وما حلّ بين الاتجاهين من نزاع دموي، وهذا ان دلّ على شيء فعلى عمق المشاعر الدينية عند الافريقيين .

والقديس اغسطينوس نفسه افريقي في تشدّده الديني وتمسكه بمذهبه . ومسلمو المغرب في أيامنا هذه ينتمون للمذهب المالكي وهم معروفون بتشددهم وصلابتهم في مجال العقيدة الدينية . ويمكننا أن نقول مع غيزل في نهاية الجزء الرابع من كتابه : ان قرطاجة القديمة قد ساهمت في اعداد البربر لاعتناق الديانة الإسلامية .

ويقدم لنا غيزل دلائل أخرى على هذا النحو حيث يلاحظ أنّ القرطاجيين ارتدوا اللباس الشرقي وهو عبارة عن جلباب فضفاض بدون حزام وقبعة تأخذ شكل الرأس . وهذا ما يطلق عليه اليوم اسم الغندورة والفامي . ولم يتوقف عند صورة من قاموس « ريش » القديم تثير انتباه الجزائري اذ تمثل معطف السفر الذي تنطبق أوصافه كل الانطباق على البرنس الذي نعرفه اليوم في شمالي افريقية . وكانوا يطلقون عليه في ايطاليا اسم بنولا وهو تحوير لكلمة بينا وتعني المعطف. وليس أدلّ من هذا اللباس على البرنس المغربي .

ثم إن السمة الخارجية متقاربة بين مغربي اليوم وسلفه حتى لو لم تكن قصة البرنس صحيحة . فالقناع هو نفسه وهناك شبه في الشعر القصير المختبىء تحت القلنسوة و كذلك باللحية الطويلة التي كانت تصبغ حين يلتهب فيها الشيب، وكذلك في الوجه المتبرج . واغلب الظن أن الحناء والكحل يعودان لأيام قرطاجة .

وعادات قرطاجة شرقية شأن لباسها . ويرى غيزل أن الختان الفينيقي لم يكن معروفاً لدى القرطاجيين بدليل أن النصوص أغفلت الحديث عنه، وليست هذه حجة كافية . ومن المؤكد أن هؤلاء عرفوا خشوع الشرقيين الأمر الذي أدهش الاغريق والرومان ، كما أن لحم الخنزير كان محرّماً عندهم .

وقضية العائلة ووضع المرأة أمران مهمان ولا ريب . وما من هوة أعمق من هذه الهوة بين الشرق والغرب . وليست لدينا بكل أسف أية معلومات عن العائلة القرطاجية ، ولم يذكر غيزل سوى امرأتين لم تكونا في عداد الحريم هما سفونيسبا واستروبال زوجة آخر قائد قرطاجي .

وخليق بنا هنا أن نشير لنقطة مهمة تتعلق بوضع المرأة الشرقية الذي لم يتفهمه الغربيون . فصحيح أنها تعيش منعزلة ، لكنها تحافظ على وضعها كامرأة . وقد تكون رغم جهلها أكثر اندفاعاً وعنفاً وشدة من المرأة الأوربية. وكلنا سمع بمكايد الحريم . وقد عثرنا في عائلة سبتيموس سفيروس وتلاحمها نوعاً

من الشبه بين العائلة البونية والحريم .

من حيث نمط التفكير أيضاً ، نلحظ تبايناً بين الفكر القرطاجي والفكر الغربي رغم ذكاء القرطاجيين وعلمهم وثقافتهم . فقد استخدموا طاقاتهم من اجل الحصول على المكاسب والثروات وابعاد الهواجس الدينية . ولم يعنوا بالعلم والصناعة والفن والأدب والتاريخ أي بكل ما يمت للفضول الفكري بصلة . وما كنا لنعرف شيئاً عن تاريخهم الذي دام ألف عام لولا بوليب وتيت ليف وهما مؤرخان من أعدائهم .

لقد جابوا البحار بسفنهم فبلغوا الجزر البريطانية وداروا حول افريقية ولعلّهم سبقوا فاسكو دي غاما بنحو ألفي عام ولم يذكروا شيئاً عن ذلك شأن المنقبين عن المناجم يحافظون على سرية اكتشافاتهم . تلك هي الروح الشرقية التي مضت على هذا النحو منذ أقدم العصور .

وما العداء المستحكم بين روما وقرطاجة ، واقدام الأولى على السعي لمحو الثانية من الوجود سوى تعبير عن هذا التنافر الفكري بين نمطين للتفكير متضاربين .

ولكن أنّى لروما أن تستطيع إلى ذلك سبيلاً وهي لم تنقل الكثير من الدم الايطالي لتلك البلاد . وبقيت البونية لغة التفاهم في الأرياف كما رأينا . وان كان سكان المدن قد تعلموا اللاتينية .

ولكن ما الذي خلته قرطاجة من روحها وتفكيرها ومشاعرها بعد كل ذلك ؟

انه أمر لا يمكننا اغفاله وان صعبت الإجابة عليه .

يتناولنا عملة عربية سكّت في افريقية على الطريقة البيزنطية مؤرخة في سنة ٩٧ هجرية كتب عليها : « لا إله الا ّ الله محمد رسول الله » انها أثر من آثار شعب حضري عرف الصناعة بدليل اتقانه سك العملة كان قد اعتنق الإسلام

بانتظار تعلّم العربية .

وفي زحمة الغزوات والانتصارات والهزائم والمجازر التي تميّز بها الفتح العربي في المغرب تتبادر إلى أذهاننا واقعة واضحة : جميع المعارك الكبرى كانت باتجاه طنجة وتيارت (تيهرت) وحول الأوراس. والقيروان محطة القوافل العربية سقطت واسترجعت وتعرضت للسلب والاحتراق واعادة البناء . ولم تظهر المدن الرومانية في تونس اطلاقاً . وفي تاريخ الكاهنة ملكة البربر وهي حقبة سنعود إليها مرّة أخرى نجد أن لاتيني افريقية من تجار ومزارعين عرفوا في البربر أعداءهم التقليديين وليس في الخلافة العربية .

وبعد أن كانت القيروان قلب البلاد النابض لفترة قصيرة عادت قرطاجة إلى سابق مكانتها . وأصبحت تينس أي تونس اليوم بمثابة ضاحية من ضواحي قرطاجة . ومن الغريب حقاً أن تونس لم تعد في تاريخها كونها سلطنة عربية . وحين اضمحل نفوذ الخلافة في المغرب وبرزت الممالك المحلية في أنحاء البلاد نشأ في افريقية (تونس) حكم عربي أسسه ابراهيم بن الأغلب عامل الخليفة . وأمر «الدايات» حكام تونس الآخرين يثير الاستغراب حقاً فهؤلاء رغم أصلهم التركي انصهروا مع أهل البلاد وتعلموا كغيرهم اللغة العربية ليصبحوا سلاطين تونسيين كأسلافهم . ذاك أن تونس حفيدة قرطاجة عرفت دائماً كيف تؤقلم حكامها .

وهكذا يكون للفتح العربي في المغرب والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وضع خاص ، ليس في تونس وحدها بل وفي الأندلس أيضاً . وتعتبر قرطبة وتونس مهد الحضارة الإسلامية منذ القدم . ولم تحتل فاس مكانتها إلا في وقت متأخر بعد أن ورثت قرطبة وغرناطة . ذاك ان افريقية قرطاجة والاندلس بلدان عريقان ثقافياً وهما الوحيدان في المجال الإسلامي بالمغرب . على أن العنصر الذي لعب دوره هنا هي فترة ما قبل الإسلام وما هيأته لاعتناق الديانة الجديدة .

وإليك أيضاً ظاهرة جديدة من نفس النوع لم يشر اليها أحد على ما أظن :

ففي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط نقطتان استتب فيهما الإسلام أعني الأندلس وصقلية . وهما البلدان الوحيدان اللذان حلّ بهما الفينيقيون والقرطاجيون قبل الفتح الاسلامي . ولسنا هنا بصدد البحث في الاستعداد النفسي للشعوب من الناحية الاتنولوجية ، والجسر القائم بين قرطاجة والإسلام انما هو من باب التاريخ الوثائقي .

وأيسر ما يثير انتباهنا في زحمة الصراع بين الشرق والغرب في بلاد المغرب انهيار النفوذ اللاتيني والمسيحي في افريقية . على عكس ما جرى في بلاد الغال حيث تركت روما أثراً لايمحى. لقد اختارت «غالية» العرب في حين اتجه «المغرب» بكليته نحو الشرق .

واذا استعرضنا الشخصيات التي أنتجتها افريقية للغرب وجدنا أنها ثانوية على العموم على غرار أبولي الكاتب البوني اللغة والذي تعلّم اللاتينية في وقت متأخر . وفرونتون معلم مارك أوريل وترنتيوس آفير . وكذلك من امثال القديس اغسطينوس الذي يشذ عن القاعدة نظراً لأهميته البالغة في العالم الكنسي والقديس سبريان . ناهيك بإمام الهراطقة ترتليان وبالامبراطور العظيم الشأن سبتيموس سفيروس

اما بلاد الأندلس فقد عرفت سينيك ولوكان وتراجان .

لقد اختلفت افريقية عن بلاد الغال لأنها حافظت على نواتها البونية ، تلك النواة التي بذرتها أقدم حضارة في الأرض .

وفي معظم أنحاء المغرب ، يتحدث الناس لغة سامية قريبة إلى العربية ، كما يرتدون ثيابهم ويزينون شعورهم ويفكرون ويشعرون على الطريقة الشرقية منذ ثلاثة آلاف سنة . وهو واقع يلقي الكثير من الأضواء .

٢ ـ عهد السيطرة الرومانية : دراسة حول السكان

وقائع بارزة حول السكان والمجتمع في إفريقية الرومانية وإفريقية المسيحية

لا تعنينا تفاصيل الحوادث التاريخية المتعلقة بعهد السيطرة الرومانية بقدر ما يعنينا التطور السكاني والاجتماعي في المغرب طيلة ستة قرون من الحكم اللاتيني .

وليس المؤرخون القدامى حتى أفضلهم قادرين على اعطائنا فكرة عن السكان والتطور الاجتماعي ، ولا أدري مدى أهمية دراسة النقوش والكتابات وغيرها من أنواع الدراسات وغيرنا أطول باعاً منا فيها .

غير أن لدينا الكثير من المعلومات حول اختفاء الفيل وظهور الجمل وهما ظاهرتان متلازمتان على جانب من الاهمية كبيرة من شأنها إلقاء الضوء على التطور الاقتصادي عند السكان البربر .

جزيرة المغرب كما يسميها العرب معزولة بفعل البحر والصحراء . ولا يمكن للحيوانات ان تبلغها من الأصقاع الأخرى إلا ضمن ظروف خاصة جداً . وظهور الحيوانات واختفاؤها فجأة يدلان على تغيرات مفاجئة لا بد وأن تثير اهتمامنا . ولكي نجعل من فكرة وجود الفيل المغربي فكرة مقبولة ، علينا أن نضع ذلك الوجود في إطاره الطبيعي ، أي أن نجعل الفيل من الحيوانات المقيمة في المغرب في ذلك الزمن .

الكوبرا

كلنا سمع عن أفعى الكوبرا الشهيرة ولا سيما عند الحواة الهنود . والكوبرا

حيوان مصري في أصله ، عثر عليها في النقوش القديمة تزين رأس الملك أو الإله .

والكوبرا حيوان تونسي وجزائري ايضاً . وكثيراً ما يصادف السائح في القيروان مثلاً حاوياً يلاعب حيته وسط جمهرة من الناس . وكم أثار هذا المشهد فضول المصورين والرسامين .

أما في الجزائر فقد شاهدت عام ١٩١٦ حية من نوع الكوبرا في مؤسسة باستور ، كان ذلك بعد إقامتي ست عشرة سنة في البلاد . انها حيوان عظيم يبلغ طوله المترين وتفوح منه رائحة الوحوش. وكانت الأفعى تنفخ بشدة كلما تعرضت للإثارة . ولونها داكن جداً . لكنني لم أر فيها تينك العينين الكبيرتين كما تمثلها الصور الأوروبية .

على أنها من الحيوانات النادرة ، يطلق عليها السكان المحليون اسم الثعبان وهي الكلمة العربية الفصحى كما يسمونها ايضاً النعجة . ويرى دوفريبه أن هذا الاسم يطلق على أنثاها فقط . وجدير بالذكر ان الكوبرا تدعى ناجا حسب تصنيف علماء الحيوان .

ولا توجد الكوبرا في التلال حيث المناخ قارس ، ولا في الأماكن الجافة في الصحراء على ما يبدو . ويمكن العثور عليها في بسكرة وفي فجويج . وهناك أقوال ثابتة تنبىء عن وجودها في غرارة وواحة سبا . ويعرف جنود الصحراء الجزائريون هذه الأفعى جيداً وقد قتل أحد الضباط واحدة منها شمالي تيمون . ويلوح أن مكانها المفضل في منخفضات الأوراس حيث تتوفر الحرارة والماء .

وفي جنوبي مراكش حواة كثيرون يروضون الكوبرا . لكن التونسيين سبقوهم الى ذلك . ويكثر وجود الكوبرا في مناطق الشطوط بين بسكرة وقابس جنوبي تونس وعلى الحدود الجزائرية . ويتحدث الرواة عن قبيلة بسيل التي كانت تعيش مع الافاعي في تلك المنطقة دون ان تخشى لدغها . وكان الآباء يجمعون رزمة من الثعابين يرمون في وسطها أبناءهم غير الشرعيين . ولا يتحدث غيزل الذي ذكر هذه الحوادث عن إمكانية وجود علاقة بين هذه القبيلة

والحواة الحاليين . على انه ليس من السهل الربط بين جيلين يفصل بينهما عشرون قرناً من الزمن .

والكوبرا على صلة وثيقة بمناطق المياه ، ففي العطايا بجوار بسكرة يتجنب الناس الاغتسال في النهر لأنه يعج بالافاعي . ويؤكد جنود الصحراء في بني عابس أنهم شاهدوا أفعى في بئر بدوارة كانت لاصقة بجدارها تتربص للعصافير والحجال التي ترد الماء .

ويروي بعض المبعوثين إلى منطقة فجويج أنهم ذات مرّة كانوا ينتشلون دلوهم من البئر فعثروا على كوبرا اتخذت شكل الإناء . ورد هذا في تقرير رسمي . كنت مستعداً لعدم تصديق الخبر لو لم أشاهد بنفسي في معهد باستور أفعى اتخذت شكل الإناء الزجاجي الذي وضعت فيه وهو على هيئة الدلو . وتستطيع هذه الأفعى ان تمكث عدّة أسابيع وسط الماء فهي حيوان مائي . والأمر عادي بالنسبة للأفعى الهندية أمّا بالنسبة للكوبرا الصحراوية فليس الآمر عادياً أبداً .

ومن المعروف أن هذا الثعبان يهاجم الانسان . وكم تحدثنا الكتب عن مطاردة الأفاعي للبشر في بلاد الهند . وفي بسكرة يروي الناس قصة رجل طاردته الكوبرا مسافة طويلة لكنه استطاع قتلها بالبندقية قبل فوات الأوان. وفي غرارة يروي أحد القادة أنه خاض معركة عنيفة مع الأفعى انتهت بقتلها ، حين أدخل سيفه في احد الثقوب .

وكانت ناجا مؤسسة باستور تدفع رأسها إلى الامام بقوة كلما لاحت لها صورة رجل جاء يتفرج عليها .

أمّا سمّها فرهيب . وتحدثنا الكتب عن عشرات الآلاف من الهنود يموتون سنوياً بسم الأفاعي .

أما في المغرب فلا يخشون الكوبرا ولم يسمع أحد عن رجل قتلته هذه

الأفعى . والحية ذات الأجراس هي التي تمثل النوع المخيف في بلاد المغرب .

ذلك أن ذات الأجراس متوفـرة جداً أما الكوبرا فنـادرة ولها خصائص مختلفة . فليس لونها أغبر رملياً شأن الأفـاعي التي تعيش في الشمس ، بل هو داكن لأنها تعيش تحت الأرض في مواطن الماء .

ولا شك أن هذه الأفعى قد تنقلت كثيراً في اصقـاع الأرض . ففي مصر مثلاً يبرر بقاءها وجود النيل . ولكن كيف لها أن توجـد في بسكرة ؟ لا نستطيع ان نفهم الأمر ما لم نتصور وقوع كارثة جغرافيـة استطاعت الكوبرا أن تقاومها بمعجزة . وهي إذن من الحيوانات التي نجت من الكوارث مع من نجا.

الأسماك

هناك أنواع أخرى من الحيوانات المائيـة لا بدّ وأن يثير التساؤل وجودها في الصحراء . ففي منطقة قسنطينة جرى حفر الكثير من الآبار الأرتوازيـة وفي معظم الأحيان كان السمك يشاهد وسط الماء المتدفق . بعضه صغير جـداً والبعض يبلغ حجم السمك الأحمر .

ويكثر وجود هذه الأسماك في واحة الزاب وفي وادي غـير ، تحت أقدام النخيل حيث تنساب أقنية الري الكثيرة وتنساب معها هذه الأسمـاك في المياه الصافية . وكذلك نجدها مسلوقة أو مقلية على موائد سكان تلك الواحة .

وفي البداية قوبل الحديث عن وجودهـا في الآبار الارتوازية بالاستهجان التام ، لكن مراقبين موضوعيين من أهـل الثقة قد شاهدوا بأم اعينهم هذه الأسماك القادمة من باطن الأرض .

على أنها ليست شبيهة بحيوانات المغاور التي تفقد بصرها في الظلمة الدائمة ، فهي ذات عيون سليمة لا تختلف عن أشباهها الموجودة في الواحات .

ونحن لا نعرف طريقـة جريان المـاء في باطن الأرض وإنما يلوح لنا أن

هذه الأسماك تتسرب الى الباطن وتعود الى السطح ، وهكذا تقضي أيامهـا موزعة بينهما .

من هنا نراها تثير انتباهنا ، لا سيما وأن الى جانبها أنواعاً أخرى لا توجـد إلاّ في المتوسط كالحنكليس والبوري وقلما يعثر على السمك النهري .

ولم تشاهد سمكة من هذه الأنواع في شمالي هدنـة ، فالأسماك تلك مقرها النيل . وفي حوض المياه بالقاهرة ثلاثة أجنحـة مخصصة لأسماك يعثر عليهـا في التشاد والنيجر وهي من النوع السوداني . ويلوح انها غريبة عن وادي غير . وقد برهن المقدم كوفيه الذي عني بتربيتهـا انها تحتاج لوسط حار . وقال انه فقد إحداها حين ابتلعت دودة باردة .

السلّور

وقد عثر كوفيه في نفس المنطقة على نوع آخر من السمك الاستوائي من طائفة السلّور . وهو سمك كبير يبلغ طوله الخمسين سنتيمتراً له زعانف عظيمة تجعله مخيف المنظر. ويعيش في توجا وهي واحة غربي بسكرة ولم يشعر أحد بوجوده هناك قبل ١٥ يوليو ١٩١٥ . لأنه يعيش في مستنقعات على شكل فوهات بركانية أقرب لتكون آباراً ارتوازية لو كانت من صنع الانسان . وعثر على اول سمكة في مستنقع عين الزرقا في الجزائر . ويبلغ قطر هـذا المستنقع ٦٠ متراً بعمق أربعين تقريباً تنبع منه مياه ارتوازية ، فيهـا يعيش السلّور مختبئاً . ويقول المقدم كوفيه ان لهذه السمكة جهـازاً إضافياً للتنفس يمكنهـا من التنفس خارج الماء حين تجف المستنقعات التي تعيش فيها .

التمساح

قبل عام ١٩١٥ تمّ العثور على السلّور . كان ذلك على يـد دوفريبه الذي اتى بعينة منه لمتحف الحيوان ونشر صورة له سنة ١٨٦٤ . وقال انه عثر عليه بطريق الصدفة في وادي تيخاملت بعد ان جرفته الميـاه القادمة من تسيلي . وجميع البعثات العلمية التي عملت في بلاد طوارق الهجار وفي واحة غات شاهدت

هذا السمك . فهو متوفر بكثرة هناك وله عدّة انواع .

والملجأ الطبيعي لهذا السلّور في وادي المهيرو ، وهو مكان عظيم الأهمية لأن فيه عثر لأوّل مرة على تمساح وسط الصحراء .

وقد تحدث دوفربيه الذي عوّدنا على أمانة معلوماته عن هذا التمساح ايضاً. وقال انه لم يشاهده بنفسه لكنه حصل على معلومات دقيقة تؤكد وجوده . « كان يثير الرعب في القطعان حين ورودها الى الماء ، ثم ان آثار الجروح التي شاهدتها بام العين في جسم بعض الرجال الطوارق قد ازاحت كل شك في وجود هذا الحيوان . ويقول الطوارق عنه انه يعيش طيلة الشتاء مختبئاً في المغاور تحت المياه ويأتي إلى الشواطىء في الربيع . وفي فصل الاخصاب تطلق اناثه صيحات أشبه بصوت الجمال الهائجة » .

واكد رواية دوفربيه مكتشف الماني يدعى اروين دي بادي . غير انه مات في الطريق ، لكن مذكراته وصلت الى اوروبا . قصد هذا من غات إلى وادي مهيرو حيث سمع الطوارق يتحدثون عن التماسيح وجدّ في البحث عنها لكنه لم يستطع إدراكها وإن اكد انه شاهد آثارها .

وظلّ التمساح الصحراوي في مجال الشك حتى سنة ١٩١٠ ، حين اصطاد الكابتن نيجر تمساحاً من وادي مهيرو واعدّه ونقله لمختبر فلامان بجامعة الجزائر ثم نقل مرّة اخرى إلى مختبر تروسار في باريس على ما اظن . واعتبره الباحث بلغران من تماسيح النيل .

ولكن ما من حيوان لم يصدق الناس وجوده في بلاد الطوارق اكثر من هذا التمساح ، ذلك لأنه نادر الوجود هناك .

ولنشر هنا إلى ان تمساح تسيلي لم يعد فريداً في الصحراء . فقد عثرت بعثة تلهو في النديّ على « خزان يحتوي تماسيح صغيرة » .

وليس وادي مهيرو بالمكان المعروف ، لكن العلماء اخذوا صوره وحددوا

موقعه بالبوصلة ، وهو بالطبع واد جاف شأن جميع الوديان الصحراوية غير انه يقع في تربة شديدة الرطوبة تكثر فيها ثقوب المياه .

وهذا الوادي عبارة عن مجرى نهر جفت مياهه ، غير انه حافظ على جميع تعرجاته بوضوح . والغرغر اشهر المجاري من هذا النوع حيث يمر بوادي غير وفي منطقة الشطوط الكبرى تحت بسكرة .

موت نهر

في المجلة العلمية رواية مفصلة عن موت أحد الأنهار . وهي عبارة عن وصف أجراه شاهد عيان في جنوبي افريقيا من الجهة الشمالية لبلاد الترانسفال . والنهر رافد لنهر آخر هو لمبوبو . ويقع في منطقة غنية بالمياه والخضرة تكثر فيها المزارع والمراعي . وقد جفّ بصورة مفاجئة بين ١٩١٣ و ١٩١٤ . ويروي احد المزارعين بدقة كيف ان الصحراء غزت النهر وهو امر من شأنه ان يلقي ضوءاً على موضوعنا .

عجب المزارع لاختفاء التماسيح بعد ان كانت تملأ المكان ، وفي احد الايام بينما كان يحفر ثقباً في الرمل بحثاً عن الماء عثر على عمق متر ونصف المتر على تمساح صغير يبلغ طوله المتر وقد بدا له ميتاً . كان ملقى فوق الرمال الرطبة ، وجسمه مبلل بالماء . وعثر بجواره على بعض الأسماك . وعادت هذه الحيوانات إلى الحركة بعد ان صبّ عليها الماء . لقد خرجت من نهر قتلته الصحراء .

نبات مراكش وحيوانها

تعتبر منطقة الشطوط جنوبي تونس مكاناً مختاراً للحيوانات المقيمة ذات الأصل الاستوائي .

ويلوح أن في مراكش الاطلسية ايضاً مجموعة من النباتات والحيوانات التي لا توجد إلاّ فيها ويعود مصدرها إلى افريقية الاستوائية .

ولم تجر حتى الآن دراسات وافية حول هذه النباتات والحيوانات الباقية ، ولكن لا بدّ لها ان تسترعي انتباه المشاهد . هناك نبتة الفربيون التي تحتل مكاناً بارزاً بين نبات المغرب وهي كثيرة الشوك وتشبه نباتات المكسيك . لكنها لم تستورد من امريكا منذ وقت قريب فكلمة الفربيون معروفة في اللغة البربرية المرّاكشية منذ الفي سنة . وابرز حيوانات المغرب الاطلسي الدجاج الفرعوني وهو من اصل استوائي وقد عرفه الرومان جيداً . وفي جنوبي جبال الاطلس يعيش الزنوج بأعداد كبيرة . ولا يعثر على هؤلاء في مكان آخر ما عدا الصحراء الكبرى طبعاً . وسواء كانوا من الجرمنتيين كما يقول دوفربيه أم لم يكونوا فإن بامكاننا اعتبارهم من بقايا الاثيوبيين الذين استوطنوا البلادمنذ آلاف السنين او من السودانيين القدامى .

وليس الزنوج كل ما بقي من إرث السودان في المغرب الاطلسي فهناك ايضاً الاكواخ المخروطية الشكل الموجودة في افريقية الاستوائية .

وهناك ظواهر عديدة اخرى تستوجب التحليل ، لكن ما وصلنا اليه حتى الآن من شأنه ان يقودنا لبعض الاستنتاجات الواضحة .

إن منطقة الشطوط تمت ولا شك بصلة لمجرى الغرغر ، النهر الذي كان طريقاً للاتصال بين السودان والأبيض المتوسط . ويسهل علينا التصور أن مراكش الاطلسية كانت على صلة بالمناطق الاستوائية . وإذا كانت الصحراء الغربية مجهولة لا سيما في منطقة ريو اورو الاسبانية ، فان أثر المحيط على الساحل المراكشي لا يستهان به . وعلى طول الشاطىء الصحراوي حتى السنغال ، نرى ان اثر المحيط قد حدّ من الجفاف وساعد على هجرة الانواع الاستوائية باتجاه الشمال .

الفيل القرطاجي

لعلنا اسهبنا في الحديث عن انواع الحيوانات الاستوائية التي حافظت على

بقائها في المغرب . ومن الواضح ان الأسماك والتماسيح والدجاج الفرعوني ليست على علاقة مباشرة بموضوعنا ، لكنها تسمح لنا بالتعرف على نوع آخر ذي اهمية تاريخية كبرى ألا وهو الفيل .

كلنا يعرف فيلة قرطاجة ، وقد قرأنا عنها في الكتب المدرسية التي حدثتنا باسهاب عن الحروب البونيه نقلاً عن تيت ليف . وفي ذكرياتنا الأدبية نعرف رواية سلامبو جيداً ، حيث تبقى صورة القائد الأعور الذي يمتطي صهوة الفيل ماثلة في اذهاننا .

ولكن لم ينبئنا أحد عن المصدر الذي جاءت منه هذه الفيلة. فنحن نتمثلها في اسطبلات هملقار وفي سفنه تنتقل مع جيشه الجرّار ، ونغفل انها كانت متوحشة ذات يوم تعيش في البراري الافريقية على قضم السنديان والمصطكى والعرعر .

فمن الثابت ان الفيل القرطاجي مواطن اصلي في البلاد ، وكانت قطعانه ترتع في جبال الاطلس قبل تدجينه . ويتفق العلماء والدارسون حول هذه الناحية لكنهم لم يعمموا استنتاجاتهم على الناس.

والفيل القرطاجي يهم طائفتين من الدارسين ، علماء الحيوان والمؤرخين . وغني عن البيان ان كلّ فئة منها تعمل لحسابها الخاص بسبب كثافة الجدار الذي يفصل الآداب عن العلوم . اما علماء الحيوان فهم متفقون مع علماء الآثار . وقد عثر علماء الحيوان على الهيكل العظمي للفيل القرطاجي ، ولا سيما على انيابه ذات الطابع المميز وخلصوا الى نتيجة واضحة ، فلايوجد على سطح الكرة الأرضية سوى نوعين من الفيلة ، الفيل الافريقي والفيل الهندي . وتعود الهياكل العظمية التي عثر عليها في بلاد البربر إلى النوع الافريقي .

الكرنك الهندي

اغفل اسلوب الكتب المدرسية أهمية الامبراطورية الاغريقية في الشرق ،

تلك الامبراطورية التي عرفت عهد الاسكندر الكبير والسلوقيين والبطالسة . وبقليل من الانتباه ندرك انها دامت ثلاثة قرون في حين تتوقف الكتب المدرسية عند موت الاسكندر وكأن الامبراطورية عاشت بضعة شهور فقط . خلال هذه القرون الثلاثة أتيح للفيل الهندي لأول مرّة ان يبلغ عالم البحر المتوسط . ويتحدث اللاتين والاغريق عن « الهندي » كلّما ذكر الفيل القرطاجي .

يروي لنا بوليب انه تمّ الاستيلاء على عشرة فيلة بهنودهم . ويروي في مكان آخر ان الرومان استولوا بعد هزيمة استروبال على اربعة فيلة بدون هنودهم . ويروي ايضاً انه حين كان هنيبعل يقطع الرون غاصت الفيلة في النهر لكنها رفعت خراطيمها فوق الماء فنجت من الغرق ومات هنودها .

وهكذا نلاحظ التلازم بين الفيل وراكبه بالنسبة للقدماء.

لقد استعانت قرطاجة بخبرة الهنود في تربية الفيل وترويضه لكنها لم تستخدم فيلة الهند .

الفيل الليبي

قبل السلوقيين بنحو قرنين أي قبل تدريب الفيل الافريقي على القتال ذكر المؤرخون أخباراً عديدة عن هذا الحيوان : فقد سمع هيرودوتس عن وجود الفيلة في نوميديا غربي بحيرة تريتون (الجريد) كما شاهدها حنوّن صاحب الرحلة على الشاطىء الاطلسي لمراكش وفي رأس سولس الذي نسميه اليوم كنتين (بين صافي ومزغان) .

ويرى ارسطو معاصر الاسكندر والذي تطرق لعلم الحيوان في حديثه عن الفلسفة ـ ان التوزيع الجغرافي للفيلة يدلّ على كروية الأرض . ولاحظ ان هذه الحيوانات لا تعيش إلاّ في أطراف الأرض المأهولة في الهند من جهة وعند « أعمدة هرقل » من جهة أخرى ، ويرى ارسطو ان هذين الطرفين قابلان

للالتقاء . ولا يغربن عن بالنا هنا ان ارسطو بادي الأثر في ثقافة كريستوف كولمبس ، وليس الفيل الموريتاني بالتالي غريباً عن اكتشاف اميركا .

ويشير بعض المؤرخين الاغريق من أمثال بوليب وديودورس وأبيان إلى البون الكبير في القدرة على القتال بين الفيل الليبي والفيل الهندي . وقد قيض للنوعين ان يتقابلا في الحرب بين بطليموس وانطيوخوس وإبّان الغزو الروماني لآسيا . ويجمع هؤلاء المؤرخون على القول ان الفيلة الليبية كانت تخشى ضخامة الفيلة الهندية وشدة بأسها ، بل كانت عاجزة عن تحمل رائحتها ونهيمها ومقابلتها في القتال كما يقول بوليب .

ويقول ديودورس إن الفيلة الهندية أشد من الافريقية إقداماً وقوة . ويذكر ابيان ان الجيش الروماني لم يستخدم الفيلة حين انتصاره على انطيوخوس لأنها كانت أفريقية ، تخاف الفيلة الاخرى. لذلك خصصها القائد الروماني دومسيوس لحمل الامتعة . ويقول بلين : أضخم الفيلة الهندية، ولا طاقة للافريقية على مقابلتها . والفارق بين الطائفتين واضح لا يقبل المناقشة .

وجدير بنا ان نتذكر ان الفيل المغربي من الحيوانات الباقية إلى جانب السمك والسلّور والتمساح وغيرها. وقد حافظ على وجوده معها رغم تغير المناخ وهذا ما يفسّر ضآلة حجمه . والفيل السوداني وفيل الكونغو اضخم حجماً من الفيل الهندوسي واقوى منه في الوقت الحاضر ولم تفلح الجهود المبذولة لتدجينه حتى الآن . على ان انواع الفيل الموريتاني قد تقهقرت باستمرار . ذلك شأن الحيوانات الباقية ، فتمساح وادي مهيرو لا يزيد طوله على متر واحد .

الفيل المراكشي

ليس مستبعداً ان يكون الفيل الليبي قد حافظ على بقائه في بعض المناطق الموريتانية حتى فجر التاريخ المسيحي . وقد اورد بلين المعروف بروحه العلمية أشياء دقيقة بهذا الصدد ، فحدثنا عن ساله التي لا تزال قائمة حتى اليوم تجاه

مدينة الرباط على مصب ابو رقرق ، وبجوارها مناطق منعزلة ترتع فيها قطعان الفيلة البرية ، كما تقطنها بعض قبائل القراصنة . إذ يقع المكان على الطريق المؤدية لجبال الاطلس اهم الجبال الافريقية . ويذكر بلين ان أحد المكتشفين الرومان ويدعى سيتونيوس بولينوس قد عبر الاطلس حتى بلغ نهر جير (وادي غير؟) . وشاهد في طريقه حقولاً ملأى بالفيلة . ويضيف بلين ان في مقاطعة تنتجيان (اي طنجة) الرومانية لجهة الشرق (اي منطقة الريف) توجد الفيلة ايضاً .

كذلك يتحدث مؤرخون آخرون اقل دقة من بلين عن وجود الفيل هناك . وقد ذكر الأمر ارسطو نفسه كما رأينا . ويقول بومبونيوس ميلا ان العاج من منتجات المرتفعات المراكشية .

ويذكر أليان ان الفيلة كانت تعيش بكثرة حول جبال الاطلس وسط المراعي الجميلة والغابات الرائعة .

وليس المؤرخون وحدهم هم الذين يتحدثون عن وجود الفيل في الجبال المراكشية ، فهناك بعض النقوش الصخرية تشير إلى ذلك ايضاً . ففي امتداد جبال الاطلس ناحية الجزائر في « سلسلة القصور » وجبل آمور عثر على نقوش صخرية تمثل الفيل . ويعثر على هذه النقوش ايضاً في المنطقة المراكشية حتى جبال فجويج . وليست هذه الرسوم بالطبع تحفاً فنية ولكنها ليست بدائية جداً في نفس الوقت . ويلوح ان بعضها قد استخدم لأغراض العبادة . وكثيراً ما تحدث الناس عن النقوش الصخرية التي يحتل الفيل مكاناً مرموقاً بينها .

الفيلة الصحراوية

ويذكر بلين احتياطياً آخر للفيلة في غير مراكش . ويشير إلى منطقة سرت في مكان ندعوه اليوم خليج قابس وسط السهوب الوعرة التي تصل بالصحراء

المتدة حتى فزان . على ان الوصف ليس دقيقاً هنا ولا ندري هل تدفعنا إشاراته هذه لمنطقة الشطوط أو لوادي غير او وادي غرغر أو الهقار . والواقع انه قد تمّ العثور في تسيلي على فيلة رائعة منقوشة على الصخور .

ويمكننا الظن استناداً لبلين ان وجود الفيلة في المغرب منطبق على المنطقتين اللتين تعيش فيها بعض الحيوانات الباقية ، اي في مراكش من جهة وفي منطقة الشطوط من جهة اخرى . وهنا نلحظ مصادفة لا يمكننا التغاضي عنها .

ويحسن بنا على كل حال ان نتجنب المبالغة . فالفيل من الحيوانات الرحالة يتنقل بسهولة كما يحلو له . ويقول كيبلنغ : « الفيل لا يستطيع الجري ، ولكنه يسبق القاطرة لو شاء اللحاق بها » . وبديهي أن حيواناً كهذا لا يبقى مستمّراً في مكانه .

يتحدث بلوتارك عن حقبة في حياة بومبيوس هي الحقبة الافريقية القصيرة . حيث مرّ بافريقيا لمدة اربعين يوماً كانت حافلة بالأحداث العسكرية والسياسية . وقد قيض له ان يصطاد من نوميديا فيلا .

وهناك نصوص اخرى تشير إلى وجود الفيل في التل الجزائري وحتى جوار قرطاجة . وهي نصوص تناقض بلين الذي كتب في وقت متأخر عن افريقية الرومانية التي تضاءلت فيها مراعي الفيلة .

والمكانان اللذان أشار بلين لوجود الفيلة فيهما من أشد المناطق المغربية فقراً بالسكان . ونحن نعلم كم تأخر الوقت الذي اصبحت فيه المنطقة المغربية جنوبي ابو رقرق غنية بالناس . ولم يكن في منطقة الشطوط وقتئذ اي اثر لأشجار النخيل الموجودة بكثرة في الوقت الحاضر ، وجميع المياه التي تروي هذه الأشجار حالياً كانت ينابيع خاصة بالفيلة .

ولعلّ بوسعنا القول انه مهما بدا من بعد بين الاطلس المراكشي ومنطقة الشطوط فثمة طريق معروفة تصل بينهما . وعلى سفح جبل الأطلس يمتد على مئات الكيلومترات

واد تكثر فيه المراعي والينابيع ، انه وادي الجدي الطريق الرئيسية للبدو وقطعانهم. وراقصات ولد نايل اللواتي يقبل على مشاهدتهن السياح في بسكرة، يأتين من أقصى الغرب عن طريق وادي الجدي .

فهل بوسعنا أن نتصور الفيلة وهي تسلك نفس الطريق ؟

هناك ملاحظة يمكننا الأخذ بها رغم تشوش المصادر القديمة وهي ان الفيل الليبي قد عرف اطار المغرب القديم كله .

الصيد

ويتحدث القدماء عن تدجين الفيل وطريقة ترويضه . فيحدثنا أبيان عن أحد أبناء استروبال، ويحدثنا فرونتان عن استروبال آخر أنهما ذهبا إبان الحرب البونية الثانية لصيدالفيل، فقدكانا يريدان امتطاء الفيلة القرطاجية مرّة أخرى. ويحدثنا فلورس عن معركة تبسوس فيقول: إن الفيلة التي تمّ الاستيلاء عليها لم تكن مجدية لأنها لم تأخذ الوقت الكافي للتدريب مع أصحابها الجدد .

وإليك ما يرويه بلين بدقة عن طريقة تدجين الفيلة الأفريقية: كان الفرسان يطاردونها في حلبات خاصة تحيط بها الصخور والحفر من كل جانب وذلك قصد إخضاعها والسيطرة عليها . ثم كانوا يتركونها فريسة الجوع . ويعلن الفيل خضوعه حين يقترب من مروضه ليلتهم غصناً من يده . ويمكن اعتبار هذا الوصف صحيحاً لما فيه من شبه بما أورده كيبلنغ في كتابه عن الغابة حين يصف عملية الترويض في الهند : الحلبة هنا محاطة بالأوتاد ويطلق عليها اسم « كدّة » باللغة الهندوسية . وتنتهي العملية بإطلاق الفيلة ليلاً فتندفع بأقصى سرعتها وسط الكدّة وحين تشعر بأن لا سبيل إلى الفرار ترتمي الحيوانات على الأوتاد خائرة القوى ، ويجري إبعادها بعد ذلك بالصراخ والتلويح بالمشاعل وإطلاق الرصاص في الهواء .

والشبه واضح بين ما اورده بلين وما جاء به كيبلنغ وإن كان الأخير احسن تصويراً. والفرق بين الترويض الهندي والترويض الافريقي ان الهنوديستخدمون الفيلة الأليفة ، في حين يلجأ الموريتانيون للجياد .

كما يشير بلين إلى نوع الطعام المفضل عند الفيل الأليف ويقول انه شديد الشغف بتناول الشعير .

الفيل في الاساطير الشعبية

أورد المؤلفون القدماء طرائف عدّة عن عادات الفيل الليبي هي أقرب إلى الأساطير . وذكروا كيف انهم تفننوا في طرق صيده ، ونوهوا بمكانته المهمة في التراث الشعبي . ومعظم هذه الاخبار مصدرها جوبا ملك موريتانيا الذي وضع كتاباً عن بلاده كان نصيبه الضياع . وكلما أشار كاتب إغريقي أولاتيني الى جوبا نعرف انه يقصد الفيل الليبي . ويشدد جوبا على الفضائل الأخلاقية للفيل وصفاته الاجتماعية . ويذكر لنا كيف انه يعاون رفيقه إذا ما وقع في حفرة أعدّها الصيادون : « تأتي الفيلة بالكثير من الحجارة والأخشاب تلقي بها في الحفرة حتى تمتلىء ويتمكن الرفيق أن يخرج منها».

ويروى الكثير ايضاً عن ذكاء الفيلة ، فهي تعرف ان الناس يصطادونها من اجل الحصول على انيابها العاجية لهذا تعمد في الأوقات الحرجة لوضع افرادها ذات الأنياب المحطمة في واجهة القطيع لتثير اشمئزاز الصيادين . وتحسن الفيلة مكافحة حريق الغابات . كما تنظم في صراعها مع الصيادين فرقاً في المقدمة وأخرى في الجوانب . ويلتقط الفيل الجريح بخرطومه غصناً أخضر يرفعه كالعلم الأبيض .

ويقال ان للفيلة صفات إنسانية في مجال الحب . وقد عاش اسكندر أحد صيادي موريتانيا مشهداً مخيفاً في إحدى عائلات الفيلة يعبّر عن ثورة الكراهية بسبب الزنى . فلم يستطع « الزوج » العجوز ان يحتمل اعتداء فيل آخر على

شرفه فانقض عليه الخ ...

وتشعر الفيلة بروح الصداقة ويذكر جوبا ان احدها قد تعرف على الشخص الذي كان يركبه قبل سنوات طويلة .

ويروى عن احد الفيلة انه كان يعشق عطارة يحتفظ لها بكل درهم يعطى له .

وللفيلة مشاعر دينية ، فهي تتطهر بمياه البحر وتعبد شروق الشمس وهي ترفع خراطيمها كما يرفع الانسان يديه . وتعبد القمر ايضاً . ويذكر بلين أن قطعان الفيلة كانت ترد مياه نهر أميلو (الذي لم يعثر على اثره ابداً) لتغتسل قبل تقديم واجب العبادة للقمر .

ولعلّنا نذكر ان استدارة القمر تشابه تانيث وان هناك شبهاً بين الشمس وبعل .

انها قصص صغيرة يصح ان يرويها الصيادون المهرة لأترابهم المتجددين بعد ان يتحلقوا حول النار .

الواقع التاريخي

لا شك ان في الصفحات السابقة عيوباً لا يمكن إخفاؤها ، فليست الأخبار التي اوردتها نتاج دراسة علمية عن الفيل الليبي ، بل كانت روايات من هنا وهناك لا تخلو من اخطاء جسيمة . وجلّ ما في الأمر انني شئت ان أؤكد بطريقة تصويرية حقيقة تاريخية واضحة تثبت وجود الفيل القرطاجي . وقد خشيت ان أجابه القارىء بهذه الحقيقة دون مقدمات فيرفض التسليم بها . على انني لست مؤمناً كل الايمان بجدوى اسلوبي هذا .

الأسباب

ذاك ان القارىء لا بدّ وأن يستهجن واقعة كهذه . إذ كيف لحيوان استوائي ضخم كالفيل أن يتنقل في أنحاء منطقة البحر المتوسط كما صورناه ؟

فهل يحق لنا الظن بأن المناخ قد تغيّر ؟

ما من شيء على سطح الكرة الأرضية أكثر تغيّراً من المناخ . لكن ذاكرة البشر لم تستيقظ إلاّ في وقت متأخر؛ ثم إن عمر الانسان قصير إلى حدّ أن التاريخ لم يسجل حتى الآن أي تغيّر مناخي حق ولا على شواطىء المتوسط حيث نشأ هذا العلم، أو في الصحراء الكبرى أو في مصر التي وجدنا فيها آثاراً غرانيتية ورخامية تعود لستة آلاف سنة .

ولم يغفل غيزل ، بما له من طول باع في هذا المضمار، الحديث عن تبدل المناخ في منطقة الشمال الأفريقي وخلص إلى نتيجة تنفي هذا التبدل . ولا أدري إذا كان احدهم قد وصل لرأي مغاير .

على ان هناك العديد من النصوص والآثار القديمة التي تحدثنا عن افريقيا الرومانية وكذلك عن تونس والجزائر . ولم تدفعنا هذه المعلومات إلى الاعتقاد بتبدل المناخ ، على ما بحوزتنا من وسائل البحث والاستقصاء .

بيد ان النصوص تحدثنا عن حياة الحيوان في عهد الرومان وقرطاجة على صورة لا نلحظها في ايامنا هذه . وليست قضية الفيل وحدها في الميدان .

فهناك فضلاً عن ذلك ذكر البوا تلك الأفعى الرهيبة التي تحدثنا عنها.

وانه ليثير انتباهنا حقاً كثرة الحديث عن الحيوانات في تلك الفترة . فقد اعتبر المؤلفون القدامى افريقية مرتعاً للحيوانات المفترسة وذكروا منها الفيل والأسد والفهد والظبي والنعامة .

ويرى ملينوس أن كثرة الحيوانات فيها دليل غضب الآلهة على قرطاجة .

ويقول غيزل : كانت الحيوانات قبل العهد الروماني من الكثرة بحيث انهـا شكلت خطراً دائماً على سلامة السكان .

ويرى سالوست ان ثلاثة انواع من الموت يمكن ان تقهر الشعب الصامد الجاف : الشيخوخة والحرب والحيوانات المفترسة .

لقد كانت افريقية مصدر الوحوش التي استخدمها الرومان في الحفلات . ويروي اوغسطس انه قد تمّ قتل ٣٥٠٠ حيوان افريقي خلال ستة وعشرين يوماً من ايام الأعياد التي قدمها للشعب . وقد بدأ إرسال الحيوانات إلى روما منذ القرن الثاني قبل الميلاد واستمرت عمليات التوريد حتى عهد ثيودوريك . وبسطر واحد يذكر بلين صادرات نوميديا فيقول : « لا شيء سوى الرخام والحيوانات » .

ولا تعتبر الجزائر وتونس وحتى مراكش في ايامنا هذه مواطن للطرائد . فأماكن الصيد في افريقية معروفة لدى الجميع . ويعتبر صيد الحيوانات الكبيرة هواية عالمية في افريقيا الاستوائية بجوار البحيرات . ويمكن للسودان (مالي) ان يجتذب الصيادين لو ان طرقه سالكة . فليست افريقية الاستوائيـة نفسها موطناً لأنواع الحيوانات ، لكن هذه تعيش في السهوب والغـابات الصحراوية والاماكن الجرداء . كما تكثر الوحوش في المناطق المتجمدة التي تعيش على صيد السمك والقنص . والمناطق القطبية أقصى مكان يمكن للحيوان أن يفرّ اليه هرباً من الناس . وفي تصورنا ان نسبة السكان في الكيلومتر المربع تتـدرج عكسياً بين الانسان والحيوان . فوجود الحيوان بكثرة في افريقيا الرومانيـة دليل على ضآلة البشر فيها . كان من الممكن ان تبقى الفيلة في الغابات الجزائرية لولا وجود الانسان . لكنها فرّت إلى مراكش التي بدأ سكانها يزدادون ايضاً. وقد بنيت عاصمة هذه البلاد في القرن الثاني عشر في مكان لم يسبق لمدينة قديمة ان قامت فيه على ما يبدو .

انقراض الفيل

في بداية القرن الثالث كتب الكاهن الجزائري ترتيليـان يقول بأسلوب لا يخلو من الاطناب: «حلّت الأراضي الضاحكة مكان الصحارى الشهيرة، والحقول المحروثة قهرت الغابات ، وهزمت قطعان الماشية الحيوانـات المفترسة ... كل ذلـك دليل على ازدياد أبناء البشر باطراد في هـذا الجزء من العالم . وتأتي الشكاوى من كل صوب : الطبيعة سائرة إلى التقهقر» . ان عبارة كهذه من شأنها أن توضح لنا كيف وجدت روما فيلة افريقية وكيف قضت عليها .

لكننا لا نعرف بالضبط تاريخ اختفاء هذه الحيوانات . ويورد غيزل بصدد ذلك نصين واحدهما من القرن التاسع والثاني من السابع .

فمنذ القرن السابع كان الناس يتذكرون الفيلة المراكشية دون ان يروها . الأمر الذي يدفعنا إلى الجزم بأنهـا زالت تدريجياً في عهد الامبراطوريـة الرومانية .

تقاوم الحيوانات الباقية تبدّل وسطها بقدرة تحاكي المعجزة ولكنها لاتدوم طويلاً . وهو رأي يصح في الفيل هذا الحيوان العظيم الجثة — بنوع خاص .

فروما لم تستخدمه في الحرب ، وفقد بذلك قدرته على البقاء بعد ان تحول لحيوان داجن .

ويذكر بلين عن بوليب هذه الطرفة لغولوسا احد الملوك النوميديين: في اقاصي موريتانيا كان السكان يستخدمون أنياب الفيل في صنع إطارات الأبواب وفي أقفال الاسطبلات ، أما روما فاستعملت الأنياب لأغراض أخرى . فالعاج همّ الرومان بالدرجة الأولى ، وكم ضحوا في سبيل الحصول عليه من فيلة . وكان الصيادون يصوبون على قدم الحيوان وهو نقطة ضعفه ثم يعقرونه ويستخرجون منه العاج .

وسرعان ما اختفى العاج بجميع أنواعه عن موريتانيا . وقد أشار بلين لهذا

التقهقر في بداية التاريخ المسيحي . ولم يبق منه سوى عينات صغيرة ، في حين بدأ استيراد الأنياب الكبيرة من الهند .

لقد قتلت الحضارة الاوروبية تلك الدجاجة التي تبيض ذهباً من أجل ملذاتها .

يقول إليان : في الماضي كانت توجد فيلة ضخمة جداً الى حد لا تستطيع معه الحركة ، تعيش في سفوح جبال الاطلس دون ان يتعرض لها أي صياد شريف . حتى جاء ملك البلاد الجشع ليأمر بالقبض عليها جميعاً قصد الاستيلاء على اسنانها العاجية .

ويروي أريان قصة من هذا النوع جرت بين انطيوخوس والرومان . فقد تعهد انطيوخوس بعد هزيمته بعدم استخدام الفيلة مرة أخرى ، لكنه لم يكن يقوى على تنفيذ هذا التعهد ، فأقدم الرومان بأنفسهم على قتل هذه الحيوانات المروضة أحسن ترويض . وثارت حفيظة أحد المواطنين ممن شهدوا المجزرة فأقدم على قتل الضابط الروماني الذي قام بالعملية .

النتيجة

اختفت النعامة من بلاد المغرب في أيامنا هذه كما اختفى الفيل في العصور القديمة . ومن غريب المصادفات أن الحضارة الغربية التي استولت على بلاد البربر مرتين ، كانت تشهد كل مرّة اختفاء حيوان جديد . ولاختفاء الحيوانات نتيجة انسانية مهمة ، لأن عملية الاختفاء هذه ترافق الخضات السياسية والاجتماعية التي تصحب حركة التطور البشري .

وإحصاء السكان ليس بالعلم البعيد في التاريخ . ولا يزيد عمر أول إحصاء جرى في العالم على قرن واحد . فليس من السهل مثلاً تقدير عدد سكان فرنسا في عهد لويس الرابع عشر . فكيف لنا من باب اولى أن نعرف سكان افريقية القرطاجية أو الرومانية . ووجود الفيلة البرية هو السبيل الوحيد للإحصاء .

رأينا كيف أن اميركا الشمالية — التي كانت لثلاثة قرون خلت خاوية إلا من نصف مليون هندي وما يقارب هذا الرقم من أبقار وحشية — قد أصبحت تضمّ اليوم ما يزيد على المائتي مليون نسمة . وكيف أن الجزيرتين الفرنسيتين موريس وبوربان كانتا مقفرتين قبل اكتشافهما إلا من طائر كبير انقرض بدخول البشر اليها . وكيف ان مدغشقر كانت خاوية في العصر الحجري ثم عرفت طلائع سكانها الأسلحة الحادة والأدوات الحديدية .

لقد ألفنا إغفال البحث في ظاهرة اختفاء الحيوانات بسبب تكاثر البشر لأننا نعيش في قارة قديمة . وليس هذا شأن شمالي أفريقيا إذا تغاضينا عن سكانه البربر الأصليين .

ويعتبر الفيل القرطاجي دليلاً بين دلائل أخر ، ويفيدنا عن وجود ثغرات في السكان .

وبمجيء الرومان زاد عدد البشر كثيراً ، وليس لدينا سوى اختفاء الفيل دليلاً على ذلك . فالفيل إذن من القرائن الهامة في المجال الديمغرافي (السكاني) . ذاك أن الدراسات اللازمة لإحصاء عدد السكان لم تكن معروفة كما ذكرنا ، ووجود الفيلة قطعاناً ثم تضاؤلها باستمرار لدرجة الانقراض ، يعطينا فكرة عن الوضع الذي كانت فيه بلاد المغرب قبل مجيء الرومان ، وكيف أن هؤلاء بحلولهم فيها ملأوها بالطاقات البشرية وبالموارد بعد أن كانت فقيرة فيها .

وحين نرى أن المغرب المسلم يتفوق على جيرانه الاسبان والصقليين والمصريين ، فلا يغرب عن بالنا ابداً أن جهودهم قد عبئت منذ العهد الروماني .

ولكن ما الذي جعل المسيحية تنهار في الشمال الافريقي ؟ إن اعظم هدية قدمتها روما للمغرب إنما هي إدخال الجمل إليه . والجمل هو الذي أسهم في انهيار دولة الروم .

٣ - ظهور الجمالين الرُّحَّل الكبار

حيوان مستوطن - الحصان .

في المغرب سلالة خاصة من الخيول تدعى فرس المغرب لها قامة مميزة لا تنساها العين. قوائمها الأربع مجموعة تحت جسمها وأردافها صغيرة مضمرة. فليس لفرس المغرب مؤخرة واسعة مدوّرة فوق أرجل وثابة تقفز فوق الحواجز شأن الجواد العربي . ففرس المغرب ضعيفة في القفز . وهي لا تحتاج الكثير من الغذاء إذ تكفيها ستة كيلوغرامات من الشعير يومياً أي أقل بكثير مما يحتاجه الحصان الفرنسي. والحصان المغربي صغير الحجم هزيل الجسم ضامره ، لايبهرك منظره وهو أقل قوة من الخيول الأوروبية ولايتحمل الأوزان الثقيلة التي تتحملها . كما انه أقل منها جموحاً ولا يصعب على الخيّال ركوبه ، وهو أبطأ منها على المسافات القصيرة. لكن له قدرة على الاحتمال لا تصدق ، حيث أنه قادر على قطع ثمانين كيلو متراً دفعة واحدة رغم قلة غذائه ، ومستعد لمعاودة الكرّة في اليوم التالي .

وكم حقق فرسان افريقيون الانتصار في حلبات السباق في عهد الامبراطورية الرومانية . كما لحق الفارس النوميدي بجيوش قرطاجة وجيوش الرومان في جميع انحاء العالم القديم وهو يمتطي صهوة هذا الجواد المغربي ، وقد تحدث المؤرخون عنه منذ أقدم عصور التاريخ . وذكره هيرودوتس . ولم يكن ركوبه معروفاً قبل الحروب البونية ، وانما كان يستعمل فقط في جر العربات الحربية .

انه حصان عريق في سلالته ، له شخصية فريدة متلائمة وطبيعـــة البلاد ، بحيث يمكننا الاعتقاد بأنه أصيل فيها أباً عن جد . وليس بوسعنا تصور افريقية بدونه . ويرى غيزل – رغم كل ذلك – انه ليس سوى مستوطن .

ذاك أن عظام الحصان لم يعثر عليها إلاّ في الطبقات العليـــا من الرسوبيات القديمة إلى جانب عظام الكلب . ولم تقع العين على أثر للحصان الافريقي في أقدم الرسوبيات النيوليتية والحجرية . الأمر الذي يعطي الجواب الحـــاسم على تساؤلاتنا عن أصله ، ضمن حدود مداركنا الحالية بالطبع .

وللمؤرخين كذلك الحق بإبداء الرأي ، وإذا كنا لا نشاء اللجوء للمؤرخين المغاربة نظراً لاعتمادهم الوثائق الجديـــدة ، فلا يمكننا الاستغناء عن المؤرخين المصريين . ولا يذكر هؤلاء شيئاً عن الحصان المغربي قبل عهـــد الامبراطورية الجديدة . ويرى ماسبيرو أنه قـــد دخل البلاد مع الغزو الهكسوسي الكبير للبلدان الآسيوية – على أنه ظهر في الأبنية الأثرية القديمة منذ القرن السادس عشر قبل المسيح . وانطلاقاً من مصر بدأ الحصان بالانتشار في أمصار المغرب . وقد ظهرت القبائل الليبية المجاورة لمصر في القرنين الثالث عشر والثاني عشر في عهد منفتاح ورعمسيس الثالث – ظهرت في النقوش الهيروغليفية مع خيولها الضعيفة . وقد علـّق روجيه على ذلك بقوله : « لعلّ الجيـــاد لم تكن كبيرة العدد على الشواطىء الافريقية . »

ويعطي علماء الحيوان إجابة تتفق وهـــذا الرأي ، حيث يشيرون لوجود سلالة من الجياد في مصر العليا ببلاد النوبة ، تشبه فرس المغرب ، هي جياد دنقلة . ويلاحظون الخطوط المتعرجة في قوائمها ويجدون لهـــا قرابة مع الحمر الوحشية الافريقية والخيول الداجنة المستوردة من آسيـــا ومصر . كل ذلك يقودنا لاستنتاجات دقيقة . فأصل فرس المغرب منتظم جداً ، حيث أن سلالتها نشأت في القرن السادس عشر قبل المسيح في بلاد النوبة عن أبوين هما الحصان الافريقي من جهة والحمار الوحشي من جهة ثانية .

على انه استنتاج طريف قد يكون خاطئاً . وهناك مجالات أخرى للتأويل لا سيما وأنه قد تمّ العثور في بلاد الطوارق على نقوش صخرية تمثـــل الخيول ، وهنا يمكن الظن بأن الحصان قدم إلى المغرب من السودان .

على أن هناك حيواناً آخر على جانب عظيم من الأهمية ، هاجر إلى المغرب في وقت متأخر ، هو الجمل .

الجمـــل

يروي لنا التاريخ عن وصول الجمل متأخراً إلى بلاد المغرب . ونقول إنه تأخر بالعودة اليه . فجميع علماء المتحجرات متفقون على تأكيـــد وجود جمال منذ العصر التاريخي الرابع لوجود هياكلها العظمية على طول البلاد بين نوميديا وموريتانيا .

ومن المتفق عليه أن هذه الجمال الحجرية كانت متوحشة تعيش طليقة كالظباء في تلك العصور الغابرة .

ولو راجعنا ما قاله هيرودوتس لألفيناه يتحدث عن أناس يعيشون في برقة وسط الصحراء يتقنون قيادة العربات التي تجرها الجيـــاد الأربعة ، هؤلاء القوم هم الليبيون . وعلى شواطىء بحيرة تريتون أي في منطقة سرت كان الأهالي في عيد الآلهة يستعرضون فتيات يرتدين الخوذة ويقدن العربات. وكان الجرمنتيون وهم سكان الصحراء الفزانيـــة يطاردون الأثيوبيين سكان الكهوف على عربات تجرها الجياد الأربعة . وكانت النساء في جنوبي تونس يرافقن رجالهن إلى المعارك ليقدن العربات الحربية . وتؤكد النقوش التي عثر عليها في وادي الجراد صحة ما أتى به هيرودوتس .

ويذكر لنا هيرودوتس قصة خمسة مغامرين ينتمون لقبيلة ناسامون المعروفة في طرابلس القديمة . وهي قصة أوّل عملية استكشاف عبر الصحراء . توغّل الناسامون بعيداً في الصحراء حتى بلغوا نهراً تكاثر فيه التماسيح وتحيط بضفتيه

الأشجار على الجانبين ، وحوله تعيش قبيلة من الأقزام . إن قصة كهذه لا يمكن تصديقها إلاّ في صحراء لا أثر للإبل فيها ولا يعرفها حتى الصحراويون أنفسهم .

وينتقل هيرودوتس لتعـداد الحيوانات التي كانت تعيش في ليبيا بين برية وأليفة ، وهو تعداد دقيق في مجمله شأن كلّ ما أتى به هيرودوتس واستطعنا التحقق منه .

فقد ذكر التماسيح البرية الضخمة التي تحدث موباسان في قصته « تحت الشمس » عن صراعها مع الأفعى ذات الأجراس، وذكر الحيات التي تحمل قروناً في رأسها ، والثعالب الصغيرة ذات الآذان الطويلة ، والنعامات وأبناء آوى ، والظبا والجرذان ذات القائمتين وفئران التلال . كما ذكر البقر والغنم والماعز والخيل . ولكنه لم يذكر الجمال الافريقية أبداً .

ونحن نعرف عن الحروب البونية الشيء الكثير ، فهي التي كانت وراء عظمة روما وسيطرتها على الغرب ،وهي التي شكلت منعطفاً كبيراً في التاريخ . ولطالما تشوق الناس لأخبارها وأسهبوا في الحديث عنها ، وأشبعها المؤرخون الكبار من أمثال تيت ليف وبوليت درساً وتمحيصاً .

وفي مجمل الكتابات لم يـأت أحد على ذكر الجمـل مطلقاً ، رغم تردد اسم الفيل القرطاجي . وإغفال ذكر الجمل يشكل وحده دليلاً .

وعن حرب جوغرتا وصلنا كتاب وضعه المؤرخ سـالوست المعروف بسعة اطلاعه على شؤون المنطقة لكونه والياً على المقاطعة الافريقية . ولم يورد سالوست اسم الجمل . وقد ذكر الحصان والفرسان في حديثه عن استيـلاء ماريوس على غفصة ، ووصف المنطقة بأنها قاحلة جرداء وقـال إن ماريوس أمر جيشه من مشاة وفرسان بإلقاء جميع الأمتعة والاكتفاء بقرب المـاء . واضح إذن أن ماريوس لم يستخدم الجمال ، كذلك لم يذكر سالوست شيئاً عن استخدام جوغرتا لها . وإمساكه عن ذكر الجمل في هذه المعركة دليل واضح ايضاً .

غير انه يشير اليه في مكان آخر من كتابه حيث ذكر أن الجيش الروماني استخدم الجمل لأول مرّة في معركة ريندا كس التي خاضهـا لوكولوس ضد مثريدات . لكن بلوتارك الذي نقل الخبر عن سالوست يعجب كثيراً لأن المؤرخ أغفل ذكر الجمل في المعارك التي جرت ضد انطيوخوس وارخيلاوس في ارخومين وشيرونيا .

وهكذا كان تاريخ بدء استخدام الجيش الروماني للجمل موضع أخذ ورد في روما وفي بلاد اليونان ، ولكن لا خلاف على المكان الذي وجد فيه . فقد تعرفوا على الجمل في آسيا بل في الشرق خلال حربهـم ضد انطيوخوس أو مثريدات . ولا مجـال لافتراض آخر في هذا المجال . ولم يعرف الجمـل في افريقية إذن .

يضاف إلى ذلك رأي بلين القاطع حيث يقول: الجمال مصدرها الشرق وهي على نوعين : الجمل العربي والجمل ذو السنامين . ولا يغربن عن بالنا أن بلين نفسه المعروف بروحه العلمية هو الذي يؤكد الأمر ، ثم إنه زار افريقية بنفسه .

وهنا يمكننا استنتاج حقيقة لا يرقى الشك اليها : لم تعرف افريقية القرطاجية الجمل ، وكذلك لم يعرفه الرومان في أول عهدهم . ولم يظهر الجمل إلاّ في بداية العصر المسيحي وبصورة نادرة ايضاً .

وقد ورد أول ذكر له في النصوص الافريقيـة في تعليق لقيصر عن الحرب الأهلية . بعـد معركة تبسوس استولى القيصر على اثنين وعشرين جملاً . وهو رقم يثير الانتباه بدقته ، فالقصة لا تلمح لوجود جهاز كامل للنقل . ثم إن جوبا الذي انتصر عليـه القيصر في معركة تبسوس لم يكن ملكاً بمعنى الكلمة ، بل كان أقرب لرجل مثقف يعنى بشؤون العلم واقتناء الأشياء النادرة . ولعلّ هذه الجمال من مقتنياته الشخصية .

وبوسعنا أن نستنتج أن الجمل في عهد الجمهورية لم يكن سوى حيوان تحت

التجربة وليس معروفاً حق المعرفة .

ثم تغيّرت الحال مع الوقت ، ولكن ببطء شديد ، إذ بقي ذكر الإبل نادراً طيلة القرون الثلاثة الأولى للحكم الروماني . وفي متحف العلوي يوجد تمثال من الطين يمثل رجلاً على ظهر جمل ، يظن أنه يعود الى القرن الثاني بعد المسيح وقد عثر عليه في سوسه من أعمال تونس . ولكن لا يعرف الأصل المتوسطي الذي أخذ عنه هذا التمثال .

وفي نهاية القرن الثالث ، ذكر أرنوب الافريقي الجمل ذكر عارف . وتحدث عن ضرورة اناخته لإلقاء الحمل عليه .

ولم تتغير حال الإبل كلياً قبل القرن الرابع الميلادي وتقهقر الامبراطورية الرومانية . ففي سنة ٣٦٣ طلب الجنرال رومانوس الى سكان لبدة تأمين أربعة آلاف جمل لنقل المؤن لجيشه كما روى مارسيلان . وجرى له ما أراد . فقد استطاع القائد الروماني بكل بساطة أن يفرض جزية قدرها أربعة آلاف جمل . ومنذ القرن الرابع أصبح الجمل جزءاً من مواشي افريقية ، في المنطقة الطرابلسية على الأقل . وقد أكد المؤرخون البيزنطيون الذين تحدثوا عن افريقية هذه الحقيقة الواضحة .

ويروي بروكوب تفاصيل معركة جرت بين الونداليين ومغاربة طرابلس ويصف لنا الاستحكامات التي أقامها الطرابلسيون وطريقة تنظيم جيشهم على شكل شبه دائري ووضعهم اثنتي عشرة فرقة من الجمال في الخنادق مع إحلال النساء والأولاد في الوسط ، في حين وقف المحاربون بين قوائم الجمال . وانهزم الونداليون في المعركة لأنهم جيش من الفرسان ، والخيل تخشى الإبل كثيراً.

ثم يروي بروكوب قصة معركة أخرى على النحو نفسه ، جرت في ضواحي تونس بين المغاربة والجيش البيزنطي ، واتخذ المغاربة هذه المرة أيضاً استحكاماتهم بين قوائم الجمال ، ودبّ الذعر في قلوب الجياد البيزنطية فراحت تتقهقر وتتعثر ملقية بفرسانها على الأرض ، غير أن سليمان القائد البيزنطي شكل

على عجل فرقة من المشاة واستطاع أن يخترق الحصن الذي أقامته الإبل .

وهناك مصدر آخر إلى جانب بروكوب يحدثنا عن افريقية في عهد البيزنطيين هو الشاعر اللاتيني كوريبوس مؤلف ملحمة الجوهانية ويحدثنا هذا أيضاً عن مهارة المغاربة في استخدام الجمل في القتال ، غير أنه يذكر كيف أن جوهان حذا حذو سليمان أثناء المعركة وشكل جيشاً من المشاة اخترق صفوفهم. ويصف كوريبوس جملاً عقره جوهان وسقط على اثنين من المغاربة فسحقهما .

ويذكر ابن خلدون شيئاً يشابه ذلك حين يحدثنا عن فنون القتال عند العرب ، ومعظم البدو الرحل الذين يلجأون لطريقة الكر والفر ويقول إنهم يكوّنون جبهة من الإبل للقتال ويضعون نساءهم على الحيوانات الأخرى . وانتقد ابن خلدون قادة عصره لأنهم اعتمدوا جيش المؤخرة وأغفلوا جبهة الإبل .

ولا أدري اذا كان قد خفي على الانتباه هذا التشابه بين ما أورده ابن خلدون وما أتى به الكتّاب البيزنطيون . لأنني لم أصادف شيئاً بهذا الخصوص . وهذا ما يؤكد وجود هذا الأسلوب الحربي في افريقية واستمراره منذ عهد جوستينيان أي قبل قرن من ظهور الإسلام حتى القرن الخامس عشر . ويمكن القول إن هذه العادة لا تزال حتى اليوم أي في عهد البندقية حيث تلجأ القافلة المهاجمة لرص جمالها والوقوف خلفها لإطلاق النار . وهي طريقة تمليها طبيعة الجمل الهادئة ، وجسده الضخم .

ونشير هنا إلى أن وجود النساء ضروري في المعركة ولهذا يؤمن لهن المكان المناسب ، ذاك لأنهن يشتركن في المعركة حيث يحفرن الخنادق ويعنين بالجياد . ويرى ابن خلدون أن العرب في عصر الانحطاط بدأوا يتركون نساءهم في البيوت ، وهذا ما حدّ من قدرتهم على القتال ، لأن المعركة في غياب النساء

والأطفال لا تتحوّل لمعركة حياة أو موت يستميت المحاربون فيهـــا من أجل عائلاتهم وأرزاقهم .

طريقة انتقال الجميع لأرض المعركة هي الاسلوب الذي ساد إذن بلادالمغرب بجوار قرطاجة منذ عهد الونداليين والبيزنطيين .

ويسهب كوريبوس في وصف معارك الإبل هذه ، ولشدّ ما يصبح مشوقاً حين يصف المرأة البدوية عندما تقع مع بعيرها بين أيدي الأعداء ، فيطفهـــا هؤلاء حتى الموت ويقتلون أولادها فيخرون جميعاً صرعى تتدحرج أمتعتهم فوق رؤوسهم .

ويصف كوريبوس دخول الأسيرات الى قرطاجة ، حيث يتجمهر الناس لمشاهدتهن وهن يرضعن أبناءهن فوق الهودج .

وهناك نصوص عديدة تؤكد هذه الأخبار جرى جمعها في القرن السابع عشر (بوشار ، الجغرافيا المقدسة ١٦٤٦)

وينطلق بارت في مقدمة رحلته من حقيقة واضحة هي أن القرطاجيين لم يعرفوا الجمل .

وقد أغفلنا في الصفحات السابقة ذكر المصـــادر ، إذ تكفي العودة لغيزل في كتابه التاريخ القديم لإفريقية الشمالية لنطلع على جميع المصـــادر المتعلقة بوجود الجمل في عصر ما قبل التاريخ .

في أحد الافلام السينمائية المأخوذة عن دانتزيو في قصته كابيريا تدور المشكلة حول قرطاجة والحروب البونية . ويولي الفيلم دوراً مهماً للجمل ويصور صفاقس محارباً على ظهره . والكاتب كما هو معروف شـــاعر وليس مؤرخاً . وجرى تصوير الفيلم في المنطقة الطرابلسية في جوّ لا يسهل فيه الاستغناء عن الإبل . ثم إن السينما لا تتقيد كثيراً بتصوير الحقـــائق كما هي . وإنني لأعجب كيف أن ملايين الناس شاهدوا الفيلم ولم يستهجن الخطأ التاريخي في استخدام الجمل ، وكأنني

بالمخرج يصور الجيش الروماني وهو يستخدم المدافع .

وفي رواية سالامبو لجوستاف فلوبير نعثر على خطأ تاريخي من هذا النوع ، ذلك لأن فلوبير كاتب روائي لا يعنى بجذافير التاريخ .

أما السيد رينيه باسيه أستاذ الأدب بجامعة الجزائر فهو مستعرب معروف واختصاصي باللغة البربرية . ويقول باسيه ان البربر يطلقون على الجمل اسمـــاً شبيهاً بالاسم العربي . ويذهب الى أبعد من ذلك حين يؤكد أنهم لم يعرفوا الجمل قبل قدوم المسلمين من المشرق . وقد أورد براهين لإثبـات ذلك لا تمت بصـلة مبـاشرة للموضوع حيث ذكر سالوست وبلين وبلوتـارك وفارون وفكتور دي فيتا . غير أن استاذنا هذا ليس متخصصاً بالتاريخ البيزنطي .

ولسنا هنا بصدد توجيه النقد اليه شخصياً . خاصـة وانه تحدث في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين الذي عقد في الجزائر ولم يعترض عليه أحد ، ولعلّ الجميع قد شاطروه هذا الخطأ التاريخي الذي وقع فيه .

النقوش الصخرية

لا حاجة لنا لنكرر من جديد أن النقوش الصخرية من شأنهـــا أن تعزز النصوص . وقد عثر في جبـــال الأطلس على نقوش تمثل الفيل والجمل . لكن الرسوم مختلفة إلى حدّ لا يمكن اعتبارها منتمية لعصر واحد . لكنها إنما نقشت معاً على فترات متفاوتة بحكم تقليد الزوار بعضهم لبعض ، ثم إن هناك اختلافاً كبيراً في حجم كل من الفيلة والجمال المنقوشة إذ يبلغ طول الفيل المتر الواحد وقد صنع باتقـان ، في حين لا يزيد الجمل على عشر هذا الطول وبخطوط غير واضحة أو مفصلة . وليس ثمة تقارب بين رسم كل من الفيل والجمل أوبالعكس بحيث لا يمكننا ان ننسبها لرسام واحد .

وهناك اختلاف ايضاً بين الرسوم الجانبية التي نقشت على الصخور ... إذ

يشاهد إلى جانب الحيوان المنقرض ذي القرون الطويلة ، وإذا ظهر إلى جانبه إنسان فلابدّ وأن يكون عارياً أومرتدياً خفيف اللباس وبيده الفأس النيوليتية . أما الإنسان الذي ظهر الى جانب الجمل فواضح المعالم تاريخياً ، يحمل ترساً مستديراً ورمحين شاع استعمالها لدى البربر في العصر الروماني والبيزنطي . كما تبدو مع الجمل أشكال الكتابة الليبية .

وهناك اتفاق في مجال الدراسات الأثنولوجية على تصنيف الفيل بين النقوش الصخرية بحد ذاتها . في حين يصنف الجمل مع الصور الليبية البربرية .

وهكذا يمكننا التفريق بين كل من الصورتين المختلفتين .

وطبيعي ان الاتقان في رسم الفيل ظاهرة تدل على العبادة الدينية . ولا يمكن أخذ الاعتقاد نفسه بالنسبة للجمل . فمن البديهي ان رسومه من وضع عابري السبيل .

ويمكن للزائر الأوروبي أن يطلع بنفسه على صعوبة النقش في الحجارة ، فهو إذا استخدم سكينه العادي ، فلن يفعل فعله في الصخر ، وعليه أن يستخدم آلات خاصة لنحته ، ليعطي آنئذ نتيجة تختلف كل الاختلاف عن الرسوم الموجودة .

في حين تسهل العملية كثيراً لو أخذنا حصاة صغيرة مسننة ، فهي في الصخر أمضى من السكين .

بإمكان عابر السبيل إذن أن يأخذ قطعة من الصوان ويرسم بسهولة صورة مشابهة للرسوم الليبية البربرية . ولكن أنّى لشخص كهذا أن ينقش حيواناً بمثل الاتقان الذي نقش به الفيل . إذ يحتاج ذلك لأدوات مختلفة ، كما يحتاج لمهارة يدوية وقوة مراس ، أي على المرء أن يكون نيوليتياً ليستطيع نقش صورة بمثل الاتقان الذي صنعت به صورة الفيل .

فبين رسم الفيل ورسم الجمل تضارب حضارتين، حضارة الحجر وحضارة المعدن. وهناك أيضاً تضارب جنسين: الجنس البربري والجنس الليبي من جهة، والجنس الزنجي من جهة أخرى . وقد رأينا أن نقوش وادي الجراد تؤكد هذا الافتراض .

مصر

إليك واقعتين لا جدال فيها : لم يعش الفيل المتوحش — الذي كان يعيش في شمال إفريقيا — بعد قرطاجة أبداً ، ولم يعرف المغرب الجمل الأليف إلاّ في عصر انهيار الامبراطورية الرومانية زمن السيطرة البيزنطية . وبين الجمل والفيل فاصل مداه ثلاثة قرون كاملة ، أي طيلة عهد الامبراطورية الرومانية .

وثلاثة قرون ليست بالفترة اليسيرة في عمر الأفراد فهي تتسع لعشرة أجيال وأكثر .

ولكن كيف عبرَ الجمل تدريجياً أرض المغرب طيلة هذه القرون ؟ ليست الإجابة على ذلك يسيرة لأن النصوص لاتحمل أي رد ، غير انه بوسعنا التوصل لترجيح جواب من خلال الوقائع التاريخية المهمة .

فمسألة الجمل المصري مثلا واضحة بإجماع الاختصاصيين بالشؤون المصرية . فمصر الفرعونية والهيروغليفية لم تعرف الجمل أبداً ، بدليل ان مصر القديمة التي اعتمدت صور الحيوانات أساساً لعبادتها لم تترك شيئاً يدل على وجود الجمل .

وقد ظهر الجمل في الفن والأدب المصري منذ الغزو الأشوري والفارسي خاصة ، لأن الفرس قضوا نهائياً على استقلال مصر . وبعد تلك الفترة أي في العهد اليوناني والروماني في مصر دخل الجمل في قائمة الحيوانات

المعروفة فيها .

يعني ذلك ان مصر لم تعرف الجمل في عهد استقلالها . وهذا امر طبيعي جداً لأن بلاد الفرعونيين لم تعرف حياة البداوة وتاريخها يتميز بالاستقرار والحياة الحضرية ، والإبل كما نعلم ترافق القبائل الرحالة .

ثم جاء اليوم الذي أصبحت فيه مصر اقليماً من أقاليم الامبراطورية الآسيوية الكبرى ، فدخل الجمل اليها مع الغزاة الأجانب . قبل ذلك الحين كان حوض النيل يشكل حاجزاً كثيفاً يفصل بين جزيرة العرب وبلاد المغرب .

سبتيموس سفيروس

وقد لزم ألف سنة لوصول الجمل الى المغرب بعد اختراق هذا الحاجز المصري .

فتح قمبيز مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ويفصل بينه وبين جوستينيان نحو قرون عشرة .

ولا يغربن عن البال قضية التأقلم . فقد لزم النعامة مثلاً وقت طويل قبل تأقلمها في الوسط المغربي .

أما بالنسبة لسبتيموس سفيروس ، فيعرف عنه حبه لافريقية وتعلقها به . وغني عن البيان أن المكان الذي يقيم فيه الرئيس يحظى دائماً بعطف السلطة ويحصل على العديد من المكاسب . وكان سفيروس مقيماً في لبدة .

وفي عهده كانت المدينة تعج بالناس الذين يمتون له بصلة القرابة والزمالة في عهد الدراسة . وكان هؤلاء يلعبون معه بالطبع في أزقة لبدة حين كان طالباً . كما رافقه هؤلاء إلى روما بعد أن أصبح امبراطوراً ذا حول وطول وظلوا قريبين منه قدر الإمكان .

وموقع لبدة في أسهل نقطة للاتصال بين السودان والأبيض المتوسط . ومن المرجح أن يكون هذا الاتصال قد بدأ منذ عهد قرطاجة ثم في زمن الرومان وذلك عن طريق غدامس وجرمة ومرزق . ومن الطبيعي أن يكون سكان مدينة كهذه منصرفين لأعمال التجارة عبر الصحراء . وقضية ترويض الجمال على حياة الصحراء ، عظيمة الفائدة بالنسبة اليهم. وحانت الفرصة لذلك حين أصبح أحد ابنائهم امبراطوراً .

على كل حال ، توفي سبتيموس سفيروس عام ٢٠١ . بعدها بقرن ونصف القرن كتب آميان مارسيلان أنه قد تمت مصادرة أربعة آلاف جمل من لبدة . ويبدو أنها حقيقة لا أثر للمغالطة فيها .

روما

وروما هي التي أقلمت الجمل في بلاد المغرب ، وليس هذا محض افتراض وإنما حقيقة تاريخية ثابتة ، فالجمل عربي الأصل يرجع إلى شبه الجزيرة . فهناك ذكره المؤرخون الأول أوّل ما ذكروه . حيث كان مرتبطاً بحياة البدو الذين روّضوه . ويومى إلى الجمل في جميع اللغات المتوسطية بكلمة أصلها عربي ، الأمر الذي يدل على أن العرب هم الذين أدخلوه لبلاد المغرب حين فتحوها .

لكن هذا الرأي قابل للأخذ والرد ، إذ كيف للبدو الرحل أن يحملوا ظاهرة حضارية إلى البلدان الأخرى . أو لم يقل فيهم ابن خلدون الذي يحبهم إنهم يهدمون بيتاً بكامله ليستخرجوا حجراً لموقدهم ؟ كما يرى رينان من جهته أن الساميين يرفضون فكرة الدولة .

وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين وصقلية وبلاد الأندلس تحت الحكم العربي ، رغم بداوتهم ؟ وكذلك كيف لهم وهم الرحل أن يأتوا إلى بلاد المغرب بحيوان مفيد كالجمل ؟ فلو فعلت روما ذلك لما بدا الأمر

مستغرباً نظراً لطبيعة الاستقرار التي تميز شعبها .

غير ان الجمل قد بلغ بلاد المغرب في نهاية الامبراطورية الرومانية ، انها حقيقة واقعة مهما بدت مستغربة ولكن من المستغرب حقاً أن احداً لم ينتبه لها .

ويعتبر تدجين الجمل بمثابة رفع الحصار عن منطقة تعزلها الصحراء والأراضي الوعرة . فما من حيوان غـيره يستطيع ان يقطع البراري والقفـار . لقد قصر المسافات وضغط حجم الصحراء . وبعث ثورة اقتصادية أشبه نسبياً بتلك التي رافقت ظهور السكة الحديدية والسيارة والطائرة .

وقد شاءت الامبراطورية الرومانية ان تخلق ثورة مثل هذه الثورة . ونجم عنها عن غير قصد هزات اجتماعية وسياسية خطيرة . فالجمل حيوان لا يعيش بدون صاحبه ، وصاحبه بدوي رحالة ينتمي لقبيلة لا تدري متى تهاجم أو متى تنقض . فهي آلة للحرب خطيرة . ذلك ان البدو الذين ألفوا حياة القساوة في الصحراء يقبلون بنهم على مطامعهم وملذاتهـم ويستخدمون الجمل للغـزو والاستيلاء على الغنائم .

تلك هي الظاهرة الجديدة التي رافقت قدوم الجمل ولم تكن روما لتحسب لها حساباً . الأمر الذي أدى لتغيير واسع في النظام الاجتماعي والسياسي المستقر .

لقد عرفت افريقية عهدها الذهبي زمن الرومان ، فازداد عدد سكانها وانتعشت اقتصادياً ، وأضافت روما لمآثرها الأخرى ادخال الجمل الى البلاد . ولكن مجيئه كان سبباً في القضاء على الامبراطورية اللاتينية في الربوع الافريقية . وقامت على انقاضها دول المسلمين .

ومهما يكن من أمر هـــذه الاعتبارات ، فمن البديهي بالنسبة الينا وجود مغربين ، مغرب ما قبل الجمل ومغرب ما بعده .

يساعدنا ايضاح هذه الفكرة على فهم حقيقـة المغرب بعد قدوم الجمل في العصر الوسيط الأول .

الحدود الجبلية

كان لافريقية في عهد الرومان وقبل قدوم الجمل اليها حدود جنوبية مميزة . وقد استطاع علماء الآثار اعادة تخطيطهـا بدقة كبيرة . حيث كانت تقع على شاطىء الأوراس الجنوبي وتضمّ بسكره مروراً بهدنة وتمضي بمحاذاة التل الجنوبي قاطعة بوغاري وتاهرت وتلمسان .

ولنشر إلى انها كانت حدوداً طبيعية واضحة ودائمة ، حدوداً أورغرافيـة لجغرافيا طبيعية . وتمتد من ناحيـة الشمال نحو البحر بلاد مختلطة تختنق سهولها وسط المنعرجات الجبلية . وتنتهي إلى جـدار جبلي متجه نحو الجنوب . وفي جنوبي هذه السلسلة سهول رحبة على مدّ النظر ، حتى ليخيّل للرائي انـه أصبح في عالم آخر .

ولنشر ايضاً إلى أنها حدود مناخية أيضاً ، وحتى في المناطق القاحلة في الشمال تظل الزراعة ممكنة والتجمعات البشرية متوفرة .

وعلى مرور الأزمان تراكمت الأضرحة التي تعود لعهد ما قبـل الإسلام . ويختلف طراز القبور في الشمال اختلاف المنطقة نفسها . غير أن معظمهـا يحمل طابع المقابر القديمة . أما في الجنوب فالقبور أقل اتقاناً وهي من نوع « الرجم » أي أكوام الحصى . وتجدها مبعثرة هنا وهناك بلا نظام .

ولا تزال سلسلة الجبال هذه تشكل فاصلاً بشرياً بين شعبين لا يعرفان لغة واحدة . في الشمال يتجمع الناس الذين يتحدثون البربرية ، في حين لا تجـد في الجنوب سوى اللغة العربية .

واقتصار السيطرة الرومانية على هذه الحدود ظاهرة لا تحتاج أبداً للتفسير .

ثم إن سلسلة الجبال هـــذه ليست حدوداً تفصل بين دولتين . فإذا كانت الامبراطورية الرومانية تقع من ناحية ، فلم يكن في الناحية المقابلة سوى أماكن منعزلة وحقول للصيد ، وصنعت روما فيها بعض المخافر العسكرية للمراقبة ومنها مخفر مسعد المعروف .

وقد وضع السيد كركوبينو دراسة موجزة قيّمة عن الحدود الجبلية ومحاولة الرومان في عهد سبتيموس سفيروس توسيع رقعتها انطلاقاً من مخفر مسعد . في تلك الفترة حلّت فرقة النبّالين السوريين محلّ الكتيبة الرومانية الثالثة لأنها أكثر قدرة منها على حرب المناطق الوعرة . لكنها محاولة باءت بالفشل وظلت مناطق ما وراء الحدود على حالها .

أما في وقتنا الحاضر فليس بإمكان أي جهاز عسكري حماية التل ، فقد أصبحت الحماية أمراً بعيد المنال بعد الامبراطورية .

وحين أعاد البيزنطيون تنظيم افريقية اللاتينية ، حاولوا بدورهم أن يخلقوا حدوداً مماثلة لكنهم عجزوا عن ذلك على طول السلسلة الجبلية ونجحوا عند طرفي السلسلة في كل من نوميديا وشرشل .

ويبدو تقلص الجيش البيزنطي طبيعياً بالنسبة الينا ، كما أن التاريخ تحدث باحتقار عنه مثلما احتقر كل شيء بيزنطي . ولعل تاريخنا مجحف في ذلك ، لأن المؤرخين العرب تحدثوا عن هذا الجيش باحترام ، شأن الحديث عن خصم مهيب الجانب . لا سيما وأن البيزنطيين صمدوا في وجه العرب في آسيا الصغرى حين كان هؤلاء في أوج قوتهم .

والجيش البيزنطي يختلف عن الجيش الروماني ، لأنه يعتمد الفرسان المزودين بالنبال والرماح ، وقد ألف الحروب في الوعور والصحارى في صراعه الطويل مع الفرس ، وهي تجربة لا يستهان بها بالنسبة لمعارك المغرب في القرن السادس .

وقد ذكر بروكوب وكوريبوس أنه كان على الجيش البيزنطي الوقوف في وجه الجمالين البدو ، الأمر الذي لم يواجهه جيش الرومان .

ومهما يكن من أمر هذا الجيش فقد كان عليه أن يواجه عدواً جديداً لم يكن معروفاً من قبل . ولا قدرة له عليه في حرب الاراضي الوعرة حيث يحلّي الجمل ويكون سيّد الموقف .

فليس غريباً إذن أن تتمزق الحدود الجبلية بتأثير الدفع القادم من الجنوب من المنطقة الوعرة .

٤ - ما ذكره المؤرخون العرب عن قدوم الجمالين البدو الكبار، أي البتر والزناتة

زناتة والبربر الآخرون .
البتر والبرانس .

لم يشر أي كاتب معاصر لهذا التحوّل العظيم الذي حدث في المغرب . وإن ذكر القدماء لماماً ، بعض الشيء عنه . على أن جميع الباحثين متفقون على تأخر ظهور الجمال في هذه البلاد ، وهي ظاهرة اساسية تنبع منها وقائع كثيرة . وكان من الممكن أن نعود الى المؤلفات العربية بهذا الصدد لكنها تحتاج للتأويل وهذا ما لم يقدم عليه أحـد . وهكذا نرى أننا وحدنا على هـذه الدرب الخطرة . وخليق بنا أن نلفت الانتباه لذاك التشابه بين النصوص القديمة الذي أغفله الباحثون .

حين وضع العرب أيديهم على بلاد المغرب بدأوا ينظرون اليه نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرة الغربيين .

واختفت تسميته الأولى (أي افريقيـــة) وظهر اسم المغرب أي الغرب بالنسبة للشرقيين . واختفى ايضـاً اسم الليبيين وظهر اسم البربر لأوّل مرّة بمعناه الذي نعرفه اليوم. ولعلّ العرب استعاروا التسمية اللاتينية كما يرى غيزل.

ورأيه في هـــذا المجال ليس نهائياً . غير انه من الواضح أن العرب قد أطلقوا على الليبيين اسم البربر في فجر الفتح الإسلامي . لكنها محض تسمية ليس لهـا أهمية كبرى ، وإنما ظهرت مـع الفتح العربي اشكال جديدة لم تكن معروفة من قبل .

يقسم اللاتين البلاد الافريقية لمقاطعات وأراض . فالمقاطعة الافريقية بحد ذاتهـا اطلقت على الأرض التي قامت عليهـــا قرطاجة . أما نوميديا فتضم الأوراس والوديان العالية في شماليه . وموريتانيا هي منطقة القبائل ومنطقة وهران .

واختفت معظم هذه الأسماء بعد قدوم العرب وزوال الرومان ، لأن العرب لا يعيرون اهتماماً للتقاسيم الجغرافية بقدر ما يهتمون بتعدد القبائل .

غير أن المؤرخين العرب قد تركوا لنا إرثاً ضخماً من اسماء القبائل البربرية التي عاشت في بلاد المغرب ، واذا كان اللاتين قد أوردوا بعض الأسماء فجميعما جاؤوا به موجود في المراجع العربية .

ومهما يكن من أمر الفوضى المعروفة لدى الكتاب العرب الأقدمين فإن القبائل التي ذكروها تساعدنا على إيجاد رسم بياني للقبائل في جميـع بلدان المغرب .

وغني عن البيان أن ابن خلدون وحده بين المؤرخين العرب هو الذي وضع تاريخاً للبربر . وقد كتب عنهم في القرن الرابع عشر ، وأسهب في الكلام على القبائل التي عاصرته وراقبها عن كثب .

على أن حديثه عن القبائل الأخرى التي تهمنا على جانب كبير من الأهمية لاسيما ما جاء به عن زناتة القبيلة البربرية الكبرى .

قبائل زناتة بشكل عام

في ترجمـــة سلان ورد عن ابن خلدون انه قسم كتابه « تاريخ البربر » إلى قسمين : واحد يتعلق بالبربر الأصليين وآخر يتحدث فيه عن الزناتة ، وكأن هذه القبيلة ليست من البربر .

وينبغي هنا ألا ننسى الفترة الزمنية التى كتب فيها ابن خلدون . ففى نهاية القرن الرابع عشر كانت أهم الأسر الحاكمة في المغرب من الزناتيين كالمرينيين في فاس وبني عبد الواحد في تلمسان . وهما الأسرتان اللتان عمـل ابن خلدون في خدمتها في مستهل حياته . ولم يكن الزناتيون، بعد أن وصلوا الى درجة كبرى من الأهمية ، راغبين في التشبه بسائر البربر ابناء بجدتهم .

غير أن ابن خلدون ليس متشبثاً كما رأينا بتأييدهم وقـد فرّ منهم ليعمل في خدمة الحفصيين بتونس حيث وضع كتابه عنهم .

ويقول ان الزناتيين كانوا أصحاب لغة مميزة تختلف عن سائر لغات البربر . بمعنى أن اللهجة الزناتية كانت مميزة عن اللهجات الأخرى . ولدينا دراسة للهجات البربرية بإشراف رينّيه باسيه لكنها ليست وافية مع الأسف بحيث نرى لزاماً علينا العودة الى العامل الجغرافي بغية الوصول الى حلّ حول هذه الناحية . لنستعرض على الخريطة المناطق الزناتية كما ذكرها ابن خلدون :

يقول المؤرخ العربي ان قبيلة زناتة كانت تقيم في بلدان النخيل ابتداء من غدامس وحتى السوس الأقصى ، ويمكن القول ان الزناتيين هم سكان القرى الواقعة في المناطق المشجرة من الصحراء .

واختفى الزناتيون اليوم كمجموعة قبلية كبرى . لأنهم لم يستطيعوا الاستمرار بعد انهيار عظمتهم تمشياً مع القاعـدة الثابتة في بلاد المغرب . لكنهم لم يزولوا

تماماً من الوجود وقد عثر على بعض آثارهم في المناطق المشجرة من الصحراء.

إذ ينتمي القصوريون في غرارة للبربر وهم يتحدثون البربرية ويدعون أنفسهم بالزناتيين .

ولا تزال اللهجات البربرية في الزاب وأورغلا تحمل اسم الزناتية . وتاريخ هاتين المنطقتين معروف حق المعرفة ، لأنهما كانتا الملجأ الأخير لما بقي من مملكة الزناتيين الزاهرة في تاهرت والتي سنتحدث عنها في ما بعد . ومن المؤكد أن الزناتيين قد أقاموا شمالي الصحراء الجزائرية في الأراضي الغنية بالنخيل .

ويتابع ابن خلدون كلامه قائلاً : في منطقة التل يشاهد الزناتيون في ضواحي طرابلس وسط سهول افريقية وفي جبل الأوراس . وهو قول مثبوت بدليل أن البربر لا يزالون حتى الآن يعيشون في جبل نفوسة بالمنطقة الطرابلسية وهم على صلة تاريخية بمملكة الزناتيين في تاهرت ، كما أنهم مع أهل الزاب يحافظون حتى الآن على رابط القرابة التي تثبتها المذهبية الدينية .

أما السهول الإفريقية فيعني بها جنوبي تونس ومنطقة الجريد التي طغى عليها الطابع العربي بعمق . أما في جنوبي الجريد فيقع جبل مطماطة ويعتبر ابن خلدون أن قبيلة المطماطة من الزناتة .

ويشير الى أن البربر المقيمين شرقي الأوراس يتكلمون لغة تختلف عن لغة المقيمين غربه وهؤلاء من « ولد ضنى » — ويرى أن جنة هو الاسم الأساسي للزناتة .

وكان الاوراس الشرقي إبان الفتح العربي موطن قبيلة جراوة التي كانت الكاهنة ملكتها . ويعتبر ابن خلدون أن الجراوة من الزناتيين . وفي شمالي الأوراس بمحاذاة سهول قسنطينة العالية ومنطقة التل ، يقع وادي الزناتة الذي لا يزال حتى اليوم يحمل اسم القبيلة الكبرى .

وليس الأوراس كله موطن زناتة على رأي مسكوراي اذ يستثني وسط

الجبل ومنطقة الوديان المقفلة أي وادي العبدي ووادي الأبيض .

ويضيف ابن خلدون ان معظم الزناتيين يقيمون في اواسط المغرب وكانوا من الكثرة بحيث سميت المنطقة باسمهم .

وفي مكان آخر يحدد صاحبنا ما يقصده بأواسط المغرب ويعني ذلك القسم من الجزائر الممتد من الملوية غرباً حتى منطقة القبائل والأوراس شرقاً أي مرتفعات الجزائر ووهران ووادي شلف .

هنالك كان مهد الزناتيين . واليوم أصبحت هذه المناطق عربية غير أنها لا تزال تحمل آثار القبيلة البربرية الشهيرة .

وجبل آمور الذي نعرفه اليوم ومنه يبدأ وادي شلف كان يحمل في السابق اسم جبل راشد ، ويعتبر ابن خلدون بني راشد من الزناتيين . ولهجة هؤلاء متشابهة مهما ابتعدت مناطقهم بعضها عن بعض . وإليك على كل حال ما جاء به م . ديستان عن اللهجة البربرية التي يتكلمونها في بني سنوس بجوار تلمسان : لقد فهموا بسهولة النصوص التي عرضها رينيه باسيه عن لهجات بني مناصر ، أما لهجة القبائل فلم يفهموها .

وعلينا ان نشير هنا الى أن جميع القبائل التي استوطنت في اواسط المغرب بما فيها مغراوة وبني يفرن تنتمي للزناتية . وأهم عاصمتين لمملكة الزناتيين هما تاهرت وتلمسان في قلب البلاد .

ثم توسع الزناتيون نحو الغرب وظهر بعض منهم في المغرب الأقصى أي في مراكش كما قال ابن خلدون .

فموقعهم الجغرافي واضح إذن لأنهم حلّوا في الصحراء الكبرى وفي جنوبي تونس وبجوار الأوراس وفي الهضاب العليا والسهول القريبة من الساحل ابتداء من نهر شلف .

وموقعهم الجغرافي هذا دليل كاف على كونهم من البدو . وهذا ما يؤكده ابن خلدون حين يقول : نلاحظ عند هـذه القبيلة كثيراً من العادات العربية ، حيث يعيش ابناؤها تحت الخيام ويعنون بتربية الماشية ويحسنون ركوب الخيل وينتقلون من مكان لآخر ، فيقضـون الصيف في التـل والشتاء في الصحراء ويطردون بالقوة أبناء البلاد المتحضرة ويرفضون الخضوع لحكومة منظمة . وهم بذلك يختلفون عن البربر سكان الجبال المستقرين .

ولم يعثر في الآثار على منقوشات للزناتيين. غير ان غيزل تحدث عن احد نقوشهم في منطقة شلف وذكر الزناتة وكأنها اشارة لشخص وليس لقبيلة. ولم يصلنا من الكتاب القدماء بمن فيهم البيزنطيون أي أخبار عنهم . فمن العجيب حقاً ان يكون التاريخ قد اغفل ذكر قبيلة كبرى كهذه . بيد انـه من المرجح أنها لم تكن جميعها بالقبيلة الطارئة وانها امتزجت بأهل البلاد لتكون بوتقة جديدة . وهو رأي يتفق وما ورد معنا في الفصل السابق .

والزناتيون هم بالفعل الجمّالون الكبـار الذين عرفهم المغرب . وهـذا ما يجعلهم متميزين عن سائر البربر ، حتى أنهم كانوا يقيمون في القرن الرابع عشر نوعاً من الوطن .

سبق لنا القول إن سكان الصحراء كانوا في عهد الرومان من السود فقط . ولم تكن أشجار النخيل معروفة في ذلك الوقت . أما نخيل وادي غير ، جنوبي بسكره ، والذي يشكل مورداً اقتصادياً هاماً في أيامنا هذه فكان خارج الحدود الجبلية . ولم يشر اليه أحد من المؤرخين القدامى وكذلك لم يعثر على شيء منه في الآثار الرومانية .

أما نخيل منطقة غرارة الذي لا يزال الزناتيون يعنون به حتى الآن فقـد أسهب المؤرخون العرب في الحديث عنه . زرعت أشجار النخيل لأول مرّة في غرارة ، على أثر هجرة الناس القادمين من الشرق في « عـام الفيل » وهي سنة مشهورة قبيل الاسلام .

ولا حاجة لي للعودة الى ما ذكرتـه في السابق من أن الصحراء الكبرى بسكانها البيض الرحل وبواحاتها ونخيلها وأساليب الري المتطورة فيهـا ، لم تتكون معالمها الحضارية تدريجياً في العصر الوسيط وحتى في العصور الحديثة إلا مع ظهور الجمل الذي ساعد على ارتياد الصحراء واستغلالها اقتصادياً .

وقد حصل هذا التطور في قلب الصحراء مع قدوم الزناتيين إليها . ولا بد لنا هنا من ذكر القرابة بين الزناتية واليهودية في الأصل . فالكاهنة أول اميرة على الزناتيين كانت تحمل اسماً يهودياً : فكاهنة تذكر بكوهين .

ولكن كلمة كاهنة عربية مثلما هي عبرية . ويقول ابن خلدون : من بين البربر اليهود يمكننا أن نذكر جراوة القبيلة التي كانت تقطن الأوراس وإليها تنتسب الكاهنة .

ويضيف أن قبيلة نفوسه وبربر افريقية يهود أيضاً . وبنو نفوسه معروفون جيداً ويعتبرون من الزناتيين أو المنضمين إليهم .

وإليك دليل آخر في هذا المجال: ففي غرارة وأقصى شمالي توات بين تمنتيت وسبع غرارة في تلك المنطقة التي حافظت على لغة زناتة وجنسها حتى أيامنا هذه كانت تقوم دولة يهودية مستقلة استمرت حتى نهاية القرن الخامس عشر . ولدينا تفاصيل وافية عن ابادة هذه القبيلة عام ١٤٩٢ حين قضى عليها المسلمون بعد هزيمتهم في اسبانية .

وبنو نفوسه قبيلة طرابلسية. ومن المعروف ان الجمال قد انتشرت في المغرب انطلاقاً من طرابلس . ومن المعروف أيضاً ان ثورة يهوديـة قامت في عصر الامبراطور تراجان انطلقت من برقة . وقد شدد رينان كثيراً على هذه الثورة « قام هؤلاء وعلى رأسهم شخص يدعى لوقوفا اعتبروه ملكاً عليهم ، بعمليات ذبح واسعة النطاق لليونانيين والرومان ، وأكلوا لحمهم وتلذذوا بتلطيخ ايديهم بدمائهم منتزعين جلدهم عن أجسامهم ليجعلوا منه ثياباً يرتدونها ! ويقدر عدد

سكان برقة الذين قضوا على هذا النحو بحوالي مئتي وعشرين ألفاً . أي أن جميع السكان قد ذبحوا تقريباً وتحولت البلاد الى صحراء قاحلة من جديد . »

ولا تدل وقائع كهذه على مدى التعصب الديني اليهودي وحسب ، بل على أن هؤلاء كانوا منظمين أحسن تنظيم ايضاً . على ان برقــة كانت آخر بقعة رومانية يشاهد فيهــا اليهود ظافرين . فاليهود اذن هم الذين قضوا على حكم الاغريق في برقة في بداية القرن الميلادي الثاني . وعلينا ان نبحث في برقة عن انطلاقة الزناتيين . انها وقائع لا يسعنا إلاّ ان نربط بينها .

تقع بلاد زناتة حسب تحديد ابن خلدون بين كتلتين من القبائل البربرية هما سكان منطقة القبائل في الجزائر وقبائل الأطلس المراكشي ، بحيث يفصل بينهما حاجز طبيعي كثيف .

واسم زناتة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالثورة الاجتماعيــة والسياسية الكبرى التي حصلت في المغرب بعد ظهور الجمل . ذاك لأن قبيلة زناتة قـد ظهرت في نفس الفترة التي ظهر فيها الجمل وكأن أحدهما يحمل الآخر .

يبقى أن نوضح بعض القضايا الأخرى .

البتر والبرانس

على الرغم من أن ابن خلدون وسائر المؤرخين العرب قد ذكروا زناتة منذ بداية الفتح العربي ، فيبدو أن هؤلاء لم يكونوا ليمثلوا وحدهم جمّالي القرن السابع كما أصبحوا فيما بعد .

ويتحدث ابن خلدون عن أصل البربر فيقول :

« يتفق الخبراء بعلم السلالات على إرجاع البربر لأصلين اثنين : البرانس والمدغيس . وكان مدغيس يلقب بالأبتر فاطلق على المتحدرين منه اسم البتر ،

ويدعى برانس أولئك الذين يرجعون في اصلهم الى برنس .

ويعلّق البــارون دي سلان مترجم ابن خلدون على ذلك فيقول : البتر بالعربية جمع أبتر . واعتماد اللغة العربية الأصلية في المنطقة الموريتانية في ذلك الحين يدل على أن هــذه اللغة كانت شائعة في الوقت الذي بدأ فيه العلماء البربر يدوّنون أنسابهم . وتدل بعض الظواهر الأخرى على أن هذه الانساب قد أعدت باللغة العربية في القرن الرابع الهجري . ونظرية سلان هذه منطبقة كل الانطباق على واقعة لا تقبل الجــدل : وهي أن المؤرخين الغربيين لم يذكروا شيئاً عن إرجاع البربر الى أصلين وهذا دليل واضح على أن البربر قد جاؤوا بعــدهم . ويذكر ابن خلدون بين نسّابي البربر يوسف الوراق الذي نقل عن أيوب بن ابي زيد (صاحب الحمــار) ، وسابـق بن سليمان المطماطي وهاني بن مصدور الكومي و كهلان بن علي لوا وغيرهم . ولا شك أن تمازجاً بين السلالات قــد حصل بعد الفتح العربي كانت نتيجته ما نعرفه عن نسب البربر .

ويرجح نسب البربر إلى فرعين متباينين الى حدّ أن البعض لا يجد لهما أصلاً واحداً . ويقول ابن خلدون إن مدغيس وبرنس يلقبان كلاهما بابن بر ولكن الكثير من النسابين لا يميلون لإرجاعهما لنفس الأب .

فجد البرانس متحدر من مازق ابن كنعان وجد البتر هو بر ابن قيس .

وفي نظرنا ان جميع هذه التسميات جاءت اعتباطاً ؛ لذلك اغفل المؤرخون الغربيون ذكر هذه السلالات .

ونحن نعلم ان المفهوم البيولوجي للتاريخ عند العرب هو الذي حــدا بهم لتقسيم الشعوب على أساس الانساب . فحــين تصوّر عرب وبربر القرن العاشر أن نسبهم ينقسم الى فرعين أرادوا بذلك أن يشيروا الى سلالتين متباينتين من البربر ، فما هما هاتان السلالتان ؟

البـــتر

يعدد ابن خلدون قبائل البتر بشكل مستفيض لا نستطيع أن نمضي وراءه فيه . إذ يبدو لنـــا أن البتر متحدرون من نفوسه ولواته . أي من القبائل المعروفة بانتمائها لطرابلس .

ويقول ابن خلدون ان بني نفوسه أقاموا في نواحي طرابلس والمناطـــق المجاورة لها . وهم لا يزالون فيها حتى الآن أو انهم اعطوا اسمهم على الأقل لجبل نفوسه وقد سكن بعض احفادهم المغاور هناك .

ويبدو أن اللوا أو اللواتـــه هم الذين يكوّنون القبيلة التي عاشت في برقة وحول اليونان اسماء ابنائها فأصبحوا الليبيين . ويقول ابن خلدون نقـــلاً عن المسعودي : اللواته كانت من البدو المقيمين في نواحي برقة. ويضيف المسعودي (كما ذكر ابن خلدون) أن عـــدداً كبيراً من اللواتيـــين كانوا يقيمون في الواحات المصرية كما كانوا مسيطرين عليها في العصر الذي كتب فيه المسعودي . وقد تعرف ابن خلدون على بعض النسابين الذين ارجعوا اللواته لأصل قبطي .

وقد طبعت أفخاذ لواته بطابعها عدة مناطق في صحراء تونس وقسنطينة. ونفزاوة اسم لا يزال يطلق حتى اليوم على مجموعـــة واحات الجريد . وقبيلة نفزاوة أحد افخاذ لواتة . وقـــد لعب بنو نفزاوة دوراً مهماً في بداية الفتح العـــربي .

وسدراته التي تقع على بعد عدّة كيلومترات جنوبي أورغله اسم يطلق على مكان عثر فيه على آثار مهمـــة . وبنو سدراته قبيلة لواتية يذكر ابن خلدون بجمل نسبها .

وبنو لواته من أهم الجماليـن الذين أمّوا نواحي الأوراس قادمين من الشرق .

وقد تعرف ابن خلدون في القرن الرابع عشر على ابناء هذه القبيلة في نواحي الأوراس وكانوا من القوة بحيث انهم استطاعوا تجنيد ألف فارس كما كانوا خير عون للحفصيين حكام تونس. في نفس الحقبة كانت تقيم بالقرب من نفاوس قبيلة لواتية تقوم بجباية أموال كثيرة من سكان المدينة . ونفاوس واحة صغيرة معروفة تقع شمالي شرق هدنة .

ويجمل القول إن نفوسة ولواته قبيلتان يسهل تحديد مواقعها .

وهناك طائفه أخرى مهمة من البتر تدعى ببني فاتن ، ذكرها ابن خلدون في فصل كامل ويبدو أنها ليست من القبائل التي نزحت من الشرق وانها تعتبر مغربية أصيلة .

وإليك ما يذكره ابن خلدون عن قبيلة متغرة احدى هذه القبائل : كان افرادها يقيمون في بيوت ثابتة من القش . كما كانوا موجودين في المغرب قبـــل ظهور الاسلام فيه . ويحـــدد المؤرخ العربي مواقعهم بجوار تلمسان في ممر تازه ويروي أن لهم قلعة اسمها تاونت وتقع بجوار البحر أي بضواحي تلمسان ليس بعيداً عن ندرومه .

وكان لهذه المنطقة من تلمسان اتصال وثيق بالصحراء ، إذ أن بني متغرة لم يبقوا في أماكنهم وكانوا يغادرون بيوتهم المصنوعة من القش . وأبناء سجلماسة عاصمة تفيلالت كانوا في معظمهم من المتغربين زمن ابن خلدون . كما يعثر عليهم في مناطق النخيل الصحراوية بين تيوات وفجويج . حتى أن فجويج هي المنطقة الوحيدة التي كان فيها لبني متغرة سلطة سياسية في القرن الرابع عشر .

وبنو لماية فرع آخر من قبيلة بني فاتن . وهم أشقاء بني متغرة كما يروي ابن خلدون وكانوا يجوبون افريقية والمغرب كالبدو الرحل ، غير أن معظمهم كانوا مقيمين في أواسط المغرب بجوار الصحراء .

وجدير بالذكر هنا ان بني لماية هم القبيلة التي أسست مملكة تاهرت . وبعد

سقوطها تبعثر قوم بني لماية ومنهم من بلغ جنوبي تونس . فبنو جربة التي سميت الجزيرة بأسمهم ينتمون لبني لماية .

وبنو مطماطة فرع آخر من بني فاتن وأهم أشقاء بني متغرة وبني لماية . ويوجد في الوقت الحاضر جبلان يحملان اسم المطماطة كلاهما بعيد عن الآخر . الأول جنوبي الجريد التونسي ناحية ورسنيس . ويحدد ابن خلدون موقعهم الاصلي بشكل لا يرقى اليه الشك . كان المطماطة في العصور القديمة يقطنون هضاب منداس والآن يعيش من تبقى منهم في ورسنيس .

ومن بني فاتن نذكر أيضاً المغيلة وهما فئتان واحدة تسكن وسط المغرب والثانية تقطن السهول الممتدة من مصب شلف حتى مأذونة المدينة التي لا تزال موجودة (في عصر ابن خلدون) ومأذونة اليوم مدينة جميلة تقع في الضهرة شمالي شلف . أما الفئة الثانية فتقيم في المغرب الأقصى (مراكش) في الأراضي التي احتلتها وتقع بين فاس وسفرو ومكناس ولا يزال فيها بعض من سلالتهم .

ثم يأتي بنو مديونة وهم كذلك أبناء فاتن وأشقاء المغيلة والمطماطة . وكانوا يقيمون فيمقاطعة تلمسان حيث احتلوا الجزء الممتد من الجبل الذي نسميه اليوم جبل بني راشد (جبل آمور اليوم) وحتى جبل ودجه الذي يحمل اسمهم. وهم اليوم بنوسنوس ومنهم ايضاً من يقيم فيغور تازه يجبل عين مديونة وآخرون يقيمون غرباً شمالي فاس .

وأخيراً الكومية وهي أهم قبائل بني فاتن . وهي التي لحقت بعبد المؤمن الى مراكش لتكون خير معين له وتعتبر مؤسسة سلالة الموحدين ، « كانت قبيلة الكومية تقيم في الجهة الساحلية من بلاد المغرب الوسطى في نواحي أرشغول وتلمسان » ويضيف ابن خلدون أن أحد افخاذ القبيلة يحمل اسم ندرومه. إن تلمسان ومرفأها أرشغول (جزيرة رشفون الصغيرة عند مصب التفنه) ومدينة ندرومه القائمة حالياً ، أدلة كافية لتحديد موطن بنى كومية .

ولم تنطفىء ذكراهم حتى الآن في التدراس نواحي ندرومة وغور . ويقول وليام مارسيه ان أهل هذه المنطقة لا يزالون يتكلمون لغة عربية قديمة تذكر بعهد الموحدين .

وإليك التوزيع الجغرافي الذي اعطاه ابن خلدون لقبيلة بني فاتن : انها قبائل متحدرة من فاتن ابن تمزيت ابن دارس ابن زحليق ابن مدغيس الأبتر .

ولسنا بالطبع قادرين على فهم لغة ابن خلدون السلالية هذه . غير انه بإمكاننا تحديد المواقع الجغرافية لهذه التسميات ، وذلك لإيضاح الأمور . فبنو فاتن قبائل عثر عليها الفتح العربي وهي في حالة تجمع عبر بلاد واسعة ومتمازجة ، وهي أواسط المغرب والسهول المحاذية لسواحل وهران الممتدة عبر غور تازه ، والهضاب الوهرانية والعالية ، وشطرها المؤدي الى الصحراء الكبرى .

في نفس المنطقة أيضاً كان يقيم بنو مكناسه الذين اعطوا اسمهم لمكناس . وكانوا يقطنون كما قال ابن خلدون على ضفاف الملوية ابتداء من منبعه ناحية سجلماسة حتى مصبه . ثم ابتداء من هذه المنطقة وحتى نواحي تازه . وقد أسس بنو مكناسة مدينة قرصيف ومنطقة تازه كما أنشأوا أسرة حاكمة في تسول وهي نقطة يمكن العثور عليها بين قرصيف وتازه .

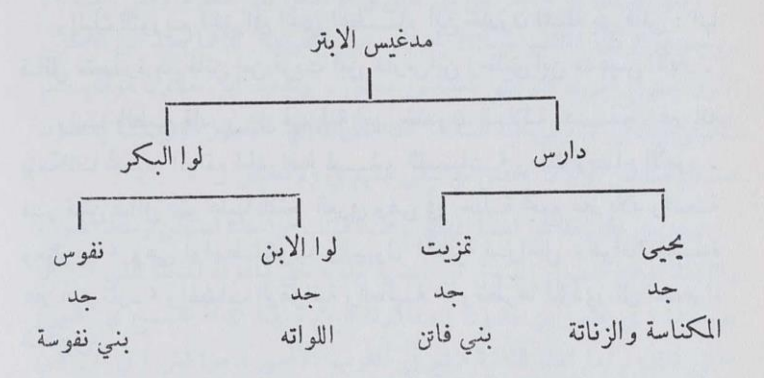
كما حكمت اسرة مكناسية اخرى مدينة سجلماسة والمنطقة المحيطة بها .

لكن هذا الفرع من بني مكناسة لا ينتمون لبني فاتن بل كانوا اقرب لبني زناتة .

والزناتة بين جميع قبائل البتر تحتل مكانة خاصة عند ابن خلدون حيث خصص لها الصفحات الطوال في الجزء الثالث من ترجمة سلان . ويقول ان البتر يتكونون من الزناتيين وبعض الأسر الأخرى .

وقد أصبحنا على علم بالتوزيع الجغرافي للزناتيين وهو مماثل لتوزيع البتر

بشكل عام . ويشير النسابون العرب مع ذلك الى قرابة شديدة بين بني فاتن وبني مكناسه الزناتيين من جهة ، وبين بني نفوسة وبني لواتة من جهة ثانية . وهذا رسم بياني يوضح القرابة بينهـا :



وهذا ما يتفق كل الاتفاق مع التوزيع الجغرافي . فبنو نفوسه وبنو لواته من القبائل الشرقية المستوطنة وهم طرابلسيون . أمـا بنو فاتن والزناتيون فأقل صلة بالشرق . وأغلب الظن انهم مستوطنون أصليون تزاوجوا مع قبائل أخرى . وهم متجمعون بنوع خاص في وسط المغرب ومنطقة الشلف ومنطقة تلمسان وغور تازه والهضاب الوهرانية .

على ضوء ذلك تمكننا الاستعانة بالخريطة لنحدد المواقع.فالبتر هم البربر الذين استوطنوا بين السهول المرتفعة والواطئة ، الصحراوية والهضبية الجرداء، الممتدة بلا انقطاع من المنطقة الطرابلسية الى غور تازه . وهم من البدو الرحل بالطبع. فليس في بلادهم ما يدل على غير ذلك.وهم رعاة للإبل أو معاونون لهؤلاء الرعاة. والبتر هم الزناتة أنفسهم لأن القبيلة الواحدة تعرف عدة تسميات . وقد امحى اسم البتر ليحل اسم الزناتة محله تدريجياً حين قويت شوكة هؤلاء واصبحوا أشد سيطرة على سائر فروع البتر .

وهكذا يتبين لنا بعد تمحيص دقيق للمراجع العربية كيف ظهرت القبائل الجديدة مع ظهور الجمل .

إن دراسة فروع البترتوضح لنا تفاصيل دقيقة. فالمعاصرون يجدون بعض التمايز بين فئة شرقية استوطنت الصحراء الشرقية وهما قبيلتا النفزاوة ولواته . وفئة غربية اصلية مركزها تلمسان . والفئة الأولى هي التي جاءت بالجمل ، لتعلم الفئة الثانية فن استخدامه . هاتان الفئتان هما اللتان كونتا قبيلة الزناتة مع الوقت .

واذا كانت الكتب قد اغفلت اسم البتر تقريباً فهي لم تغفل جدهم مدغيس الأبتر .

وكلنا يعرف ضريح مدغاس الضخم في شمالي الاوراس وهو شبيه بضريح «النصرانية» في الجزائروضريح جدّار في تاهرت . انها اضرحة ضخمة تضاهي اهرام مصر،سوى انها مغربية محضة لأن فيها طرازالرجم الليبية .أي عبارةعن كمية من الحجارة تلقىفوق الضريح. وهي تعود لأبناء الأسرالحاكمة قبل الاسلام.

وتعرف النسابون البربر على قبر مدغيس الأبتر بينها . فكلمة مدغاسن تعني قبر مدغيس . ولا حاجة بنا للقول ان هذا الزعم غير صحيح لأن مدغيس لم يكن موجوداً،وانما يعود الضريح لأحد الأمراء النوميديين . وقد سمي احياناً بضريح صفاقس . على ان الامر ليس واضحاً كل الوضوح . فقبر « النصرانية » وقبور تاهرت تعود للأمراء الموريتانيين وليس للنوميديين. واذا كان اسم مدغيس الرجل الوهمي قد اخذ اسم صفاقس ، فهل يعني ذلك ان نسابي البربر يشعرون بوجود صلة بين النوميديين والبتر ؟بوسعنا في هذا المجال ان نطرح العديد من التساؤلات ، لكنه من المرجح ان هؤلاء البتر حين قدموا من الشرق وضعوا يدهم على مدغاسن لأنهم وجدوه في طريقهم .

ومن المؤكد على كل حال ان اسم مدغاسن هذا المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالضريح ، يوضح النص الذي كتبه ابن خلدون . فمن الواضح ان المغرب قد عرف في العصر الوسيط الأول مجموعة من قبائل البتر التي تحدر منها الزناتيون. وهم مجموعة القبائل الرحالة الكبرى .

البرانس

ولنلـــق الآن ضوءاً على فرع البرانس . وهـــو الفرع الذي لا يوليه ابن خلدون كبير اهتمام . ويكتفي بتخصيص عـدّة صفحات له . وعدم التفاتـــه لهؤلاء أمر طبيعي ، فمغرب ابن خلدون كان يسوده الزناتيون أي البتر . ومـــع الأسر الزناتية الحاكمة قضى كاتبنا معظم حياته الناشطة.

أما أهم قبائل البرانس فهي كتامة وصنهاجة ومصمودة .

وقبيلة مصمودة هم سكان جبال الاطلس المراكشي الذين ساندوا الموحدين . وستتحدث فيما بعد عن الكتاميين والصنهاجيين الذين يعتبرون أجداد القبائـــل الجزائريين . ولنشر هنا إلى ان هناك قبيلة صنهاجية أخرى في مراكش يسميهـــا ابن خلدون صنهاجة العرق الثالث وهي غير صنهاجة الجزائر . ويطلق عليهـــا إسم زناغة وكانت مستوطنة في الناحيـــة الشرقية للأطلس المراكشي شرقي مصموده . وهي التي تشكل اليوم جماعة البرابر في مراكش المقيمين بين غورتازه والصحراء . ولنضف هنا ان الغماريين يقيمون في «الريف» الموازي للمتوسط والغماريون قبيلة مصمودية . فجميع الجبال المراكشية ومناطق القبائل الجزائرية تعتبر موطناً للبرانس .

وهناك قبيلة أخرى من البرانس هي قبيلة اورابة وقـد لعبت دوراً بارزاً في بداية الفتح العربي بقيادة كسيلة أحد ابنائها . ولا يضع ابن خلدون حـــدوداً واضحة لها . ويرى ماسكوراي انها القبيلة التي تقطن سلسلة الاوراس الغربيـــة ويعيش أحفادها حالياً في الوديان العاليـــة وهي منطقة مقفلة بشكل ملحوظ وتدعى وادي العبدي ووادي العرب . ولعلّ ماسكوراي قد بالغ في إرجاعهم لهذا الأصل لأنهم يختلفون حتى من حيث اللهجة عن جيرانهم الزناتيين المقيمين في الاوراس الشرقي. ولا بدّ من القول هنا إن قلب الاوراس يتمتع بميزات خاصة لأنه كان في منأى عن غزو الجمالين الرحل وتسرّب البتر .

يمكننا — بغية إكمال اللائحة — إضافة فرعين صغيرين : بنو عجيسة وهم فرع آخر من البرانس كانوا يقيمون بجوار صنهاجة في الجبال المطلة على مسيلة ومنهم فئة استوطنت جبل القلعة (جبل بني حماد) . ولكن لماذا ميزهم النسابون عن الصنهاجيين والقبائـــل رغم انهم عاشوا بجوارهم ؟ مرد ذلك إلى انهم رفضوا التكتل مع الآخرين وانضموا لصفوف العدو . « وحيث انهم حاربوا مع أبي يزيد (صاحب الحمار) . فقد اختار أن يلجأ اليهم ويتحصن في القلعة ، بعـــد ذلك اختار حماد ابن بلكين في ارضهم مكاناً بنى فيه مدينة جعلها مقراً له . وهكذا انتزعت الأرض من بني عجيسة فتمردوا عليه فحصدهم بالسيف .

هناك أيضاً فرع آخر هم بنو عسدجة وينسبهم البعض للـبرانس . وكانوا يقيمون في نواحي وهران ، فهم من البتر بالنسبة لمحل إقامتهم . لذلك اعتبرهم عدد من النسابين البربر في عداد القبائل الزناتية . لكنهم خانوا العهد وتحالفوا مع قبيلة كتامة التي أقطعتهم مدينة وهران ثمناً لولائهم . لقد كانوا يكرهون الزناتيين كرهاً شديداً ولم يخلصوا لهم . ومن المعروف أن وهران كانت مركزاً حيوياً للاتصال بين الامويين في إسبانيا وبين الزناتيين حلفائهم الدائمين. وجرى الاستيلاء على وهران وأحرقت المدينة وأبيد عدد كبير من هذه القبيلة .

وليست الهوة سحيقة بين المنطقة الجبلية والمناطق السهلية الكبرى على كل حال فهناك نقاط التقاء بينها . وكانت روح الخيانة والتردد سائدة بين اولئك الناس المقيمين على الحدود . يبدو لي والحالة هذه ان مثال عجيسة وعسدجة يلقي ضوءاً على استنادات النسابين . فهم لا يستطيعون ان ينظروا للوقائـــع التاريخية الاّ من زاوية النسب والعرق والتبني . ولا يعنون الا بالمفاخرة .

من هنـــا يمكن ان نخلص للوقائع التاليـــة : ان احفاد البرانس هم الـــذين استقروا في الجبال ، اما ابناء مدغيس فهم سكان السهول الرحل . ذلك امـــر لا ريب فيه في اطار بلاد المغرب نفسها .

الملثمون

وفي أعماق الصحراء من ناحية السودان يعيش قوم آخرون من البربر الذين لا ينتمون لتينك الفئتين الآنفتي الذكر . وهؤلاء هم الملثمون الذين تحدر منهم الطوارق . وينتمون لقبيلتي اللمته واللمتونه . ويسهب ابن خلدون في الحديث عن هؤلاء القوم « الذين كانوا يضعون على وجوههم اللثام وهو زي يفرقهم عن سائر الأمم . أقام الملثمون في المناطق المجدبة الممتدة وسط الصحراء حيث احتلوا أماكن مجاورة لريف الحبشة (السودان اليوم) وكذلك المنطقة الفاصلة بين بلاد البربر وبلاد الزنوج » .

ويعتبر هؤلاء من كبار الجمالين الرحل وهذا ما يميزهم عن غيرهم من سكان المغرب. وقد آثروا الأماكن البعيدة عن التل والبلدان الخيرة لأنهم كانوا يعيشون على لبن النوق ولحم الإبل .

ولكن هل هم من البتر أم من البرانس ؟

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة لأن هناك فئتين من الملثمين . فالغربيون ابناء لمته ولمتونه أسسوا أسرة المرابطين ويمتون بصلة النسب لكتلة الزناغة في مراكش . كما ذكروا قرابتهم مع صنهاجيي القبائل . وبذلك يكونون من البرانس .

لكن الملثمين الشرقيين ينتمون إلى الهقار ومنهم قبيلة هوارة التي اشتهرت في مطلع الفتح العربي . ومن المؤكد أن بني هوارة قدموا من برقة وطرابلس وكان لهم دور يذكر في تونس والأوراس . فهم إذن من البتر أشقاء بني نفوسة ولواتة .

ويغوص النسابون في سلسلة من الزيجات المعقدة للربط بين هاتين الفئتين

بصورة لا يمكن الاعتماد عليها . لكن هناك ملامح أساسية بوسعنا اللجوء اليها .

فجميع الملثمين من شرقيين وغربيين هم أبناء تسكي العرجاء . وتسكي امرأة من البتر متحدرة من مدغيس، وقد اقترنت بواحد من البتر ثم بعدة برانس. لكنها هي الأصل . والملثمون هم أبناء تسكي العرجاء قبل كل شيء . قد يبدو الأمر مستغرباً لكن بين ملثمي اليوم دلائل كثيرة تشير لأولوية الأمر .

ولو شئنا أن نغربل ما مرّ معنا من أنساب يمكننا الوصول إلى نتيجة دقيقة وهي ان البربر ينقسمون لثلاث فئات كبيرة متمايزة جغرافياً ، اي انهم ينتمون لثلاث مقاطعات تقطنها ثلاث قبائل مختلفة لكلّ منها سماتها الخاصة .

كان البتر أبناء مدغيس بما فيهم زناتة أهم قبائلهم – كانوا محاطين على الخريطة بملثمي الصحراء البعيدة من جهة (وهم المتحدرون من تسكي العرجاء) وبالقبائل الجزائريين والمراكشيين سكان الجبال الذين ينتسبون الى برنس .

وفي هذا المجال يأتي و . مارسيه بتفسير جديد بما له من طول باع في اللغة العربية .

يرى مارسيه أن التمييز بين البرانس والبتر يعود للقرن الثامن الميلادي على الأقل ويرتكز أساساً على فوارق اللباس التي لاحظها العرب عند البربر في أول عهدهم بهم . فمنهم من كان يرتدي البرنس، فأطلق عليهم اسم البرانس ومنهم من كان يرتدي ثوباً أقصر فسموا بالبتر .

ولكن كيف لنا ان نصنف الملثمين ولباسهم يختلف اختلافاً شديداً عن لباس كل من البتر والبرانس ؟ مارسيه نفسه يقول ان رأيه محض افتراض .

ولنشر هنا الى ان أحفاد البتر هم الذين يرتدون البرنس في ايامنا هذه وهو لباس الفرسان . واصل التفرقة بين البرانس والبتر لا يزال مختبئا في غياهب العصور المظلمة .

الخلاصة

لا يسعنا هنا الا ان نعترف بمحاذير اللجوء لعلم السلالات كما اوردها ابن خلدون في محاولة استكشاف اصل البربر .

غير انه ليس بمستطاعنا ان نضرب عرض الحائط بتردد اسم البرانس والبتر كل لحظة فيما اورده المؤرخ العربي الكبير . لا سيما وانه لا يستحيل علينا ان ننقل المفهوم البيولوجي والسلالي الى صعيد آخر ، هو الصعيد الجغرافي الذي نحسن فهمه .

ان تلكؤنا في هذا المجال هو السبب الأساسي لذاك الغموض الذي يكتنف تاريخ المغرب المسلم .

لقد درج الباحثون على تقسيم تاريخ المغرب الى قسمين منذ الفي سنة حتى اليوم . فنحن نتحدث اليوم عن العرب والقبائل . وفي العهد القديم كانوا يتحدثون عن النوميديين والمغاربة .وفي العصر الوسيط ورد اسم البتر والبرانس. وما هي الا اسماء متباينة لفئات معينة من البدو والحضر تغيّرت ألقابها بتغير الظروف .

وسنذكر في فصل لاحق كيف اصبح البتر الزناتيون عرباً . وبتنا نعرف كيف ان ظهور الجمل قد احدث ثورة في عصر النوميديين والبتر. وان نحن شئنا إغفال هذه الثورة ، والإمساك عن ذكر شخصية قبائل البتر ، فلا بدّ لتاريخ المغرب أن يبقى في ظلامه .

وحري بنا ان نذكر ان الاختلاف الحياتي ليس وحيداً بين البتر والبرانس. لأن فريقاً كبيراً من البتر يعدون غرباء من أبناء الصحراء.ثم إن الفريق الأصيل تأثر كثيراً بالفريق الطارىء . لكن البرانس – ولا سيما الشرقيين منهم اجداد قبائل الجزائر ، حافظوا على اتصالهم الوثيق بقرطاجة في العهدين البوني والروماني . اي انهم ظلوا على صلة بالحضارة . وكانوا من معتنقي النصرانية عند

قدوم المسلمين . وكثيرون من البتر كانوا يهوداً أو وثنيين كما اورد المؤرخون العرب . فكيف لنا ان نفهم الأمور لو تجاوزنا الفوارق العميقة بين هاتين الطائفتين من سكان المغرب ؟

واليك هذه الخاصة الأخيرة التي تدل على وجود مغربين متمايزين لكل منهما مجتمعه ونمط حياته .

فهناك فوارق جمة في طراز البناء لدى البتر او الزناتيين ثم لدى البرانس الذين نطلق عليهم اسم القبائل. الفارق الأول هو ان بيت القبائل له سطح من الآجر ، وبيت الزناتة مزود بشرفة . وهو دليل كبير على الفارق بين الاثنين . ذلك ان الشرفة ضرورية في المجتمع الشرقي حيث المرأة محجبة لا تخرج الى الشارع وليس بالإمكان عزل النساء جنباً الى جنب إلا بواسطة الشرفات .

والفارق الآخر الذي اعجب من اغفاله ، انما هو الطابع المدني للوحدات السكنية الخاصة بالزناتيين . فالتجمع السكني في الصحراء يضم نحو مئة شخص وهو مبني من الطين الصلب على غرار بابل وممفيس ، لكن هندسته ماهرة ومعقدة ، حيث ان البيوت مكونة من عدة طوابق تصل بينها ادراج رصفت بإحكام . وللبيوت شرفات متقنة لها مزاريب • وفي الشوارع ممرات مسقوفة ، ومقاعد للعموم يجلس عليها عابرو السبيل • وفي القرية سوق تتخلها حوانيت التجار والصناع وكذلك المقاهي واماكن اللهو •

على هذه القرية الزناتية تخيم روح البداوة كما نرى . فبود الراعي الذي يلحق بقطيعه شهوراً أن يعود إلى مكان امين يجد فيه الراحة واللذة. ولا يرى امرأته تخرج من بيتها ليبصر بها الرعيان الآخرون . وغالباً ما يكون البيت ملكاً لهذا الراعي النبيل الذي يجانبه السيف دائماً ، فهو شديد الحرص على شرفه . هكذا نرى ان التجمعات السكنية في توات او غرارة أو فجويج اشبه بصورة مصغرة لمدينة تلمسان . مع فارق المستوى والامكانيات .

أما التجمع السكني عند القبائل فعلى العكس من ذلك تماماً حيث يعيش

القبلي في القرية حيـــاة مستقلة خشنة . وحتى المدن نفسها كقسنطينة وميديا ومليانة ليست سوى قرى كبيرة .

ويلاحظ السياح ان هذه المدن لا تضاهي من ناحية بنائها وتصاميمها تلمسان عاصمة الزناتيين تلك اللؤلؤة الشرقية .

وهنا تتزاحم في ذهننا مجموعة من الأفكار التي لم يسهب في بحثها أحد في حين انها جديرة بالاهتمام . وخليق بنا أن نتذكر أن البـتر والبرانس قـــد تركوا سلالتين متباينتين لكل منهما ميزاتها الخاصة المستقلة عن الأخرى .



الكتاب الرابع

العصور المظلمة في بلاد المغرب

١ ـ الفتح العربي
نوميديا القديمة مركز المقاومة

بداية الفتح العربي

إذا كانت بــلاد المغرب قد طبعت بطابع قرطاجة الشرقي طيلة عهــد الامبراطورية الرومانية فإن ظهور الجمل ونشوء القبائل البدوية الكبرى قد أديا لخلق مغرب جديد هو مغرب البتر وزناتة إلى جانب المغرب اللاتيني نوعاً وهو مغرب البرانس . تلك هي وقائع لا يمكن بدونها أن نفهم حقيقة الفتح العربي . وليس من السهل سرد تاريخه حتى بعد تنبهنا لهذه الحقيقة .

لمحة إجماليــة

أصبح تاريخ المغرب متشابكاً جداً بعد انهيار الحكم البيزنطي . فهل بوسعنا أن نعثر على خطوطه العامة رغم كل شيء ؟ يبدو لي أن الأمر ممكن .

ان نتائج الفتح العربي لا تزال تبهرنا بعد مرور اثني عشر قرناً عليها . لقد استعرب المغرب بعمق واعتنق الإسلام بأصالة . وانها لنتيجة مـدهشة لا سيما وانه ما من فتح آخر في التاريخ كان له هذا الأثر البعيد . ولنعد الآن الى القرن السابع الميلادي عصر الفتح الإسلامي . لقد وقعت ثورة كبرى في ذلك الوقت ، واخترقت البلاد ذاك الحاجز الكثيف الذي يفصل بين الشرق والغرب . وانها

لقفزة تعجز الثورة الفرنسية أو الروسية عن مضاهاتها ، وإذا أمعنا النظر في التفاصيل وجدنا ان الفتح العربي كان طويلاً ومفعماً بالحوادث . ذلك لأن مقاومة عنيدة قد وقفت في وجهه .

بدأت أولى الحملات العربية على المغرب في عام ٦٤١ و ٦٤٢ . وقد هزم البطريق جرجير (غريغوار) وجماعته البيزنطية في سبيطلة سنة ٦٤٧ . وأسست مدينة القيروان سنة ٦٧٠ . ويعود تاريخ حملة عقبة (التي لم تصل الى نتائج مستمرة) التي قادت العرب حتى الاطلسي لسنة ٦٨٣ . وبدأت حملة موسى بن نصير الثانية الكبرى سنة ٧٠٨ حيث اقتفى آثار عقبة . وكانت غزوة اسبانية سنة ٧١١ .

استمرت الغزوات اذن نحو سبعين سنة قبل فتح البلاد . وانهزم العرب مرّات كثيرة وطردوا من البلاد كلياً خلال تلك السنوات . فقد أبيد عقبة وجيشه حتى آخر رجل في بسكره (٦٨٣) . وقد أخلى زهير افريقية سنة ٦٩٠ بعد احرازه انتصاراً مؤقتاً وتراجع نحو مصر وقتل في برقة وهو في طريقه اليها. وهزم حسان سنة ٦٩٨ بعد أن قدم على رأس جيش جرّار جاء ليثأر لأسلافه. كان ذلك في مسكيانه على سفح الأوراس . وكانت الهزيمة مرّة الى حدّ اضطر فيه العرب للتراجع الى برقة بغية تنظيم صفوفهم ومحاولة الصمود . ولجأ حسان الى تحصينات دعيت بقصور حسان .

والقيروان التي كانت مخزناً للسلاح كما يدل اسمها سقطت عدّة مرات في أيدي البربر قبل ان يسترجعها العرب .

ويروي المؤرخون العرب مرارة هذه الحرب فيقول ابن ابي يزيد ان البربر قد حنثوا بوعودهم اثنتي عشرة مرة ، عادوا فيها لمحاربة العرب . وليس هذا الرقم دقيقا بالطبع .

ويقول ابن عبد الحكم أقدم المؤرخين العرب ان الخليفة عمر بن الخطاب

أجاب على المطالبين بغزو افريقية قائلاً :

لا ينبغي ان نسمي هذه البلاد بافريقية ، بل هي المفرقة الغادرة ولن اسمح بالاقتراب منها أو الحملة عليها ما دام دمع أجفاني يروي مآقي . قد تكون هذه الكلمات منحولة غير انها تدل على يأس الرأي العام من الحملات الفاشلة المتوالية .

والمغرب بعيد عن مصر التي تصلح قاعدة للغزو ، ويفصله عنها نحو ألفي كيلومتر من الطرقات الصحراوية التي يندر فيها الماء .

ولو تنبهنا لهذا الواقع لوجدنا ان مجهود العرب في فتح المغرب كان عظيماً وكذلك كانت مقاومة المغاربة . فلعلّ هؤلاء باتوا بعد سبعة قرون من السيطرة الرومانية والبيزنطية يرفضون أي نوع من أنواع التعاون مع الأجنبي .

ولم يحقق العرب نصرهم النهائي وفتح اسبانية إلاّ على يد موسى بن نصير. في تلك الفترة أصبح المغرب محاطاً بمركزين من مراكز الإشعاع الإسلامي تونس من جهة وبلاد الأندلس من جهة أخرى ، ولم يعد لديه مجال كبير للرفض . غير ان الخلافة الإسلامية لم تبسط سيطرتها الاّ على تونس والأندلس حيث استطاع الإسلام أن يستقطب حوله الناس في هاتين المنطقتين الحضاريتين . لكن المغرب بحدّ ذاته ظل في حالة عصيان مستمر .

ففي سنة ٧٤١ و ٧٤٢ تمّ القضاء على الجيش العربي مرتين في مراكش . كان ذلك في معركة طنجة يوم الشرفاء الذي قتل فيه جميع العرب ثم على شواطىء وادي سبع حيث استشهد القائد العربي كلثوم وهو يتلو آيات من القرآن .

وفي سنة ٧٥٧ هزمت قبيلة ورفجومة البربرية جيش الخليفة واستولت على القيروان ونهبتها . وفي سنة ٧٧١ حاصر البربر القيروان مرّة أخرى وقتل عامل الخليفة عمر في معركة يائسة انقض فيها على الأعداء « كالجمل الهائج » .

كما كتب حسان للخليفة يقول : يبدو فتح افريقية أمراً مستحيلاً فما تكاد تباد قبيلة بربرية حتى تقوم في مكانها قبيلة أخرى .

وابتداء من القرن التاسع انقلبت الاشياء وأصبح المغرب هو المهاجم وأقدمت قبيلة بربرية على طرد العرب من افريقية وتابعت هجومها في الاتجاه المعاكس حتى بلغت مصر وأنشأت فيها حكم الفاطميين .

وتوصلت الخلافة في النهاية لنشر الاسلام في بلاد المغرب لكنها لم تتمكن من اخضاعه لسلطتها بكل معنى الكلمة .

وبعد انهيار السلطة المسيحية وقيام الاسلام في المغرب ، بدأت البلاد تعي ذاتها وتكوينها السياسي طيلة القرون الوسطى . غير انها لم تفلح في ذلك . على الرغم من ان ابن خلدون تحدث عن صفات مميزة عند البربر حيث قال : لقد كان البربر على الدوام شعباً قوياً مهيب الجانب شجاعاً كثير العدد . انه شعب حقيقي كسائر الشعوب شأن العرب والفرس والاغريق والرومان . ولكن ما الذي حال دون وعي البربر لذاتهم ، حتى أن ذكراهم قد تبددت بعد ابن خلدون كما امحى اسمهم من البلاد البربرية ؟ لقد سبق لنا القول إن هذه هي المعضلة الرئيسية في مجمل تاريخ المغرب . وإذا أمكنت الإجابة على هذا السؤال ، فعلينا أن نبحث عنها في العصر الوسيط الأول حيث كان المغرب سيد مصيره .

ولا يستحيل علينا تفسير تلك الحقبة من التاريخ رغم صعوبتها . وعلينا ان نزيح ظل الغمامة التي اوجدها علماء الأنساب في سردهم لأسماء العائلات بتواريخها الدقيقة . فبإمكاننا على ما أظن ان ننظم هذه الأسماء ونصنفها . ولن يتم ذلك عن طريق التعلق بأسماء الأبطال والتفاصيل المحيطة بحياتهم . وإنمّا يقتضي الأمر تحديد الرقعة الجغرافية التي أغفلها المؤرخون العرب إغفالاً تاماً . وهذا مجال رحب للجغرافيا لتشد ازر التاريخ .

وأظن اننا لو لجأنا اليها سنستطيع ولا شك ان نزيح تلك الغمامة وان نشهد وجود مقاطعات عديدة رفعت علم المغرب وقامت بجهود يائسة من أجل

ذلك .

موقف افريقية . الصدمة الاولى .

لا بدّ وان يتبادر للذهن أن افريقية هي مهد المقاومة المغربية نظراً لتأثرها بالحضارة البونية والرومانية . وقد صح فيها قول ابن خلدون في الحضارات الشرقية القديمة كبلاد ما بين النهرين وسورية التي حلّ فيها الفتح الإسلامي فجأة فاعتنقت الاسلام على الفور . فحين طرد المسلمون الجيش الأجنبي لم يبق هناك خوف من المقاومة او الثورة .

وينطبق الأمر كلياً على افريقية بحدّ ذاتها او على قرطاجة بالأحرى .

وقد ذكر المؤرخون العرب المعروفون بمبالغاتهم أخبار ابنة البطريق جرجير التي سمّوها آمنة . وقالوا انها كانت من نصيب واحد من الأنصار ، فوضعها هذا على ظهر جمل وسار بها وهو يردد : يا ابنة جرجير ستسيرين مشياً على الاقدام . ففي الحجاز تنتظرك سيدتك حيث ستحملين الماء في القرب .

ولما سمعت هذا الكلام سألت عن معناه وما إن فهمت حتى ألقت بنفسها من على ظهر جملها فكسرت عنقها وماتت .

والواقع أنه لا يسهل علينا مع المؤرخين العرب ان نميز الحقيقة من الخيال . وقد تكون آمنة غير موجودة على الاطلاق . لكنها على كل حال ترمز لتلك الحقبة الرهيبة التي ترافق جميع الثورات . وتمثل بنوع خاص وضع امرأة ارستقراطية مرفهة وقعت في أيدي بدو رحل . لقد كان العرب من الذكاء بحيث ادركوا معنى المأساة ، ومن القسوة بحيث ابوا إلاّ ان يستمتعوا بها . ولا شك ان حوادث اليمة قد وقعت غير انها ليست كثيرة العدد .

ومن المدهش حقاً الا نعثر على اثر لقرطاجة او المدن المجاورة لها في تلك الفترة المحمومة من بداية الفتح العربي. فقد هزم الجيش البيزنطي في سبيطلة بقيادة جرجير جنوبي تونس . لكن العرب لم يزحفوا على قرطاجة بل اقاموا بما لهم

من خبرة حكومة نظامية تجبي الضرائب . ثم انهم لم يعنوا بقرطاجة إلا مرة واحدة سنة ٦٩٨ (تقريباً) . في نفس الفترة أي بعد نصف قرن من معركة سبيطلة كانت قرطاجة في أيدي البيزنطيين وفيها جيش وأسطول بيزنطيان . ووضع حسان حاكم القيروان الجديد حداً لهذا التهديد وهاجم قرطاجة مرتين في خلال شهور أو أسابيع . وعاد الاسطول البيزنطي للاستيلاء على المدينة بين الفترتين ، الأمر الذي مكّن السكان من الهجرة حيث قصد بعضهم إلى صقلية والبعض الآخر إلى إسبانية . ويقول ابن عبد الحكم إنه لم يبق في المدينة سوى القلائل من فقراء الروم أما الباقي ففرّ مع الحاكم . ويضيف البيان أن ما تبقى من السكان استجاب لنداء حسان بإخلاء المدينة بعد تدميرها وتقويض أركانها ، وقد جاء ابن الاثير برواية مماثلة : جاب حسان المدينة برجاله فروّع السكان الذين استجابوا لطلبه بتهديم المدينة .

واختفت قرطاجة لتأخذ تونس مكانها على الفور . وأمر حسان نفسه بشق قناة تصل بحيرة المدينة بالبحر . فليس بوسع الخليفة الذي ليس له منفذ على البحر أن يبقي على مرفأ قرطاجة المنعزل بحيث يصعب، الذود عنه .

انه حدث مهم ، يعتبر عملاً عسكرياً صغيراً جرى تنفيذه بسرعة . فمن الواجب اقفال آخر منفذ تستطيع منه بيزنطة ارسال امداداتها . مما يذكرنا بحصار سبيون اميليان لقرطاجة وما تميز به من قوة كفاح وحماسة شعبية لدى البونيين ، كما يذكرنا بأستروبال التي ألقت بولديها في الهيكل الملتهب ثم قفزت وراءهما في اللهب. كانت قرطاجة في ذلك الوقت قلب المغرب النابض. أما في سنة ٧٩٨ فأصبحت ثانوية ولم تعد هي التي تقف في وجه الفاتحين العرب .

وتطلع الفاتحون الى القيروان جوهرة الصحراء وهي المدينة الواقعة على الطريق المؤدية الى مصر وتصلح أن تكون مركزاً للهجوم والتراجع . كما انها تواجه الأوراس . ففي هذه المدينة وليس في غيرها من المدن الشمالية يكمن العدو المهيب الجانب، ذاك العدو الذي لا يمكن القضاء عليه كلياً في المرتفعات الجبلية

والوديان العالية الممتدة نحو الشمال . تلك هي نوميديا الرومانية والقرطاجية بالضبط .

ومما لا شك فيه أن أقوى صدام وقع في السنوات العشر الأولى للفتح العربي كان حول الأوراس . وظلّ الوضع كما هو عليه عندما عاد البيزنطيون للاستيلاء على المنطقة . وقد ركز سليمان الخصي قائد البيزنطيين معظم جهوده العسكرية على الأوراس ونوميديا . ولم تتكرر هذه الظاهرة مرّة أخرى ، ولم يعد أحد يأتي على ذكر نوميديا إلاّ لماماً في تاريخ المغرب . ذلك أن قلب المغرب النابض قد تحوّل الى مكان آخر .

نوميديا الطبيعية

نوميديا التي أصبحت اليوم بلاد الشاوية متميزة منذ القدم من حيث طبيعة أرضها ومناخها .

أما الأوراس فقلعة جبلية يسهل الدفاع عنها لأن عبورها شاق . ويطلق اليوم على المنطقه الممتدة شمالاً اسم مرتفعات قسنطينة ولكن الاسم لم يحسن اختياره . ذلك لأنها ليست كالمرتفعات الأخرى الممتدة من هدنة الى مولوية . وبامكان كل مسافر بالقطار بين قسنطينة وبسكرة أن يلاحظ ذلك . فهي سهول عالية تمتد على شكل أفقي امتداداً محدوداً متقطعاً تتخلله بعض السلاسل المرتفعة أحياناً . فهناك يتداخل السهل والجبل بصورة غير منتظمة ليكوّنا طبيعة مميزة ، تختلف بالطبع عن جبال القبائل .

كما وتتميز المنطقة بمناخها الخاص ، وهي معروفة بسهولها ذات الجو الجاف الغنية بالمراعي على نحو مختلف عن المرتفعات الهضبية نفسها. وهي غنية بمصادر المياه، وتجتذب التجمعات البشرية المتطلعة لحياة الاستقرار. وهكذا يمكن اعتبارها منطقة متوسطة بين بلاد القبائل والمرتفعات العالية .

وفي العصور القديمة وقبل ظهور الجمل الذي نقل الحياة البدوية للسهوب

والصحارى كانت نوميديا بلاد البداوة الأولى .

كما كانت نافذة لموريتانيا تقف منها في وجه الفتح العربي . يبدو هذا الأمر واضحاً رغم ضآلة المعلومات التاريخية في هذا المجال ورغم صعوبة الحديث بدقة عما جرى في تلك الحقبة .

وليس ذلك بسبب الغموض والابهام اللذين اكتفا كتابات المؤرخين العرب عن العلاقات العربية البربرية فحسب ، بل لأننا لا نملك معلومات كافية تسمح لنا بغربلة ما أورده هؤلاء عن نوميديا في القرن السابع .

ويعتبر تاريخ نوميديا من اصعب الدراسات حـول المغرب لأنها سارت في طريق يصعب تتبعه .

نوميديا في العهدين القرطاجي والروماني .

نتتبع الآن مسيرة نوميديا في عصر قرطاجة وروما. كانت في البداية موطن البدو الرحل ، الذين لم يعرفوا الإبل والخيام ، وكانوا يستعملون في تنقلاتهم بيوتاً من القش ذات عجلات . (تدعى مباليا كما سماها القدماء) . لقد كان سكانها مجموعة من القبائل الكبيرة المنضوية تحت لواء امراء شديدي البأس من أمثـال مسنيسا وصفاقس وجوغرتا .

وتعرّضت نوميديا لتحول كبير في عهد الامبراطورية الرومانية . وأصبحت البلاد مركزاً للزراعات المستقرة . وفيها أحرزت السيطرة الرومانيـة على نجاحاتها الكبيرة وقامت المدن الكبرى على الهضبة العالية أو في الأودية العالية شمالي الأوراس. كما قامت المدن أيضاً على سفوح الجبال ومنها تافيستا ومسكولا وباغاي وتمجاد ولمبز وتبنه. وهناك كان مركز الثقل في قوة افريقية العسكرية حيث كانت تتمركز إحدى الفرق التابعة للجيش الروماني الثالث بصورة مستمرة . ولو اتجهنا أكثر نحو الشمال لوجدنا مدناً اخرى فوق الهضبة العالية مثل مادورا موطن القديس اغسطينوس وأبوليا . لقد اصبحت المنطقة مختلفة

كل الاختلاف عن نوميديا التي ألفناها ، سوى ان الرومان حافظوا على اسمها بعد اختفاء البدو الرحل . في نفس الفترة لم يستطع الرومان السيطرة على موريتانيا ، جبال القبائل حالياً ، بصورة كلية ، فالآثار الرومانية فيها نادرة . وذلك على الرغم من اراضيها المروية وامكانياتها الزراعية . ولو تعمقنا في الأمر لما استغربنا هذه الظاهرة . فالفلاح حيثما كان لا يتخلى عن أرضه بسهولة . أما البدوي فليس له جذور ولا يخشى جانبه إلاّ في الحرب في حين أن حياة النظام والاستقرار والأمن من شأنها أن تقضي عليه تدريجياً .

ويوجد بمحاذاة الصحراء على المرتفعات العالية أراض زراعية لا تخفى على ذكاء الفلاح نظراً لوفرة المطر فيها . غير أنها في نفس الوقت مناطق يتطلع إليها رعيان الماشية الرحل. لذا تعرضت لمصير تقلب بتقلب الانظمة السياسية . ففي عهد السيطرة الرومانيـة — بعيداً عن الجيش الثالث — كانت نوميـديا بلد المحراث والبساتين . بساتين الزيتون بنوع خاص.فقد كانت افريقية الرومانية أكبر مصدر للزيت في عهد الامبراطورية . وقد عثر علماء الآثار على بقايا قرب الزيت الافريقي موزعة عـبر العالم المتوسطي . وأصبحت الملكية الزراعيـة معتمدة بالدرجة الأولى. فالفلاح الصغير الذي يملك حقله يجدّ في تنويع انتاجه ولا ينسى أن يستهلك منه القسط الأوفر لأنه يفكر برفاهيته قبل كل شيء . وقد لفتت الثورات الزراعية في أوروبا انظار الاقتصاديين لهذه الناحية .

وأضحت نوميديا بلداً يقطنه ارستقراطيون من لاتين وأشباههم يعيشون على استغلال الفلاحين . وكان هناك فارق كبير في مستوى المعيشة بين طبقة الارستقراطيين وطبقة الفلاحين . على أنه ليس بالفارق الوحيد . فهناك فارق عرقي او لغوي بالأحرى . اذ ظلت الطبقة الشعبية محافظة على اللغات القديمة من بونية أو بربرية .وهو أمر لا تصعب ملاحظته لأن هذا الموقف الخطر أدى لتفجر الدوناتية في القرن الرابع . انها ظاهرة مهمة تساعدنا على فهم التطور الذي لحق بنوميديا . لقد كان انفجاراً دينياً ليس بحثه من شأننا .

فوراء مظاهر التمجيد الدينية ، يوجد شيء انساني أرضي ، ألا وهي الكراهية بين الطبقات والأعراق. انها ثورة الطبقة الشعبية ، فقد كان المنتمون إليها يكرهون الأسياد والاغنياء ، فاذا شاهدوا سيداً فوق عربته يحيط به العبيد عمدوا لإنزاله وأصعدوا العبيد الى العربة مكانه وارغموه على السير على قدميه . ويفاخرون بأنهم دعاة المساواة على الأرض ويدعون العبيد الى الحرية .

تلك هي الثورة الاجتماعية التي قام بها الشعب ضد الامبراطورية الرومانية . على ان الدوناتية ليست هي التي قضت على الامبراطورية وإن ساهمت في زعزعتها. ولسنا هنا بصدد بحث أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية ، وجلّ ما في الأمر أننا تكلمنا على الدوناتية بغية إلقاء الضوء على ارض نوميديا وظروفها الاقتصادية في العهد الروماني .

وكما جرت العادة في المغرب كان من الضروري ان تقوم سلطة اجنبية جديدة لتطرد السلطة الاجنبية التي سبقتها .

وجاء دور الونداليين هذه المرة ، لكن افريقية في عهد هؤلاء لم تعرف المؤرخين . والقديس اغسطنيوس مصدر معلوماتنا الوحيد عن الدوناتية مات اثناء حصار الونداليين لهيبون .

وكل ما نعلمه علم اليقين أن تحوّلاً عظيماً قد لحق بنوميديا زمن السيطرة الوندالية . فجميع المدن الرومانية أو أكثريتها الساحقة قد دمرت تماماً ولم يعثر على آثارها إلاّ بعد خمسة عشر قرناً ، وكانت آثاراً عظيمة . ولكن لماذا لم تستمر الحياة كما كانت عليه في نوميديا ؟ مردّ ذلك للصراع بين مفهومين اقتصاديين : المراعي والزراعة . ذلك أن الزراعة قد ضعفت تماماً في عهد السيطرة الجديدة وأصبحت المراعي تشكل المورد الاقتصادي الأول. واذا بنوميديا تتحول – كما نلمح من خلال بروكوب – الى موطن للقبائل البربرية الكبرى الملتفة حول أمراء أقوياء . نذكر منهم يبداس الذي كان حاكماً للأوراس على ما يبدو ، وأورتياس

الذي حكم هدنة ، والاثنان من أسلاف كسيلة والكاهنة . ولكن ما الذي تميزت به القبائل البربرية في ذلك الحين ؟ هنا ايضاً تكمن الصعوبة .

بلاد الشاوية في الوقت الحاضر

ظهور قبائل الجمالين يشكل ظاهرة اجتماعية جديدة للحياة في نوميديا كما رأينا . ولكننا لا نعثر فيها اليوم على هؤلاء الرعاة .

واسم الشاوية مقرون بالخراف . والخراف والماعز حيوانات عنيت الشاوية فعلاً بتربيتها . واذا كانت هذه المواشي ترعى في السهول شتاء فإنها تنتقل الى الجبال صيفاً بحثاً عن الكلأ . وليس الشاوية بدواً بكل ما للكلمة من معنى بل هم أقرب لقاطني الجبال الأوروبيين .

وتتأرجح حياتهم بين السهل والجبل على مسافة محددة . كما يتجلى ذلك في مكان سكنهم . فهم يقيمون في الخيام (الشبيهة بالزناتية والعربية) صيفاً ، كما أن لهم قراهم التي تشابه القرى الزناتية والعربية لأنها أقرب لمخازن تبقى خاوية شهوراً طويلة ، ويودع فيها الشاوية متاعهم ومؤونتهم التي يعجزون عن نقلها الى أعلى الجبل حينما يقصدون اليه . وقراهم شديدة الشبه بقرى القبائل من حيث هندستها ، فبيوتها صغيرة متراصة ما كان أهلها ليبقوا عليها لولا أنها امكنة حصينة يسهل الذود عنها . ولا تعرف هذه المنازل أي طابع مدني . غير أن ما يفرقها عن بيوت القبائل عدم وجود الآجر في سطوحها بل هي ذات سقوف من التراب على غرار البيوت الصحراوية ، سقوف مهددة بالسقوط دائماً تحت عبء الثلوج لهذا يعنى الاهالي بجرفها عند الاقتضاء . ونظام السطوح طراز هندسي قادم من الجنوب من الشرق بتأثير الزناتة .

لكن أكثر ما تحذره الشاوية سواء في الجنوب أو الشمال هو البدوي العربي. وعلى ذلك دليل واضح في حفاظها على اللغة البربرية في الوقت الذي انتشرت فيه

العربية في انحاء المغرب . واذا كان الزناتيون أو العرب قد أثروا كثيراً في تلك البلاد فإنهم لم يستطيعوا طبع الشاوية بطابعهم نظراً لمناعة جبالهم .

وهكذا يكون ابن الشاوية نوميدياً أصيلاً لا يمكن اعتباره من الرحل ، وهو أمر ذو دلالة كبيرة . لأن الرحل هم الذين صنعوا تاريخ سائر المغرب وكوّنوا السلالات والأسر الحاكمة والجيوش المقاتلة . ذلك لم يكن شأن الشاوية أبداً . وليس مرد ذلك لضعف أبنائها عسكرياً فلهؤلاء مزايا مشهودة في الحرب ، لكن هذه القبيلة لم تستطع أن تجمع شتاتها الموزعة في القرى المقفلة لتكون كتلة محاربة .

ولمراكش ايضاً قرويوها وهم قبيلة الزناغة التي لا يزال ابناؤها حتى اليوم يحملون الطابع البربري . وهؤلاء ايضاً لم يتمكنوا من تأسيس أسرة حاكمة ذات شأن .

والأوراس في الجزائر من أبعد المناطق تأثراً بالحياة العصرية وهي أشبه ببقعة منعزلة .

وجملة القول ان بلاد الشاوية لم تكن في الواجهة ابداً ما عدا جزءاً واحداً منها .

الأوراس في القرن السابع

مجال الافتراض هنا كبير ، فالطبقة الشعبية الزراعية المنتمية للفرقة الدينية الدوناتية لم تزل من الوجود . واذا خفتت مطالباتها فلأنها استجيبت غير انها حافظت على طبيعتها الثورية العنيفة الى جانب تأثراتها الرومانية والمسيحية . ولعلّها فقدت من عنفوانها دون ان تفقد سمعتها المميزة بعد أن أصبحت مالكة لحقول الزيتون الشاسعة .

وهكذا تحولّت هذه الطبقة الشعبية نحو اتجاهات أخرى وبدأت تنتظم في قبائل وتنضوي تحت حكم أمراء أقوياء . وليس من المستبعد أن يكون هذا التحول مفاجئاً لأن الفوضى تقود الى الديكتاتورية . وهذه حقيقة يعرفها الناس منذ ارسطو. وكان لنوميديا القديمة جيران شديدو البأس ساهموا في نقل نظامهم إليها سواء عن طريق مباشرة أم غير مباشرة .

ولو نظرنا من خلال بروكوب لحملات الجيش البيزنطي في القرن السادس لوجدنا ان لنوميديا نوعين من الأعداء . سكان الأوراس أي قبيلة يبداس التي تعقبها البيزنطيون حتى أعالي الجبال ، هذا من جهة . ثم القبائل الصحراوية والطرابلسية في جنوبي تونس وشرقها وهي تحت سلطة امراء بربر آخرين من امثال انطلاس وكتزناس . وكذلك قبيلة لواته التي اعتمدت الجمل في الحرب وقصدت بعد هزيمتها الى الصحراء لتعيد تنظيم صفوفها ، وأحرز سليمان القائد البيزنطي نصراً حاسماً ضد يبداس واتباعه الأوراسيين ، في حين قتل في معركة خاضها ضد بني لواتة . هناك إذن فئتان من البربر كانت تتنازع فيما بينها بتحريض من البيزنطيين ، إحداهما فئة الزناتة الجمالين الكبار .

ويمكن تحديد مواقع الزناتيين شرقي الأوراس وجنوبها . لقد بدأ زحف زناتة ببطء ويبدو أنها لم تبلغ في القرنين السادس والسابع أبعد من أعالي الأوراس .

ولو صح هذا الافتراض لأمكن اعتبار نوميديا القديمة نقطة خطيرة من المغرب. وليس ذلك لأنها عرفت في عهد السيطرة الرومانية حشداً كبيراً من البشر والثروات ، بل لأن طلائع الزناتيين قد وصلوا إليها .

ليس هذا سوى محض افتراض على كل حال لكنه يتفق مع التقسيم الاثنوغرافي الذي أتى به ماسكوراي عن الأوراس. وفي الأوراس الشرقي– وهو أكثر انفتاحاً على الخارج– يطلق السكان على أنفسهم اسم ولد جنة ، وجنة هو

الجد الذي تنتسب اليه الزناتة .

أما سكان الأوراس الغربي فهم مختلفون ولا ينتسبون لجنة وليس لهم سوى علاقات بسيطة مع جيرانهم الشرقيين ويعتبر هؤلاء النموذج الأول لسكان الجبال بين الشاوية . وفي موطن هؤلاء نجح مسكوراي في البحث عن الذكريات الرومانية .

ويتفق افتراضنا هذا ورواية ابن خلدون حين يحدثنا عن الاصطدام الكبير بين الفاتحين العرب وأمراء البربر حول الأوراس. وكل ما ذكرناه يدل — حسب رأي ابن خلدون — أن طائفتين من القبائل كانت تقطنان الأوراس في القرن السابع وهما طائفة الزناتة — البتر من جهة والبرانس من جهة أخرى .

الاصطدام الحاسم

رأينا ان كسيلة والكاهنة كانا طليعة زعماء المقاومة البربرية للفتح العربي . وقد استطاعا السيطرة على بلاد المغرب لسنين طويلة . ويصل بينهما وبين اسلافهما الذين ذكرهم بروكوب وكوريبوس ما ينيف على القرن . ونحن لا نعرف شيئاً عن عالم البربر من سنة ٥٥٠ وحتى عهد كسيلة .

حتى أن كسيلة والكاهنة نفسهما ليس لهما تاريخ واف . فذكراهما ظلت مبهمة في فولكلور الأوراس وتحدث عنهما كتاب العداني الذي نشره فيرو . كما تعقب ماسكوراي آثارهما عبر الأساطير والأشخاص الخياليين ليتسنى له استخراج حقيقتهما . وكان اسماهما معروفين أبعد من الأوراس في السودان وبلاد طوارق أفوراس جنوبي تونس وفي تلك المنطقة بقايا قصر يدعى بقصر كسيلاته . ويظن الطوارق هناك أن كسيلة كان امرأة لأن اسمه مقرون باسم الكاهنة .

وكان كسيلة والكاهنة من الوثنيين ، لذلك لم يعطف عليهما المؤرخون

المسلمون . لكنهم اتفقوا على سرد أخبارهم فوردت متشابهة الى حدٍّ ما لدى كل من ابن عبد الحكم والنويري وابن خلدون والبيان وابن الاثير .

كسيلة

خلفت الكاهنة كسيلة لكنهما لا ينتميان لقبيلة واحدة . فكسيلة من بني أوربة الذين يرجعهم ابن خلدون الى البرانس. ويؤكد انهم ينتمون للبرانس منذ اكثر من ثلاثة وسبعين عاماً . وقد سبق لنا أن اشرنا لأهمية التمييز بين البرانس والبتر .

ويقول ابن خلدون ان سكرديد الرومي كان مساعداً لكسيلة وكلاهما اعتنق النصرانية . ويذكر لنا علاقته « بالفرنجة » أي اللاتين . ومن المرجح أن كسيلة وأتباعه حافظوا على علاقتهم بالمسيحية واللاتينيين.

وتاريخ كسيلة مركز في بلاد الاوراس فقد تمكن من قتل سيدي عقبة بجوار بسكره جنوب غربي الأوراس. وفي الشرق بين القيروان والأوراس فقد عرشه وحياته .

ويؤكد مسكوراي أن بلاد الأوراس الغربية كانت على صلة مع بني أوربة وكسيلة ، أما ابن خلدون فلا يشدد على وجود هذه القبيلة في الأوراس أو أي مكان آخر فالدقة في هذا المجال كانت تعوزه .

ويبدو من خلال روايته ان كسيلة وبني أوربة كانوا على صلة بالأوراس وبالتل الوهراني وبمنطقة تلمسان وحتى ممر تازة . وقد سبق لأبي المهاجر سلف سيدي عقبة ان سجن كسيلة عند «ينابيع تلمسان». وبعد انتصار العرب طاردوا بني أوربة حتى مولوية فعاش من بقي منهم في فلبيلس .

ليس هذا الأمر جديداً أو مدهشاً على كل حال، فقد كان الأمراء النوميديون أمثال صفاقس ومسيناسا وجوغرتا يتنقلون بين الأوراس ومولوية . وقد نزل سيلا في رشقون مرفأ تلمسان حين كان في طريقه لزيارة صفاقس .

فالهضاب العالية التي تفصل الأوراس عن مولوية كانت على الدوام رابطاً طبيعياً بينهما .

وجدير بالذكر هنا تلك القبور التي لا تزال آثارهـــا قائمة جنوب غربي تاهرت وهي قبور الجدّار ، القبيلة البربرية التي عاصرت الاحتـلال البيزنطي . ويورد بعض المؤرخين العرب انه قد عثر على كلمات باليونانية للجدار في القرن العاشر تقول : « أنا سليمان السرديقوس . ثار سكان هذه المدينة فأرسلني الملك إليهم وساعدني الله على قهرهم » .

ولا يسهل علينا بالطبع تصديق كتابات كهذه نقلت إلينا من القرن العاشر لاسيما وان المعارك التي قادها سليمان وأوردها بروكوب وقعت في الأوراس . وليس من المستبعد على كل حـال ان تكون احدى الأسر البربريـة قد وسعت سيطرتها في الشرق فبلغت الأوراس وحـدود افريقية البيزنطية . كما أن الآثار التي بقيت على الجدار قد احتاجت للفن البيزنطي . فهل يصح الاعتقاد بأن لكسيلة وبني أوربة صلات بالجدّار ؟ ليس هذا مستحيلاً ، غير انني اعجب من اغفال افتراض كهذا ليس بالطبع مؤكداً .

لكن من المؤكد أن بني أوربة ينتمون للبرانس المتصلين باللاتين والمسيحية . ولعل الانتصار على سيدي عقبـــة كان انتصاراً للبيزنطية أكثر من أي انتصار بربري آخر . لا سيما وإنه لفرط أهميته أصبح له صدى كبير في العالم الاسلامي ، وقد أعطى المؤرخون العرب عن كسيلة صورة حية .

ألقى عقبة أمير الجيش العربي وعامل الخليفة القبض على كسيلة واقتـاده معه في دورته عبر بلاد المغرب وأساء معاملته كثيراً ؛ ويروى عن تلك المعاملة أن القائد العربي أمر كسيلة بذبح خروف قدم له هدية فأجاب كسيلة بقوله : أصلح الله الأمير كيف لي أن أذبحه ولدي الكثير من الأصحاب والأعوان الذين يستطيعون القيام بهذه المهمة . فشتمه عقبه ، فانسحب كسيلة غاضباً وذبح الخروف ومر بيديـه

الداميتين على لحيته . فاقترب منه بعض الرجال العرب وسألوه : ما تفعله أيها البربري ؟ فأجاب : هذا مفيد للّحية . وسمع شيخ عربي كلامه فقال ، ليس هذا من أجل لحيته لكنه تهديد من جانب البربري . قد تكون القصة منحولة ، لكن العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربي من الأمور السارة .

ونفذ كسيلة وعيده هذا سواء كان منحولاً ام صحيحاً . فقد فاجأ عقبة على سفح الأوراس بجوار بسكره في واحـة تهودة . وأيقن عقبة أنه ميت لا محالة فصاح : انني تواق للشهادة ، وصلـّى ركعتين وكسر غمد سيفه وأمر فرسانه بالنزول أرضاً والمحاربة حتى الموت فحاربوا ولم ينج منهم أحد . كان ذلك سنة ٦٣ للهجرة (٦٨٢ – ٨٣) وفي تهودة اليوم ترتفع قبة تذكارية يقصدها السياح القادمون من بسكره .

ويقول النويري : وزحف كسيلة على رأس جيش كبير على القيروان فاحتلها واحتل افريقية وأصبح كما وصفه البيان سيد افريقيـــة والمغرب بأسره .

واستمر حكمه طيلة أربع سنوات أو خمس . حتى جاء القائد العربي زهير سنة ٦٧ للهجرة (٦٨٦ – ٨٧) ليقود المعركة ضده قرب القيروان . وكان نزال رهيب مني فيه الطرفان بخسائر جسيمة وانتهت المعركة بصرع كسيلة . ويؤكد المؤرخون العرب أنها كانت المعركة النهائيـة لأن الجيش العربي تعقب البربر بعيداً . ويصعب علينا تصديق ذلك لأن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يذكرون أن العرب اضطروا مرّة أخرى للانسحاب من افريقية وان زهـــير قتل في طرابلس أثناء انسحابه .

الكاهنـــة

بوفاة كسيلة انتقلت الزعامـة لقبيلة أوراسية أخرى هي قبيلة جراوة التي كانت مسيطرة على الأوراس الشرقي . وحافظ المغرب على النوميديين كرؤساء له ،

حتى ان جراوة أعرق في أوراسيتها من أوربة .

يحدد ابن خلدون مواقع الجراوة في الأوراس . لكن هذه القبيلة ليست من نوع أوربة إذ أنها لا تنتمي للبرانس بل الى البتر الزناتيين . ويدعو سكان الأوراس الشرقيون أنفسهم حتى اليوم بأبناء جنة أي رديف الزناتة . وبنو جراوة ليسوا كذلك من النصارى كبني أوربة وانما هم يهود . كما انهم جمالون رحل ليس لهم صلات بالمغرب اللاتيني وقد أمّوا البلاد من الخارج وأصبحوا أسياداً لها .

وتتزعم هؤلاء امرأة تدعى الكاهنة . ولزعامة المرأة في المجتمع البربري مدلول مقدس . فهي تعنى بالسحر . ويقول ابن خلدون : قبيلة جراوة من البربر اليهود الذين استوطنوا الأوراس واليهم تنتمي الكاهنة . وهي امرأة بارزة عنيت بالخوارق وكان لها شأن كبير .

سنة ٦٩ للهجرة (٦٨٨ — ٦٨٩) قام حسان ابن النعمان الغساني حاكم مصر بمهاجمة الكاهنة وتمركز على شاطىء نهر مسكيانه شمالي الأوراس . وقادت الكاهنة جيشها لمجابهة المسلمين وقاتلتهم بعناد وحملتهم على التراجع بعد ان قتلت منهم الكثيرين ... ولم تضع فرصة في مطاردتهم ونجحت في اقصائهم الى خارج منطقة قابس وأرغمت قائدهم على اللجوء لمنطقة طرابلس . وهناك استطاع حسان الصمود وراء خطوط محصنة دعيت بقصور حسان ، وقضت الكاهنة خمس سنوات في السيطرة على افريقية وفي حكم البربر .

وفي عام ٧٤ (٦٩٣) شن العرب هجوماً عنيفاً بقيادة حسان نفسه استطاعوا فيه قهر البربر وقتلت الكاهنة نفسها في مكان يدعى اليوم ببئر الكاهنة .

ويورد المؤرخون العرب تواريخ دقيقة لكنها ليست موحدة . اذ تتضارب

رواياتهم حول مصرع الكاهنة فيقول ابن الأثير انها قتلت سنة ٧٤ أو ٧٩ للهجرة. ويقول البيان ان موتها كان عام ٨٢ أما القيرواني فيذكر انها ماتت سنة ٨٤ . ولو سلمنا بأن مصرع عقبة كان في عام ٦٣ ، فيمكن القول ان نوميديا قادت المغرب بنجاح طيلة عشر سنوات على الأقل وعشرين سنة على الأكثر وفي ظروف صعبة للغاية . وكسرت ثلاث مرات شوكة الجيش العربي القوي الزاحف من مصر . وهي نتيجة لا يستهان بها .

ولا يذكر المؤرخون العرب — بجفافهم المعتاد وعدم اهتمامهم بتحليل الأسباب — عن ذلك الشيء الكثير ، غير أنهم اتوا ببعض التفاصيل التي تلقي ضوءاً على الوضع .

حين قدم عقبة الى الأوراس وجد ان الروم وسكان البلاد قد التجأوا لمدينتي باغاي ولمبيز المحصنتين ، وتمكن من متابعة زحفه بعد مناوشات لم تكن كلها ناجحة .

وفي مسيرته غرباً باتجاه تاهرت خاض معركة ضد الروم والبربر ولم يتمكن هؤلاء من مقاومة المسلمين .

وفي طنجة طلب عقبة الى حليفه الجديد يوليان ان يرشده الى المكان الذي يستطيع فيه العثور على زعماء الروم والبربر . وحين عودته اقترب عقبة بجيشه الذي تضاءل من تهودة فقرر الروم ان يوقعوا به فأقفلوا أبواب مدينتهم وأمطروه بوابل من الأسهم والحجارة في حين كان يدعوهم للإيمان بالله وما إن وصل الى قلب البلاد حتى استنجد الروم بكسيلة .

تلك تفاصيل اوردها النويري ، لكن جميع المؤلفين يجمعون على الربط بين البيزنطيين والملوك النوميديين .

وفي المعركة التي قتل فيها زهير كسيلة « كان عليه ان يواجه جيشاً من البربر والروم » . « وبعد انتصار المسلمين في المعركة بقي عليهم ان يتعقبوا الروم

والبربر وقتل في المعركة خيرة جنود المشركين » .

وحين قتل زهير وهو يتراجع في المنطقة الطرابلسية لم يكن البربر هم الذين قتلوه وانما الروم الذين استعانوا بأسطول منظم ، أي البيزنطيين المتعاونين مع البربر . ويقول البيان إن الروم انتهزوا الفرصة حين علموا بتوجه زهير من افريقية نحو برقة .

وكان للكاهنة كما يقول البيان ، ولدان واحد بربري والثاني اغريقي . وهو أمر يسهل تفسيره . فقد كان للبيزنطيين حتى ذلك الوقت كتائب مبعثرة في الحصون التي لم يستطع العرب اقتحامها . وظلت وسائل الاتصال حرة بين قرطاجة وبيزنطة . وكانت المدن لا تزال بيزنطية قلباً وقالباً . فعمدت بيزنطة لتمويل البربر وتسليحهم مع إسداء النصيحة لهم . وهكذا صادف العرب في بلاد المغرب شبكة مقاومة تضم اللاتين والبربر من رحل وحضر. ولكي يستطيع حسان مجابهة الموقف احتل قرطاجة لكن النجاح لم يكتب له لأن الكاهنة انتصرت عليه واضطرته للانسحاب من افريقية . لقد كان الإغريق والرومان مجرّد حلفاء اما ادارة البلاد فكانت في يد الملك النوميدي القائد العسكري الوحيد . لقد حقق كسيلة والكاهن حلم مسيناسا ذلك الحلم الذي تطلع الرومان اليه بعد تدمير قرطاجة البونية . لقد كانا في الواقع ملكين على قرطاجة يقودان الجيش النوميدي وما تبقى من الجيش البيزنطي يؤازرهما سكان المدن . وهذا سبب قوتهما . فلقد تمكّنا من تحقيق وحدة المغرب لفترة من الزمن قصيرة .

هناك ظاهرة مشابهة نجدها في تاريخنا الأوروبي . فقد كوّن الفرنجة فرنسا بالتعاون مع رجال الدين الغاليين والرومان استناداً لتأييد البلاد . وهكذا استطاعت فرنسا الصمود في وجه الغزاة الجرمانيين . وقد توصل المغرب لنتيجة مماثلة ولكن نجاحه كان مؤقتاً .

عوامل الانهيار

يمكننا أن نفهم ما جرى من خلال المؤرخين العرب ، وأهم ملاحظة أتوا بها هي ان الجراوة كانوا من البتر . ويقول ابن الأثير : إن الكاهنة حين اصبحت سيدة على كل افريقية ، أساءت ادارة البلاد وارتكبت الفظائع والمظالم .

وقد كتب احد المبعوثين لحسان يقول له : البرابرة متفرقون الآن فأسرع بالمجيء . وقام حسان بحملته الثانية الناجحة .

ويضيف ابن الأثير ان كثيراً من الروم استعانوا بحسان على الكاهنة ولقيت طلباتهم في نفسه وقعاً حسناً .

ويقول ابن خلدون في نفس المعنى : تخلّى البربر عن الكاهنة ليقدموا خضوعهم لحسان واستفاد القائد العربي من هذا الموقف وتمكن من اخضاع الفئات الباقية التي ظلت على ولائها للكاهنة .

وبدون ان يدلي المؤرخون باسم المعركة أعطوا عنها العديد من التفاصيل . عشية المعركة أخبرت الكاهنة ولديها وخالداً العبسي أنها «مقتولة لا محالة ، وكأنها ترى رأسها يركض به فارس الى جهة المشرق . فقال لها خالد وابناها: إذا كان الأمر كذلك فاتركي البلد لحسان وارجعي بنا . فقالت كيف افر وأنا ملكة والملوك لا تفر ، فأقلد قومي عاراً الى مدى الدهر » .

وفي يوم المعركة « نزلت الكاهنة بنفسها ثائرة ناثرة شعرها ، وقاتلت حتى انهزمت » .

ويروي البيان ان الكاهنة خاطبت البربر قائلة بأن العرب « إنما يأتون افريقية طمعاً في اشجارها وثمارها ، ويقصدون المدن طمعاً لما فيها من الذهب والفضة ، ونحن إنما نريد من افريقية المزارع والمراعي والحيوانات ، فإذا ما

قطعنا اشجارها وخربنا مدنها وقراها أعرض العرب عن غزوها » . وأرسلت عمالاً الى كل ناحية يقطعون الشجر ويحرقون الغابات والأحراش ، ويهدمون القرى والمدن حتى أتت على كل ما فيها من عمران ، وتركتها خراباً يباباً من طرابلس الى طنجة ، وانعدم العمران الافريقي كله ، فاضطر كثير من البربر والروم الى الجلاء عن افريقية الى الاندلس وجزائر البحر الأبيض » ...

وقد أثار هذا المقطع الكثير من التعليق ، فليس من الممكن أن تحدث الكاهنة وحدها كل هذا الخراب في بلاد المغرب . وهناك كلام لابن خلدون يلقي ضوءاً على الخلاف القائم بين النوميديين وحلفائهم سكان المدن: يقول المؤرخ العربي «ان البربر لم يكونوا مرتاحين لتهديم ممتلكاتهم ». ويعني بهؤلاء المزارعين وسكان المدن والحضريين . فلم يلق هؤلاء زمن حكم البتر أي اهتمام لمصالحهم . ذلك هو النزاع الأزلي بين البدو والحضر وهو سبب رئيسي لازدواجية الروح المغربية .

والغريب ان الكاهنة قد ألهبت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عادتهم في الكتابة . ويقول البيان ان الكاهنة أبقت لديها بعد معركة مسكيانه التي انهزم فيها حسان — « خالداً بن يزيد العبسي ليكون لها واسطة عند العرب وكان وسيم الوجه حسن الطلعة ، وقد أرادت ان يكون لها محرماً لتتمكن من التحدث اليه كإبن لها ، وهي له كأم ، ولم يكن أمامها ما يحقق هذه الرغبة إلا طريق الرضاع ، فقالت له: أريد ان ارضعك لتكون أخاً لولدي، فقال لها : كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع ؟ فقالت له: اننا جماعة البربر لنا رضاع نتوارث به إذا عملناه ، ثم عمدت الى سويق من دقيق الشعير فلتته بزيت ثم جعلته على ثدييها ثم أمرت ولديها أن يأكلا مع خالد من ذلك الدقيق الملتوت بالزيت ، فقالت لهم : « انتم إخوة من الرضاع ».

واستدعت خالداً عشية المعركة الأخيرة التي فقدت فيها عرشها وحياتها وطلبت اليه أن يذهب الى الجانب الآخر بصحبة ولديها .

وبعد موت الكاهنة تمت الأمور على أحسن ما يرام بين الغالب والمغلوب : يقول ابن خلدون « إن حساناً عيّن ابن الكاهنة البكر قائداً للجراوة وحاكماً للأوراس » . أما البيان فيعطي رواية لا تناقض الأولى وان اختلفت عنها بعض الشيء : « وطلب البربر الصلح من حسان فاشترط عليهم ان يقدموا له اثني عشر ألفاً من المحاربين يكونون في صفوف الجهاد ، فرضوا بذلك ، وولـّى عليهم ابن الكاهنة وارسلهم إلى المغرب للجهاد يقاتلون الروم ومن لم يسلم من البربر ».

وقد أعاد التاريخ نفسه في مراكش وفي هذا القرن بالذات حين حارب مها أوهمو وهو زعيم قبيلة جبلية في بلاد زيّان، حارب الفرنسيين بضراوة ، ولما رأى أن لا أمل له بالنجاح ، نسج على غرار الكاهنة ، حيث انه لم ينضم شخصياً لصفوف الأعداء لكنه أمر أولاده بالانضمام اليهم وحاربوا في معركة قتل فيها ابوهم . بعد ذلك اصبحوا من أشد الناس ولاء واخلاصاً للجنرال بوميرو ، حسان الجديد .

وبالتحليل السيكولوجي لهذه الظاهرة يمكننا ان نفهم الامر حين نجد البربر لا يعرفون شيئاً عن الوطن ولا يعيرون أي انتباه خاص لنوميديا وطنهم الصغير أو لبلاد زيّان . على أن البربري مستعد لبذل حياته في سبيل عائلته وجماعته . والسؤال الآن: كيف يمكن الحفاظ على سلامة هذه الجماعة أو تلك العائلة؟ إن كل ظافر مستعد للاستعانة بأبناء البلاد إن هم أبدوا استعداداً للتعاون معه . فحين قالت الكاهنة لولديها: إذهبا، فبكما سيحافظ البربر على بعض القدرة. كانت تعني بذلك قبيلة جراوة التي تطلعت لإنقاذها عن طريق الخضوع . وإذا كانت هي نفسها عاجزة عن الانضمام لصفوف الاعداء فلا بأس إن امرت ابنيها بذلك فهذا واجبها المقدس . تماماً كما فعل أبناء مها أوهمو حين انضموا لصفوف الفرنسيين .

إن هذه الرواية عن الغزو الفرنسي لمراكش تلقي ضوءاً على سلوك الكاهنة كما رواه المؤرخون العرب . وما كنا لنصدق ما أتى به هؤلاء لولا ان التاريخ

أعاد نفسه في المغرب .

وليس تصرفاً كهذا أمراً مستغرباً في هذه البلاد ، لكننا نستهجنه نحن الذين سرنا منذ ثلاثة آلاف سنة من مفهوم المدينة القديمة الى مفهوم الوطن . وما تصرف الكاهنة ومهاأوهمو سوى رد فعل طبيعي لذهنية سياسية لم تتعد المفهوم القبلي .

وتصرف الكاهنة بربري بشكل عام وبتري بنوع خاص . فقد تبنت ابناً عربياً ليقوم بدور فعال في مأساة ايامها الأخيرة . فهو الذي سلّم القائد العربي ابني الكاهنة الأصليين . ونلاحظ في مجمل تاريخ المغرب تجاوباً واضحاً بين البرابرة البدو والعرب ، فبين الشعبين تشابه في نمط الحياة وطبيعة المشاعر ، وهذا ما يجعل فارق اللغة عاجزاً عن خلق الانفصال بينهما . واسطورة الكاهنة مثال حي على ذلك ، في الوقت الذي كان فيه الحضريون يقدرون مزايا الخلافة والحكومة النظامية والادارة والنظام والحفاظ على المكلفين وسائر العناصر اللازمة للحياة المدنية.

وهكذا تمّ الطلاق بين الأمراء النوميديين ورعاياهم المدنيين . ولم يحاول البدو والحضر في المغرب ان يتعايشوا فيما بينهم قط . وهكذا انتصر الفتح العربي واجتاز حسان العتبة بنجاح . واصبح بإمكان موسى بن نصير ان يأتي فلا يلاقي سوى بقايا قبائل لا نظام فيها . ولم يقابل بالطبع بخضوع كلّي ، وكذلك لم يجابه مقاومة ذات بال. فلم لا يمضي بالفتح الاسلامي إلى ما هو أبعد... إلى اسبانية .

ولنلاحظ أن ذلك كان آخر أثر لنوميديا في التاريخ ، فلم يعد يعثر عليها في الصف الأول .

ذلك لأنها تحوّلت تدريجياً فأصبحت بلاد الشاوية . وتبدد ما بقي من ثروات زراعية وفلاحين رومان في القرن السابع . وسادت حياة التنقل بين

الجبل والسهل . وتابع الجمالون الرحل الكبار (الزناتة) تقدمهم نحو الغرب ووجدوا في منطقة هدنة والمرتفعات الجبلية اجواء ملائمة . وما إن استقروا في بلادهم الزناتية تلك حتى سيطروا على الرحل الصغار من قاطني الأوراس وهضبة قسنطينة السهلية ، وهكذا تكوّنت في نفس الإطار الجغرافي بلاد الشاوية هذه التي نتطلع اليها الآن .



٢. الخوارج وتمردهم

فتح اسبانية

بعد حقبة الغزو في عهد كسيلة والكاهنة اختتمت حلقة جديدة في تاريخ الفتح العربي . لقد اخذ العرب بلبّ افريقية حتى أعماقها . فقد رضي الأفارقة بلا تحفظ بالحكم العربي واللغة العربية والدين الإسلامي .

وإذا كانت القوة قد لعبت دورها في هذا المجال ، فلم تكن في الواقع عامل النجاح الوحيد . ذلك أن متحضري افريقية ساروا وراء أحاسيسهم العميقة حين كانوا بونيين – طيلة ألف سنة – لديهم كل الاستعداد لاعتناق الإسلام . ثم إن هذا المجتمع المنظم قد لمس لمس اليد عجزه عن التفاهم مع البربر جيرانه واعدائه الطبيعيين لا سيما بعد سيطرة برابرة الشرق القادمين على ظهور جمالهم .

ومنذ ذلك الحين بدأ كل دماغ مفكر وكل محتاج للغة المكتوبة والأدب يميل إلى الإسلام دون تحفظ . تلك ظاهرة مهمة تفسر اعتناق المغرب كله لهذا الدين . ومهما علا شأن البربر من الناحية العسكرية ، فلم يكن لهم أي وزن على الصعيد الفكري .

وقفز الفتح العربي في بلاد المغرب قفزة يثير تفسيرها الفضول . فلو كان الفاتح رومانياً أو فرنسياً مثلاً لعني باستتباب الأمن والنظام وتثبيت أقدامه في البلد الجديد . أما الفاتحون العرب فلم يعنوا بذلك . وما إن استتب لهم الأمر في افريقية حتى وثبوا نحو سائر المغرب سالكين الطريق التقليدية في المرتفعات وفي

غور تازه ، لا همّ لهم سوى أن يسحقوا المقاومة التي يصادفونها في طريقهم وأن يشعروا الناس بقوتهم لتأمين المواصلات لهم . وفجـــأة عبر الفاتحون العرب مضيق جبـــل طارق وانقضوا على بلاد الاندلس ، مستخدمين تلك القبائل البربرية التي كان من شأنهـــا أن تهددهم من الخلف ، ولم يكونوا ليهتموا بتوثيق الصلات معها وانشاء نظام اداري على الطريقة الغربية .

لقد وجد العرب في اسبانية شبيهاً لإفريقية ، ذاك انها بلاد متحضرة منظمة ومجتمع مستقر حددت فيه أطر الدولة ونظام الجباية فضلاً عن توفر أسبـــاب الرفاهية . وكان العرب يميلون لفتح البـلدان المستقرة ولهذا استولوا في الشرق على سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر .

وقد تحدّثنا آنفا عما ذكره ابن خلدون بشأن الحضارات القديمـــة في مصر وبلادالكلدانيين التي غزاها العرب . ورأينا أن بلاداًكهذه معدّة سلفاً للخضوع وليست منفتحة على الثورة والتمرد .ولم يشأ العرب تنظيم البداوة لأنهم لو فعلوا ذلك فقدت هذه فعاليتها؛ فكيف يفتحون الأندلس لو قضوا على بداوة البربر ؟

هكذا استطاع العرب أن يقفزوا من افريقية ليحتلوا الاندلس . ولسنا هنا بصدد الحديث عن فتح الاندلس ، وقد سبق لنا ان قلنا إن الفتح العربي قـــد صادف استعداداً طيباً ، لقبوله لدى جميع البلدان التي تأثرت بقرطاجة وفينيقية من قبلها .

كتب «دوزي» تاريـخ الاندلس في العهد العربي ، وألقى ضوءاً على ظروف استعراب هذه البلاد و كذلك بلاد افريقية .

لم يكن الحاجز بين اسبانية والإسلام بمثل سماكته بين ســـائر الغرب ودين المسلمين . ومن اسبانية تسربت الينا بعض الافكار والمعارف العربيـــة ، فاللغة اللاتينية أو الرومانية على الاقل كانت تعاصر العربية . وكان الاندلسي مزدوج اللغة إلى حدّ ما .

ويقول دوزي ان الاندلسي كان يحتقر الأدب اللاتيني في حين كان شغوفـاً بالأدب العربي .

قد يبدوالامر مستغرباً بالنسبة الينا معشر الغربيين الذين أهملنا الأدبالعربي باستثناء رواية الف ليلة وليلة . أما الاندلسي فلم يكن شغوفاً بهذه القصـة بـل بالشعرالعربي. وهناك الكثيرون من المستشرقين المعجبين اعجاباً شديداً بالمعلقات وسحرها ، وما تغنّت به من خيل وحب وحسان وخمرة (كان ذلك قبـــل الإسلام) . ذلك ما كان يثير حماسة الاندلسي .

ثم إن اللاتينية كانت ميتة والإسبانية لم تنشأ بعد ، في حين كانت العربية في أوج حياتها .

ومهما يكن من أمر فإن هناك حقيقة واقعة : لقد باع الاندلسي كل الأدب اللاتيني من أجل القصائد العربية . وهي سلاح ماض يخلب الألباب .

وهكذا كان المغرب في العصر الوسيط الاول محاطاً بمركزين حضـــاريين إسلاميين يبعد واحدهما عنالآخر ، وهما القيروان وسائر مدن افريقيةالقديمة من جهة ، وقرطبة وسائر مدن الاندلس من جهة ثانية .

وبين هذين المركزين طوائف من القبائل المشتتة التي لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه . حتى جاءت ثورة الخوارج الخليقة بأن ندرسها لما كان لهـا من أثر عظيم على تطور تاريخ فرنسا .

الخوارج

تحتل معركة بواتييه التي قضى فيها شارل مارتيل على الجيش العربي عام ٧٣٢ مكاناً مشرفاً في التاريخ الفرنسي بينما يذكرها المؤرخون العرب باقتضاب . فقد ورد في البيان : « استشهد في المعركة حاكم اسبانية عبد الرحمن مع عـــدد من

اتباعه » . وأورد ابن الأثير أن « عبد الرحمن قام بحملة جديدة على بلاد الفرنجة استشهد فيها مع أتباعه . » فهو حدث لا أهمية له ، وهم على حق في ذلك إلى حدّ ما . ذلك ان الفاتح العربي قد مني بهزائم مشابهة في أماكن أخرى لكنها لم توقف زحفه حيث كان مستعداً لجولة أخرى، لكن جولاته توقفت هذه المرة . يقول كتاب تاريخ فرنسا الذي وضعه لافيس : « ان المنازعات الدينية بعيد معركة بواتييه قد خضت شعوب المغرب التي اعتنقت الإسلام . فانتفضت في عام ٧٤٠ وأهملت حملات الفتح الجديدة . » وحركة التمرد الجديدة التي بلغت أصداؤها بلادنا هي ثورة الخوارج التي احتلت مكانا مرموقاً في تاريخ بلاد المغرب .

ومذهب الخوارج هرطقة يسهل تحديد مكانها وتاريخها وظروف نشوئها . لكن هذه التفاصيل لا تفيدنا كثيراً .

ولكي نفهم مذهب الخوارج ينبغي ألاّ نعزله عن غيره لا بل يجب ان نقربه من الثورات الأخرى التي عرفها المغرب حيث نجد وراء الهيجان الديني انتفاضة للمشاعر الطبقية والعرقية . والخارجية أشبه بهرطقة مسيحية هي الدوناتية . وقد ولدت في عصر كان فيه كل شيء مطبوعاً بالطابع الديني . وقد شدّد ماسكوراي على وجود الشبه بين الدوناتية والخارجية .

فلهذين المذهبين من الناحية اللاهوتية نقاط شبه عديدة .

فما الذي كان في أساس الدوناتية ؟ هل هو اختلاف في العقيدة ؟ كلا بالطبع. وحقيقة الأمر ان صراعاً نشأ بين طبقتين من رجال الدين تشكك واحدتها بشرعية الأخرى . فقد رفض اتباع « دونات » ، اسقف المناطق السوداء في نوميديا ، الاعتراف بشرعية انتخاب صقليان أسقفاً على قرطاجة .

ويعتبر دونات أن صقليان انتخب من قبل جماعة من الكهنة سلمت الكتب والأواني المقدسة للسلطات الامبراطورية في عهد اضطهاد ديقلوسيان . هذا هو السبب الأساسي ، ولم تثر أية مشكلة عقائدية . انها صدام بين اشخاص .

الدوناتيون يرفضون الاعتراف بسلطة كهنة دون المستوى . وانطلاقاً من هذه المسألة البسيطة قامت الحرب الدينية التي هزت نوميديا في القرن الرابع . فالدوناتية ليست هرطقة إذن وإنما هي حركة انشقاق .

والمذهب الخارجي شبيه للدوناتية . ففي سنة ٦٥٦ نشب خلاف على الخلافة بين علي صهر النبي وبين منافسه معاوية . وقد خدع عليّ وقتئذ بقبول التحكيم بينه وبين خصمه فتخلى عنه نحو اثني عشر الفاً من جنوده . هؤلاء هم الخوارج . وهنا ايضاً نلاحظ الخلاف بين الأشخاص ، الصراع بين الأساقفة . ومنذ ٦٥٦ رفض الخوارج الاعتراف بشرعية حكم معاوية وخلفائه وانقطعوا عن الاهتمام بسلالة علي . واصبح لهم – كما يقولون – خلفاء خاصون بهم هم أئمة الخوارج .

وهكذا نلاحظ ان حركات الهرطقة كبدعة آريوس والزندقة مختلفة كل الاختلاف. فالهراطقة المسيحيون جادلوا في ألوهية المسيح وناسوته وفي وحدة المطلق وثنويته . ولا حاجة بنا للقول ان بين المذهبين البروتستنتي والكاثوليكي فوارق عميقة في العقيدة .

وقد عرف الإسلام بدوره في الشرق هرطقات حقيقية جادلت في جوهر العقيدة . أما في المغرب فلا. سواء في المغرب المسيحي أم في المغرب المسلم. وجميع الخلافات التي وقعت لم يكن للاّهوت شأن فيها. ففي المغرب فقر في الأفكار أو إهمال لها إلى جانب تعلّق شديد بالاشخاص . وفيه ايضاً روح التشدد والتمسك بالحزبية، وكذلك التطرف والاصرار على حصر المطلق في أمور فرعية بسيطة وذلك بعناد كلي لا يقبل أي تنازل أو اخذ ورد . وهي ظاهرة عرفت عند الدوناتية كما عرفت عند الخوارج .

وبوسعنا ان نطلع على مدى التعصب الديني لدى الدوناتيين في مبدأ الانتحار الجماعي المعروف لديهم . « فهم يقتلون أنفسهم بسهولة لا تصدق ، حتى يبلغوا الشهادة ويصعدوا إلى السماء كما يظنون . غير انهم يخشون مغبة قتل النفس احياناً فيرغمون أوّل قادم على ضربهم ليبلغوا بذلك الشهادة دون

الوقوع في خطيئة الانتحار . والويل للمسافر الذي يرفض الإقـدام على قتلهم. فسيكون مصيره الهلاك لا محالة » .

والخوارج متعطشون بدورهم للاستشهاد لكنهم لا يذهبون الى حدّ الانتحار. بل يكتفون بشن المعارك الشديدة من أجل عقيدتهم . لكن التضحية بالنفس سهلة جداً لديهم . ويقوم المتطرفون منهم (الصفرية) بأعمال مخيفة .

ونرى عند الخوارج المعتدلين (الإباضية) هذا الميل لشظف العيش والرغبة المطلقة في نكران الذات كلياً أمام الله .

فماسكوري سكوراي على حق إذن في ذكر الشبه بين الخوارج والدوناتية. لا بل إن الخارجية هي الدوناتية عينها منقولة من الاطار المسيحي الى الاطار الاسلامي. على أن الظروف الزمنية لا تغير في جوهر ظاهرة واحدة عند الجماعتين هي طريقة الإحساس بالذات الآلهية .

ولا حاجة بنا كما اظن لمعرفة المزيد عن الخوارج من الناحيـة الدينية . لاسيما وأن الناحية الدينية لا تهمنا بقدر ما نولي انتباهنـا للناحية الانسانية والمشاعر العلمانية التي تبدو لنا واضحة فور إزاحة الستار الديني .

وقد سبقت لنا محاولة استخلاص المضمون السياسي والاجتماعي للدوناتية . فليس صعباً ان نفعل الشيء نفسه بالنسبة للمذهب الخارجي .

يحدد ابن خلدون بما له من بعد نظر الأسباب العميقـة لانتفاضـة الخوارج فيقول : « انتشر مذهب الخوارج بسرعة في انحاء البلاد وقد اصبح لدى المنشقين سلاحاً ماضياً للهجوم على السلطة » . ويعني بالسلطة ، سلطة الخلافة بالطبع ممثلة بشخص الأمير الحاكم . « وجنـد المغامرون الخوارج أنصارهم من البربر المنتمين للطبقة الشعبية » .

إنها ثورة بربرية ديمقراطية ذات محتوى سياسي واجتماعي ، هكذا كانت الدوناتية تقريباً . لأنها ثورة الجماهير الشعبية . غـير أن هـذه الجماهير ليست

عينها لأن بين الخوارج والدوناتيين عدّة قرون . على أن مبدأ التقشف وحرمان الذات من العناصر التي تجمع بين هاتـين الطائفتين . ولا شك ان وراء هـذا أطماعاً خفية لا تهدأ .

وانها ايضاً انتفاضة البربري الأصيل ضد الدخـلاء ، وليس الدخيل هـذه المرّة حكم اللاتين وانما حكم الخلافة القادم من المشرق .

يبقى أن نحدد أصول هؤلاء الثوار الخوارج اذ لا تكفي نسبتهـم الى البربر بشكل عام لجلاء الأمور .

الخوارج من زناتة

أين كان مركز الثورة ، واين القبيلة او مجموعة القبائل التي رفعت رايتهـا فوق نوميديا بعد سقوط كسيلة والكاهنة ؟ يبدو لي أن الإجابة على هـذا السؤال أمر ممكن .

المؤرخون العرب كعادتهم أوجزوا القول وكانت كتاباتهم جافة . غير أنهم متفقون حول الوقائع ، الأمر الذي يمكننا من الوصول الى نتيجة .

اندلعت الثورة في طنجة خلف الجيش العربي الذي فتـح أسبانية . واتسع نطاق المعارك بعد ذلك على طول الخط الذي يصل بين القيروان وطنجة. ووقعت معركة كبرى « معركة النبلاء » على نهر شلف . ثم وقعت معركة كبرى ثانية قتل فيها كلثوم بمنطقة السبع . وفي الثالثـة ثأر العرب لنفسهم في القرن بجوار القيروان سنة ٧٤٢ . أمـا الواقعة الحربية الرابعة فنشبت ناحية الشرق حين استولى الخوارج على طرابلس . وحصل رد عربي عنيف بقيادة عبد الرحمن بن حبيب . على أن الأحداث البارزة وقعت كلها حول طرابلس وتونس وتلمسان بين ٧٤٣ و ٧٥٢ . ومن ٧٥٧ إلى ٧٥٨ كانت القيروان فريسة الحريق ، فقد استولى عليهـا الخوارج من بني ورفجومة ثم استولى عليهـا خوارج أخر . وكان رد الفعـل العربي بقيادة محمد بن الأشعث الذي انتصر في سرت بالمنطقة الطرابلسية واسترجع مدينـة القيروان . لكن حملتـه

فشلت في تلمسان،التي اصبحت لوقت ما مركزاً لنشاط ابي قرة اليفرني(٧٦٥).
بعدها استولى الخوارج على طرابلس ، وحاصروا القيروان . ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار تبنه في منطقة هدنة حيث حوصر الحاكم العربي عمرو بن حفص وقتاً طويلاً (٧٧٠) قبل أن يلقى مصرعه تحت أسوار القيروان . ووقع الردّ العربي تحت حكم يزيد غربي القيروان في المنطقة المحيطة بالأوراس في الزاب بتبنة وسكا فنيريا . وكانت نتيجته معاهـدة سلام (من ٧٧١ الى ٧٨٨) . وفي عام ٨٠١ ظهر أغلب الحاكم العربي الجديد ليؤسس اسرة الأغالبة وفي عهده عرف المغرب نحو مئة سنة من الهدوء النسبي .

لقد ملأت ثورة الخوارج الجزء الأخير من القرن الثامن الميلادي . ولم نتطرق في السطور السابقة لسرد حوادث تلك الفوضى العارمة وانما سعينا لتحديد مواقع الحروب .

كان ذلك في طنجة وسبع ومنطقة تلمسان وشلف وهدنة وجنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية ، أي في مختلف السهول والمرتفعات التي تكوّن بلاد زناتة . لقد كانت هذه البلاد مسرحاً لثورات الخوارج ابتداء من طرابلس حتى غور تازة .

ونلاحظ الطابع الزناتي أيضاً حين نستعرض الفئات المتنازعة . ولا شك ان عناصر مختلفة قد شاركت في تلك الهزات العنيفة ، بعضها مراكشية في بدايتها أثناء الانفجار الأول الذي وقع في طنجة . ويذكر البيان قبيلة برغواطة ويورد ابن خلدون ان أحد زعماء هذه القبيلة « احتل مركزاً قيادياً في جيش ميسرة » . ويصنف البيان قبيلة برغواطة في عداد الخوارج . لكن هؤلاء معروفون حق المعرفة . فقد تركوا دين الاسلام وأسسوا في بلاد الشاوية امبراطورية ترتكز على دين جديد غير الدين الاسلامي . وكان لهم منحى خاص .

ولا يغربن عن البال ان من الخوارج عناصر شرقية وعربية . واهم حدث

في تلك الحقبة وقع سنة ٧٥٠ حين انهارت خلافة الأمويين في الشرق وقامت خلافة العباسيين في مكانها . وكان لقلاقل الشرق اثرها على بلاد المغرب . فقد حصل نزاع بين الحكام العرب وتحالف بعضهم مع البربر . ومن الخطأ الكلي ان ننسى الصلة التي تجمع بين مشاكل المغرب ومشاكل المشرق . فقد استفاد الخوارج من الخضة التي عرفها الحكم العربي بتغيير السلالة الحاكمة ولم يمنعهم ذلك دون المضي قدماً وراء اغراضهم التي لا يصح ان نسميها قومية وإنما نقول انهم أطاعوا غريزة العِرق .

وشهدت منطقة القيروان من حين لآخر تدخل الصنهاجيين والكتاميين أي البرانس .

واستولى الصنهاجيون لفترة ما على بجة الواقعة في تونس حالياً .

وقد اشار ابن خلدون لوجود ألفين من الخوارج الصنهاجيين في عداد ثلاثة عشر جيشاً اشتركت في حصار تبنة . وهو عدد ضئيل قياساً على تقدير ابن خلدون حين تورط بإعطاء الأرقام في نفس الصفحة وقال ان عدد المحاربين قد بلغ ٣٥٠,٠٠٠ رجل بينهم ٣٥,٠٠٠ فارس . بعد ذلك لجأ أحد زعماء الخوارج ولم يكن صنهاجياً أو كتامياً لجأ الى كتامة حيث حوصر طيلة ثمانية اشهر . وواضح ان كتامة وصنهاجة قد اشتركتا في حركة التمرد حول منطقة الجبال .

وقد دعي ميسرة أول محرض على العصيان في طنجة بميسرة المضغري .

وقبيلة مضغرة من البتر حسب اعتبار ابن خلدون الذي حدد موقعها في ممر تازة « بالمنطقة الفاصلة بين فاس وتلمسان » وقال انها تحالفت مع الكومية المستوطنة في وهران وبنو مضغرة هؤلاء هم الذين انتصروا على كلثوم في معركة سبع الكبرى سنة ٧٤١ . « كانت رؤوسهم كلها محلوقة وكانوا يطلقون صيحات كتلك التي يطلقها الخوارج في الحرب . وتراجعت مقدمة كلثوم امام هجومهم الجارف وفقد القائد حياته ومعركته في ذلك اليوم » .

في صفحة ٢٣٨ من الترجمة الفرنسية لكتاب ابن خـلدون يضع المؤلف قبيلة مضغرة وحلفاءها تحت قيادة ميسرة لكنه يناقض نفسه صفحة ٢١٧ كما يخالفه المؤرخون الآخرون . لقد حلّ خالد بن حميـــد محلّ ميسرة على رأس جيش الخوارج . وهو الذي ربح معركة سبع على الأرجح وكذلك معركة شلف التي وقعت قبلها وهي التي دعيت بمعركة النبلاء لأن جميع الأبطال والشجعـــان والفرسان العرب قد ماتوا فيها. ويلقب ابن خلدون خالداً بن حميد بالزناتي .

وحول القيروان قادت قبيلة هوارة عصيان الخوارج ، والقبيلة كما ذكرنا من البدو المقيمين جنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية . وهي التي انتصر عليها حنظلة القائد العربي على أبواب القـــيروان في معركة القرن سنة ٧٤٢ . ثم عادت للاستيلاء على طرابلس وقتلت حاكمها . ومنذ سنة ٧٥٧ تولّت قبيلة ورفجومة وبعض فروع قبيلة نفزاوة قيادة عصيان الخوارج ، وقد سبق لنا ان قلنـــا ما يجب قوله عن ورفجومة ونفزاوة اللتين تقطنان شرقي الاوراس وجنوبه وهمـا من البتر .

وفي سنة ٧٦٥ ظهرت قبيلة بني يفرن في طليعة الخوارج ، وهم من الزناتيين الذين يساندهم البربر من قبيلة مغيلة بمنطقة تلمسان ، وقد اختاروا أبا قرة اليفرني رئيساً عليهم ، بل هو أبو قرّة المغيلي وقد نصبوه خليفة .

وقد سبق أن أتينا على ذكر المغيلة ولا يهم إذا كان ابو قرة من بني يفرن أو من بني مغيلة ، إذ كانوا يقيمون بجوار بعضهم في منطقة تلمســـان كما روى ابن خلدون. ويرجح ان قاعدتهم كانت منطقة شلف الواطئة ومدينة مأذونة الصغيرة ليس ببعيـــداً عن مضغرة التي نشأ فيها الخوارج . ويشير ابن خلدون الى الصلة الوثيقة بين هؤلاء : حـــلّ أبو قرة في مكان خالد بن حميد كرئيس على زناتة . وخالد هذا هوالذي أخذ مكان ميسرة . وهكذا نرى ان معركة الزعامة لديهم وقعت في غورتازه ومنطقة وهران وعلى المرتفعات التلمسانية :

« عند حصار تبنه رأى امير الجيش العربي عمرو بن حفص انه مطوق من

كل صوب ، فعمد لبث التفرقـة بين المحاصرين. وبما ان بني يفرن الزناتيين كانوا أشد القبائل البربرية بأساً سواء من حيث العدد أو الشجاعة في الحرب ، فقـد اشترى حياد رئيسهم ابي قرة بأربعين ألف درهم . وكافأ نجل ابي قـرة بأربعة آلاف لأنه نجح في إجراء المفاوضات . عندها تراجع بنو يفرن عن تبنه وانفك حصار القائد العربي » .

وبديهي ان « أواسط المغرب » كما يسميها ابن خلدون التي تضم ممـــر تازه ووهران والهضاب الوهرانية العليا كانت أكثر عدداً وأشد بأساً من المواطن الصحراوية المنعزلة في جنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية حيث قبائل نفـزاوة وورفجومة وهوارة . وتعتبر تلمسان قلب الخوارج النابض وهي ايضاً قلب بلاد زناتـــة .

ويمكننا القول بما لا يقبل الشك ان الثورة الخارجية كانت ثورة زناتية ، فيها دخلت بلاد زناتـة لأوّل مرّة مسرح التاريخ . وهنا ظهر أعرق الزناتيين على حدّ قول ابن خلدون . وبعد سقوط نوميديا كانت بلاد زناتة أوّل من رفـع راية المغرب المنكسة .

مذهب الخوارج مذهب ضد المجتمع

تتفق ثورة الخوارج ببعض ملامحها وطبيعة الزناتيين ، أي طبيعة البـدوي المعروفة .

فهو لا يستطيع الخضوع لسلطة موحدة ، مثال ذلك ان ميسرة قتل على يد جنوده . وكان له خلفاء من امثال خالد وأبي قرة ، غير ان احداً لم يكن ينظر نظرة جدية لهؤلاء الخلفاء . فأبو قرة نفسه لم يتردد يوم حصار تبنه في بيع قضيته مقابل ٤٠,٠٠٠ درهم .

وينقسم خوارج المغرب الى فرقتين: الصفرية والإباضية، وتمثل الصفرية التطرف،

والإباضية الاعتدال ، وهم أشبه بالبلاشفة والمناشفة تباعد بينهم كراهية عميقة الجذور . لقد هاجم صفريو نفزاوة وورفجومة مدينة القيروان بوحشية لا نظير لها ، وأثار الأمر حفيظة إباضيي زناتة وهوّارة فسارعوا الى طرابلس وحاربوا الصفريين واسترجعوا منهم القيروان .

ولعلّ المذهب الخارجي قد انبثق عن فئة من الساخطين ذات طبيعة ديمقراطية وديماغوجية . لكنها طريقة في التعبير لا تلائم هؤلاء .

في المدن مثلاً كان معظم المنتمين للمذهب الخارجي من الطبقة الشعبية الدنيا. حتى ان ميسرة كما وصفه ابن الأثير كان سقاء في طنجة وهو يمثل المذهب المتطرف لانتمائه للصفرية . ويمكننا القول ان وضاعة أصله وعدم خبرته وانعزاله السياسي كانت وراء ولايته القصيرة . ويقول ابن خلدون : « لقد تعرّض لغضب البربر فمات تحت أيديهم » . انها الردة السريعة وهي مألوفة لدى الطبقات الشعبية . ويبدو أن جماهير المدن لم تكن أكثر من خميرة ورصيد للمذهب الخارجي .

والمذهب الخارجي هذه الملحمة العسكرية اعتمدت ولاشك البدو الزناتيين وهم جنود بالولادة يأتمرون بأمر رئيس واحد . فلا بدّ لرجل كأبي قـرة مثلاً إلا وأن يكون أميراً . غير ان هؤلاء البدو سواء كانوا في السهوب او الصحارى يدفعون ثمن حيويتهم ونشاطهم غالياً ، حيث يعيشون حياة قاسية بائسة . لقد كانوا ثائرين على تلك الحياة الرغيدة التي يتنعم بها الفاتحون العرب شأنهم في ذلك شأن الجماهير الشعبية ، أي انهم بقول أدق كانوا يكرهون الحضارة ، ولم يكن انتصارهم سوى انفجار مدمّر لها .

ويذكر البيان أن الصفرية كانت تستبيح جميع النساء كما تستبيح إراقة الدماء وقد اقتسم الصفريون افريقية اقتسامهم لنسائها وثرواتها .

ويشدد جميع المؤرخين على الفظائع التي ارتكبت يوم استولت قبيلة ورفجومة على القيروان . ويقول ابن الاثير إن بني ورفجومة ارتكبوا جميع

الفظائع حيث سجنوا النساء والاطفال وربطوا سائمتهم داخل المسجد الجامع واوقعوا فيه أضراراً عديدة . كما شاهد الناس بعض افراد القبيلة وهم يقتادون امرأة الى داخل الجامع رغماً عنها . كانت تلك فضيحة كبرى قوبلت بالسخط من الجميع ،وقد حمل المؤرخون اصداء غضب الناس حتى ان الحادث هزّ مشاعر الخوارج الإباضيين المعتدلين .

وقد زحف اباضيو طرابلس من زناتة وهوارة لمحاربة بني ورفجومة وانتزاع بقايا القيروان منهم . على أن تدخل هؤلاء لم يكن بدافع انساني محض اذ ليس من المستبعد ان يكونوا قد شعروا بالحسد من اخوانهم في المذهب وارادوا ان يظفروا لأنفسهم ببعض الفائدة .

وكان لهذه الهمجية الخارجية آثار عملية ملحوظة . اذ يحدثنا ابن الاثير كيف ان العلماء ساروا في شوارع القيروان يحثون الناس على الجهاد المقدس ضد الخوارج منددين بأعمالهم الوحشية كاسترقاق النساء والأطفال وتقتيل الرجال .

عندها هبّ الناس لقتالهم تشجعهم نساؤهم على ذلك ، هبّوا رجلا واحداً لقتال الخوارج . لقد كان الخوف من المصير المحتوم حافزاً قوياً لهؤلاء الحضريين كي يقاتلوهم . وحتى الجماهير الشعبية في المدن التي تؤيد الخوارج باتت تنفر منهم لفرط همجيتهم .

لقد عرّض بنو ورفجومة سكان القيروان لجميع صنوف التعذيب والهوان، حتى ان الـذين ساعدوهم ندموا على ما فعلوه . وهكذا تظهر حقيقة التنافر الواضح بين البدو والحضر منذ عهد الكاهنة وعهد مسيناسا وكذلك في عهد الخوارج ، فسكان المدن متشبثون بحياة النظام والاستقرار على عكس البدو دعاة التهديم المطلق .

لقد فشل الخوارج في افريقية على الرغم من النجاح الكبير الذي حققوه ، فبعد معركتي شلف وسبع الظافرتين انهـزم هؤلاء في معركة القرن . ويشدّد المؤرخون على أهمية هذه المعركة وعلى التنبؤات التي سبقت وقوعها وفداحة

الخسائر التي حصلت فيها . لقد أراد الأمير حنظلة أن يحصي الأموات فعجز عن ذلك ، فأمر برمي عود من الطيب على كل جثة ثم جمعت العيدان فبلغ عددهـا مئة وثمانـين ألفاً . ويردد جميع المؤرخين مع حكيم مصري هو غيث بن سعد قوله : « بعد معركة بدر (وهي المعركة التي انتصر فيهـا النبي على القرشيين وأرسى دعائم الاسلام) وددت لو استطعت حضور معركة القرن» .

وظلت إفريقية مهدّدة في السنوات الطويلة التي تلت معركة القرن، غير ان العرب أعادوها في النهاية لسلطتهم من ناحية الشرق . وقد أقـدم الأمير العربي يزيد بين ٧٧٣ و ٧٧٨ على تقتيل بني ورفجومة بشكل مريع . حتى ان اسمهـا اختفى من التاريخ واصبحت فلولهـا من الضعف بحيث راحت تنضم لصفوف قبائل أخرى .

واستتب الأمر للأغلب الذي عينه هرون الرشيد حاكماً على افريقية ، وقد عمل هذا على إشاعة العدل في البلاد . واستطاع ان يحقق لنفسه سلطاناً مطلقاً لم يلق معارضة أو كراهية . واصبح ملكه إرثاً لبنيه من بعده وبدأت أجيال هذه الأسرة تتوالى على الحكم واحداً بعد الآخر ، طيلة القرن التاسع .
لقد كانت هذه المدن الافريقية القديمة معدّة منذ قرطاجة للحكم المنظم لو قيض لها مثل هذا الحكم .

ولم يأت الخوارج في إفريقية إلاّ بالخراب ، لهذا فشل مذهبهم وساعد على استتباب الأمر لصالح الفاتحين العرب . أما في ما تبقى من المغرب ، في تلمسان وتاهرت ومراكش فتختلف الحال . ذلك ان الخوارج تركوا فيها آثاراً دائمة رغم طبيعة الهدم التي عرفوا بها .

٣ـ فاس مملكة انبثقت عن الخوارج

تعد مملكة فاس أبقى آثار الخوارج وقدحكمها الأدارسة .

بعد ان فرغ ابن خلدون من كلامه عن منجزات ميسرة والانتصارين اللذين حققها الخوارج في شلف وسبع اضاف: إثر هذه الأحداث ظهر ادريس مؤسس الأسرة الإدريسية في بلاد المغرب . كان ذلك سنة ٧٨٨ بالضبط على حـدّ قول ابن خلدون . ثم ان ابن خلدون نفسه يحددظهور الأسرة عام ٧٨٦ . في حين يراه النويري في سنة ٧٨٨ .

فالصلة مع الخوارج واضحة وكذلك مع سقوط الامويين في الشرق وحلول العباسيين مكانهم .

ويشدّدالمؤرخون العرب على رفعة اصل ادريس ويقولون انه متحدرمن النبي محمدمن علي وفاطمة . كما يشددون على مناهضته للعباسين وهي مناهضة لم تحظَ بنتيجة ، وكذلك على حياته كلاجىء ومساعدة المصريين لـه على اللجوء للمغرب ليكون في مأمن من عدوّه العباسي . وكلها تفاصيل لا تهمنا كثيراً ، وجلّ ما في الأمر ان هذا المشرقي الذي طوّحت به ثورة الشرق كان ولاشك شخصية دينية مرموقة خليقة بالاحترام . ولم يذكر المؤرخون انـه كان بطلا في الحرب كما لم يقم بأي فتوحات ولم يخض معركة واحدة .

ولم يعمر طويلاً بعد اعتلائه العرش اذ توفي سنة ٧٩٢ بعد حكم دام اربع سنوات، وحصل بعد ذلك امر غريب، فإدريس لم يترك ذرية غير انه ترك امرأة حاملاً او قيل انه تركها . وانتظر الناس ولادة الطفل وكان ذكراً ، ويمكن الظن انه لو لم يكن كذلك لأمكن استبداله . واعتبر الطفل بعد ولادته بأيام خليفة محتملاً لوالده . ولقب بإدريس الثاني بعد ان اثبت قدرته على العيش . والمؤرخون العرب يجمعون على هذه القصة . ويقولون ان ادريس الجديد قد حظي بالبركة. ويقول بعضهم ان ادريس الأوّل مات مسموماً لكن الرواية ليست ثابتة . والمهم ان الفترة الفاصلة بين حكم الأول وحكم الثاني لم تسدها القلاقل والحروب،ويرى النويري ان الأغالبة في تونس لم يشأوا علناً مناهضة سليل الرسول. فما من احد في المشرق او المغرب الاّ ويكنّ الاحترام لهذه السلالة . والسؤال الآن:ما اسم القبيلة التي لجأت لبركة الادارسة لتنشىء حكماً مستقلاً .

تولى ادريس الاول الحكم في ظروف خاصة اذ لا نعرف اسم القبيلة التي ساندته للوصول الى السلطة ، بينما نعلم ان كل ملك مغربي لا بدّ وان يستند الى قبيلة واحدة ، القبيلة التي ينتمي اليها . شأن كسيلة وقبيلة اوربة ، والكاهنة وجراوة والفاطميين وكتامة والامراء الصنهاجيين وصنهاجة الى ما هنالك من اسماء لا تحصى . ويروي ابن خلدون ان ادريس الاول تحالف مع بني زواغة وزناتة وسدراته وغياثه ونفزه ومكناسه وغماره وسائر القبائل البربرية التي تقطن المغرب . ولو راجعنا كتاب ابن خلدون في مكان آخر وكذلك سائر المؤرخين لوجدنا انه اغفل عنصراً مهماً الا وهي قبيلة اوربة ، ثم قبيلة متغرة التي تعرّضت للوهن لكنها حافظت على استمرارها ، ثم مغيلة القاطنة منطقة شلف الواطئة ومأذونة وكانت من اشد اعوان الادارسة .

ثم نذكر حلفاء انضموا اليه في وقت متأخر أمثال بني يفرن ومغراوة تلمسان . لقد انضوت كتلة الزناتيين من طنجة إلى تلمسان وحتى شلف تحت اسم إدريس . ولكن ما هي النواة الأساسية التي قام عليها حكمه ؟

نشأ حكم الأدارسة في وليلي بإجماع كلّ المؤرخين . ويروي ابن خلدون أن إدريس ومولاه رشيد وصلا إلى وليلي سنة ٧٨٨ . وفيها نودي به ملكاً وقد جعل منها عاصمة له ، وفيها أيضاً خلفه ولده إدريس الثاني وفي وليلي اليوم لا يزال ضريح إدريس الأوّل محاطاً بالتبجيل والاحترام.

وليلي هي فلبيلوس القطاع المراكشي من تمجاد وجميلة الخ ... وهي مدينة رومانية تعتبر بعد طنجة العاصمة الثانية لموريتانيا الطنجية .

وفي « روض القرطاس » يرد اسم طنجة : سار إدريس الاوّل ومولاه حتى بلغا مدينة طنجة وكانت وقتئذٍ عاصمة مراكش وأمّ مدنها وأجمل هذه المدن وأعرقها تاريخاً ... ومكث إدريس ورشيد في طنجة بعض الوقت لكنهما لم يألفا جوّها فتابعا السير حتى وصلا إلى وليلي عاصمة جبال زرعون . وكانت المدينة محاطة بأسوار جميلة ذات هندسة قديمة ... ونزل إدريس بضيافة وليلي .

وهكذا بحث إدريس عمّن يؤازره في المدن الرومانية الواقعة في موريتانيا الطنجية واختار منها فلبيلس بعد تجربة.فأي معنى يمكننا إعطاؤه لذلك ؟

لا يستطيع المؤرخون العرب إفادتنا في هذا المجال ، لأنهم أسدلوا الستار على المرحلة التي سبقت الاسلام. وإذا كان ثمة من صلة بين المرحلتين فلا مجال لإيجادها واضحة لدى هؤلاء ، وعلينا أن نقرأ بين السطور كما هي عادتنا في مثل هذه الظروف .

يربط المؤرخون في بداية عهد إدريس – بين وليلي وقبيلة أوربة البربرية . ويروي ابن خلدون أن إدريس لما بلغ وليلي احتمى عند اسحاق بن محمد بن حميد أمير قبيلة أوربة ، أما إدريس الثاني فقد أوكل لمؤيديه من بني أوربة أرفع المناصب في مملكته .

ويتفق كتاب روض القرطاس في ذلك مع ابن خلدون حيث يقول «كان قد

مضى على وجود إدريس ستة أشهر في وليلي حين جمع زعيم المدينة عبد المجيد إخوانه وقبيلة أوربة لمبايعة إدريس سلطاناً » . « وكانت قبيلة أوربة أوّل من حيّى الملك الجديد وأوكل اليه القيادة والإشراف على أمور العبادة والحرب والمال » . وانضمت بعد ذلك سائر القبائل والقبائل الصغيرة التي ذكرها روض القرطاس .

ومن نافلة القول إن أوربة هي أورابة نفسها ، أي القبيلة الأوراسية الشهيرة التي قتلت سيدي عقبة بناء لأوامر كسيلة . وقد سحق العرب هذه القبيلة بعد هزيمة كسيلة ومصرعه . يقول ابن خلدون : قصد بنو أوربة بعد هزيمتهم الى المغرب الأقصى وما إن بلغوا هذه البلاد حتى اقاموا في وليلي وهي مدينة تقع على سفح جبل زرعون .

أما عن أصل أوربة فيقول ابن خلدون انهم من البرانس المتميزين عن جيرانهم الأوراسيين الشرقيين أتباع الكاهنة الذين هم من البتر الزناتيين . يعني ذلك انهم على صلة بالمستوطنين الصحراويين ذوي الطابع الطرابلسي . وكان بنو عربة يقطنون الوديان العالية المقفلة أي وادي الأبيض ووادي العبدي . ولا يزال أبناؤهم يعيشون في تلك المنطقة بخلاف ما يرى ابن خلدون من انهم غادروها . وبنو عربة هم الذين اختارهم ماسكوراي ليقتفي بواسطتهم آثار روما. ذلك انهم من سلالة الدوناتيين وهم نوميديون سابقون تأثروا كثيراً بعصور السيطرة الرومانية . وما لجوؤهم الى فلبيلس بعد ان هاموا على وجوههم في بلاد المغرب سوى دليل على استعدادهم للتزواج مع هذه المدينة الرومانية القديمة .

وهكذا نرى ان وراء بركة ادريس اكثر الشعوب الطنجية تمدناً . ومن الطبيعي ان تكون فلبيلس مركزاً لهم بعد قرن من الزمان كانت فيه طنجة منطلقاً للفتح العربي المتجه نحو اسبانية .

من البديهي ان الاندلس في الشمال كانت مركزاً لإشعاع الحضارة القديمة على مضيق

جبل طارق ، وهو مركز قديم جداً لا يعود تاريخه الى المدن القرطاجية والفينيقية وحسب وانمّا يتعداها ليشمل ترتسوس التي سبقتها . لقد كانت هذه مركزاً حضارياً في موريتانيا الطنجية قبل أن تعطيها روما اسمها هذا بوقت طويل . ومهما يكن من امر التنقيب عن الآثار في فلبيلس فإن حكام المناطق فيها كانوا يحملون نفس الاسم الذي حمله حكام سائر المدن الرومانية . لقد كان الكونت جوليان على حد رواية ابن خلدون سيد الجزيرة . ثم ان مضيق جبل طارق لم يصبح حدوداً الا منذ عهد ايزابيلا الكاثوليكية وبوديل وقبل ذلك كان صلة وصل . ولم تكن موريتانيا الطنجية سوى ملحق للحضارة الأندلسية . وفيها حضارة مدينة قديمة عرفت ظروفاً مشابهة لأفريقية الطرف الثاني للمغرب ، كما ان موقف السكان بقي على حاله . وهو موقف نستشفه من كلام المؤرخين العرب على جوليان (يوليان) .

يقول دي سلان : لا يمكننا ان نشك بصحة وجود هذا القائد المعروف جداً . يعرب دي سلان بهذه الصيغة عن افتقار مبطن للجحود والجاحدين . وهو تعبير يدلـّنا على الطريقة التي نقرأ بها – عن الغربيين – مؤلفات المؤرخين العرب .

ومن الخطأ الجسيم ان نعير انتباهاً كبيراً لشخصية الكونت جوليان . فلو صح وجوده وهذا مرجح ، فلا بدّ وان يكون قائداً كسائر القواد . وخليق بنا ان نتحدث عن ردات فعل موريتانيا الطنجية عند بدء الفتح العربي .

يروي ابن الاثير انه بعد وصول عقبة الى طنجة « جاءه يوليان مرحباً وقدم له الهدايا الثمينة واعترف بسلطته . وسأله عن البربر فأجابه: ان الله وحده يعرف عددهم وانهم يقيمون في سوس وانهم لم يتنصروا، وان قوتهم عظيمة . وزحف عقبة على سوس حيث صادف مصاعب كبيرة ومني ببعض الفشل مما لايسمح لنا بالقول بأن منطقة طنجة قد حنثت بعهدها. وهذا أمر طبيعي . ذلك أن في المنطقة مجموعة صغيرة من سكان المدن المتحضرين

المنعزلين بعيداً لم يسلموا من الاحتكاك بأعداد ضخمة من البربر الفوضويين . وما عدوهم الحقيقي إلاّ هؤلاء البربر . وهم على استعداد للتضحية بالغـالي والنفيس لدفع خطرهم .

كان جيش القوط وقتئذ متمركزاً شمالي المضيق ، على أن منطقة طنجـة آثرت الحماية العربية على الحماية الجرمانية . ويروي لنا النويري كيف أن يوليـان قد اصطحب الجيش العربي الذي قاده طارق وموسى بن نصير بعد ثلاثـين سنة وأرشده إلى نقاط الضعف في البلاد ووفر لهم المعلومات عنها .

وموجز القول إن المدنيين بحاجـة لحكومة منظمة ذات أجهزة عسكرية وإدارية . وهذا ما جاء به الولاة العرب . ولم يكن أهل طنجة ليغفلوا ذلك ، فجرى فيها ما جرى في سائر المدن الأفريقية .

ولم تصادف منطقة طنجة صعوبات تذكر مع الفاتح العربي . ولم تشكُ من شيء في عهده . وقد ظلّت المدن على حالها حتى جاء الخوارج ليطرحوا مشكلة الأمن والنظام من جديد . كان عليهم أن يجدوا ملجأ لهم ، فعثروا على ضالتهم في حكم الأدارسة .

مدينة فاس

تعتبر فاس أهم المعالم المدنية التي تركها الأدارسة . ذلك أن هذه الأسرة هي التي أنشأتها وخلقتها خلقاً عظيماً . ويختصر تأسيس فاس مجمل نشاط الأدارسة ، وهو نشاط كافٍ لتخليدهم .

فما من أسرة مالكة أخرى في المغرب أحرزت نجاحاً مماثلاً .

وقد قام الأدارسة ببناء فاس حالما سنحت لهم الفرصة لذلك .

ولم تُبنَ المدينة في حكم إدريس الأول وكانت ولايته قصيرة جداً ، ولم يفكر

احد ببناء المشاريع الضخمة في حداثة ادريس الثاني ومنذ ٨٠٧ بدأ ادريس بناء المدينة ... وفي العام التالي جعلها مقرّاً .

سنة ٨٠٧ كان إدريس فتى في الخامسة عشرة . لكن رغبة الطنجيين كانت حافزاً له .

« لم تعد مدينة وليلي تتسع للجيوش المتزايدة العدد ولسائر رعايا المملكة ، فبحث ادريس عن مكان يقيم فيه عاصمة جديدة » . كما قال ابن خلدون . ويجب ألاّ ننسى أن فاس كانت وريثة فلبيلس المباشرة ، بل ان هذه الأخيرة انتقلت الى فاس . ولكن ما سبب ذلك وهل تفسير ابن خلدون هو الجواب الشافي ؟ .

آثار فلبيلس معروفة ، وفيها متسع لزيادة حجمها ، غـير أن الشرقيين لا يرون رأينا في هندسة المدن حيث يفضلون بناء مدينة جديدة على ترميم القديمة أو توسيعها . فمن السهل عليهم أن ينقلوا كتلة بشرية من مكان لآخر ، اذ ليسوا متمسكين بالأرض تمسكنا نحن . وافريقية خـير مثال على ذلك حيث تخلّى العرب عن مدينة قرطاجة وبنوا القيروان في مكان آخر ، على عكس الرومان الذين أعادوا بناء قرطاجة في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه زمن البونيين . بعد ذلك بعدة قرون انتقلت عاصمة افريقية الى تونس . ويلاحظ ابن خلدون بثاقب نظره أن مدن المغرب مرتبطة بأسر المغرب . فالسلطان هو الذي يختار المكان المناسب لإقامة عاصمة ملكه ، لهـذا لم تعمّر المدن المغربيـة معظم الأحيان بعد بنائها . وليس هذا شأن فاس التي عاشت بعـد الأدارسة ولا تزال قائمة حتى اليوم .

ليس من المستغرب اذن أن يتنادى حاكم وأعوانه لبناء مدينة جديـدة ، ولكن الغريب حقاً أن يتمكن هؤلاء من بناء مدينة كفاس ظلت عاصمة لمراكش طيلة الف عام . ولنحاول الآن استقصاء الأسباب الكامنة وراء نجـاح المدينة :

يجمع المؤرخون على القول ان اختيار مكانها جاء نتيجة بحث دقيق ، وفي « روض القرطاس » أخبار عـن طريقة هـذا الاختيار . في سنة ٨٠٥ ذهب

إدريس الثاني وبعض ضباطه للبحث عن مكان، وكان وقتئذ في الثانية عشرة من عمره . ووقع اختيارهم على منطقة في جبل واليخ ، حيث بدأت أعمال البناء »، وفي ذات ليلة هبّت رياح عاتية هدمت كل شيء واقتلعت نباتات المدينة واشجارها وقذفتها في نهر سبع » .

وفي العام التالي عاود إدريس البحث وفكّر ببناء المدينة على ضفة النهر في مكان يدعى خوالن غير انه فكر بأن فيضان النهر سيؤثر على عاصمته .

ثم إن قضية جلب المياه كانت مهمة بالنسبة اليهم . وهي قضية لا بدّ منها في بناء المدن . ولم يكن مدنيو فلبيلوس لينسوا الأمر وهم وراء إدريس ، واهتدوا الى حلّ ممتاز حيث وقع اختيارهم على مكان غني بالمياه هو المكان الذي تقع عليه مدينة فاس حالياً .

ويمتد وادي فاس في تعرجات تتخللها المستنقعات ولا خوف من فيضانه . وبنيت المدينة على شكل صدفة تحيط بها الأسوار وبيوتها مرصوفة فوق بعضها على المنحنيات . ولكل بيت قناة ماء صغيرة أشبه بجدول يترقرق منه الماء العذب المنساب من بيت لآخر . والمياه من الوفرة بحيث تكفي للاستهلاك المنزلي ولري الحدائق واقامة النوافير الجميلة . والأمر لا يكلف أكثر من العناية بتلك القناة الأزلية ، حيث يتولى كل ربّ منزل العناية بالجزء الخاص به دون اللجوء الى سلطات رسمية .

وجدير بالذكر هنا أن طريقة الهندسة الغربية في البناء تعتمد ايصال الماء من أمكنة بعيدة بواسطة أنابيب اصطناعية لهذا يمكن لحجم المدينة أن يتعاظم ويمكن البحث دائماً عن ينابيع جديدة لإيصالها للأحياء الجديدة . ذلك كان طراز فلبيلس وقد بدأ سكانها بالرحيل عنها منذ بداية الحكم العربي . ذلك أن المدينة ذات الطابع الغربي تحتاج للمزيد من الصيانة وتدخل السلطات للحفاظ على سلامة أقنية المياه وسائر الأمور الحياتية . أما فاس فينابيعها في داخلها كما رأينا ولا تحتاج لهذا التنظيم .

انها المدينة الشرقية النموذجية ووادي فاس لا يحتاج لأية عناية او حراسة ، حيث لا يستطيع البربر او المتمردون تحويل نقطة ماء عن مسارها . والمدينة مركز قائم بذاته لا يحتاج الآخرين وهم يحتاجونه ، وفيه ازدهرت حركة التجارة والصناعة .

وفاس نموذج فريد من نوعه بين المدن المغربية . وقسنطينة بدورها مدينة باستمرارها الطويل لحسن اختيار موقعها ، لكنها اقرب الى قلعة محصورة لا يمكنها ان تتسع .

اما فاس فقد نجحت نجاحاً مذهلاً . فهل هي وليدة تفكير هذا السلطان اليافع ام ان هناك دماغاً مفكراً وراءه ؟ لعلّ الحس المدني لسكان فلبيلس وتجاربهم السابقة كانت وراء هذا الاختيار الناجح .

ثم ان سكان المدن قد آثروا التجمع في مدينة واحدة قوية كي لا يظلوا معرّضين دائماً لمدّ وجزر القبائل العربية والبربرية التي كانت تغزوهم بين الحين والآخر .

ولم تكن اية قبيلة بربرية لتحمل ولاءً خاصاً للأدارسة بما فيها قبيلة اوربة . ويقول ابن خلدون «ان ادريس أمر بقتل زعيم اوربة بعد ان اكتشف تآمره مع الأغالبة » . ويضيف في الفقرة نفسها : « كان ادريس يشك دائماً بولاء البربر . . وقد عيّن وزيراً عربياً يلقب بالملجوم بسبب آثار جرح في انفه ، كما استعان بنحو خمسمائة من افراد القبائل العربية ليبقوا دائماً في خدمته بعيداً عن البربر . وقد ساهم هؤلاء جدياً في ترسيخ حكمه » .

ومما لا شك فيه ان الأدارسة استطاعوا رغم ذلك ان يستقطبوا العديد من القبائل البربرية، وقد تجاوز هذا التأييد الحدود الجزائرية الحالية وذلك لأسباب معروفة .

جميع الكتب المدرسية تذكر بحق ان العرب فرغوا من دفع البربر لاعتناق الاسلام بعد ان اشركوهم في الحملة على اسبانية . وقد افسح الأدارسة للبربر

المسلمين مجال غزو المناطق غير المسلمة ومنها إحدى المناطق المراكشية جنوبي ابي رقرق .

تلك كانت من أولى اهتمامات هذه الأسرة. فادريس الأول الذي لم يستمر حكمه أكثر من ثلاث سنوات (٧٨٨ – ٧٩١) زحف على جماعات البربر في تلك المنطقة وكانوا وثنيين ويهوداً ونصارى واستولى على تمنة (بلاد الشاوية حالياً) ومدينة شلّه (الرباط عند مصب نهر ابي رقرق) وتدله (الواقعة في أم الرابية) وأرغم السكان على اعتناق الاسلام .

وسار ادريس الثاني على خطى أبيه بعد ان بلغ أشده وبنى مدينة فاس . يقول ابن خلدون : « في سنة ٨١٢ (كان ادريس الثاني في الواحدة والعشرين) زحف على موطن بني مصمودة وأخضعهم بعد أن احتل مدنهم » ويقيم بنو مصمودة في منطقة الأطلس العليا جنوبي مراكش الحالية .

انها سياسة معقولة جداً ، فالحدود الجبلية تمتد على طول نهر ابي رقرق . وقد حدثنا بلين في التاريخ القديم عن تلك المناطق المنعزلة التي كانت مرتعاً للفيلة المتوحشة وعصابات السلب الخطرة .

ولم يعنَ الرومان باقتحام معقل البربر هذا في الجنوب المراكشي وتبدأ سيطرتهم من فلبيلس وفاس .

ولم يفكر الأدارسة بالحرب في غير تلك المنطقة. ففي ناحية تلمسان استطاع ادريس الأول أن يخضع المدينة بدون مقاومة وكان ذلك سنة ٧٨٩ . « ما ان استولى على تلمسان حتى وضع ادريس فيها أساس المسجد الكبير وبنى محراباً نقش عليه اسمه ، ولا تزال الكتابة في المحراب حتى الآن » . وحين وفاة إدريس الثاني سنة ٨٢٨ كانت تلمسان لا تزال تابعة للامبراطورية . غير ان خضوعها الإرادي جاء نتيجة العروض المغرية التى قدمها حاكم فاس للبربر المسلمين .

وهكذا لعبت منطقة طنجة تحت حكم الإدريس دوراً مشابهاً لدور غالية في بلاد الفرنجة، حيث استطاعت مقاطعة رومانية أن تحقق فتحاً لم تستطع تحقيقه الامبراطورية بأسرها . تلك كانت جرمانية في الغرب وكذلك جنوبي مراكش . وهو أمر ذو دلالة كبيرة، فسيطرة الأدارسة جنوبي الحدود الجبلية خلقت امكانيات جديدة اذ فتحت أبواب الشمال للمرابطين ثم للموحدين . وهكذا بدأ التاريخ المراكشي كحقبة مستقلة عن تاريخ المغرب. وقد امتدت دولة الموحدين نحو الجنوب باتجاه غور تازه الى حين ، لكنها ظاهرة شاذة . والقاعدة العامة أن مراكش الموحدين تماماً كمراكش المرابطين ومراكش سائر العصور تطلعت جميعاً نحو اسبانية وراحت مراكش هذه تتطور وكأنها منعزلة عن سائر المغرب لاسيما بعد تأسيس فاس .

ان ظهور المملكة الادريسية على علاقة بظهور الخوارج لكنها علاقة رد فعل خاص . يقول ابن خلدون: «حين انس ادريس الثاني من نفسه القوة قضى على الخوارج في جميع دوله .» وخليق بنا هنا ان نذكر ما يمثله حكم ادريس : لقد التف حوله مدنيون متعطشون للنظام والأمن ، تقودهم نخبة من الموسرين المتعلمين الذين هالتهم فظائع الخوارج . وقدساعدوا الادارسة على بناء فاس هرباً من هؤلاء . وفي هذه النقطة البعيدة من بلاد المغرب نشأت عن الخوارج رغم ارادتهم حكومة نظامية ذات طابع مدني.



٤ ـ ممالك الخوارج
مملكة تاهرت

ممالك الخوارج

تختلف الحال في شرقي تلمسان عنها في جنوبها ، حيث نشأت ممالك خارجية بكل معنى الكلمة .

سجلماسة

إحدى هذه الممالك قامت في سجلماسة بتفيلالت ، ولا نعرف عنها إلاّ ما أورده ابن خلدون .

بنيت هذه المدينة عام ٧٥٧ فيخضم أزمة الخوارج وقدلعبت دوراً عظيماً. وينتمي مؤسسوها لقبيلة مكناسة التي قرن اسمها بمكناس . ومن المعروف أن هناك طريقاً طبيعية مهمة هي طريق السلطان تصل تفيلالت بمنطقة فاس ومكناس . ويرى ابن خلدون ان قبيلة مكناس من البتر الصحراويين . ومن الطبيعي ان يعتنق هؤلاء المذهب الخارجي ويهبوا لمساندة ميسرة . وقد شكلوا في البداية الفئة المتطرفة ، فئة الصفرية. وقد انتخبوا الأمير عيسى اول رئيس عليهم ثم قتلوه بشكل فظيع ، وهذا دليل على تطرفهم .

واصبحت سجلماسة عاصمة نحونهاية القرن الثامن وذلك زمن حكم ابي منصور اليسع واستتب الأمر لهذه الأسرة الجديدة فأخضعت لها الواحات الصحراوية وفرضت عليها الجزية . ومات ابو منصور سنة ٨٢٣ لكن دولته عاشت طويلا من بعده .

انها دولة الصحراء والنخيل، وحري بنا ان نذكر هنا ان اشجار النخيل في وادي غير وفي غرارة لم تكن موجودة في عهد الرومان . فقد ظهر النخيل في المغرب مع ظهور الجمل أي في عهد البتر وزناتة بعيد الفتح العربي .

ومن الطبيعي ان تنشأ عن غزو البتر الزناتيين مملكة النخيل في بلاد البربر الجديدة . وتعتبر اشجار تفيلالت ودراع من اجمل واهم ما في المنطقة من نخيل فهي معدّة لتكون مسرحاً لنشاط كبير . غير انها مناطق مجهولة منا الآن ولم يبقَ من آثار سجلماسة شيء يذكر ، وما من شيء سوى الذاكرة يدل على وجود مملكة خارجية فيها .

ويروي لنا ابن خلدون ان أبا منصور قد زوج ابنه من ابنة عبد الرحمن ابن رستم سيد تاهرت . الامر الذي أشاع جوّاً من الإلفة مع مملكة خارجية اخرى هي مملكة تاهرت .

مملكة تاهرت

وراء مملكة تاهرت شخصية مشرقية مرموقة ، كما هي حال المملكة الإدريسية والأسرة الفاطمية . إنه عبد الرحمن ابن رستم ويرجع اصله إلى رستم الشهير الذي قاد الجيش الفارسي في معركة القادسية وهو فارسي من احفاد كسرى . ولا غرابة ان شاهدناه على رأس فئة من الهراطقة في الوقت الذي ازداد فيه النفوذ الفارسي زمن العباسيين . وتاريخ الرجل واضح : فقد ظهر في المغرب مع قبيلتي زناتة وهوارة الطرابلسيتين وهما من الخوارج المعتدلين (الإباضيين) الذين انتزعوا القيروان من قبيلة ورفجومة بقيادة ابي الخطاب . واصبح رستم

حاكماً للقيروان على مذهب الإباضية إثر طرد ورفجومة منها . وقد اضطر للفرار بعد عودة القوات العربية ظافرة بقيادة ابن الأشعث . فرّ إلى تاهرت في أواسط المغرب ... حيث استقر فيها وبنى مدينة تاهرت الجديدة كان ذلك سنة ٧٦١ . ومنذ ذلك الحين نشأت مملكة تاهرت واشترك ابن رستم سلطان تاهرت في حصار تبنة بجيش قوامه ستة آلاف من الإباضيين . وهو في عداد أولئك الذين باعهم أبو قرة تحت أسوار تبنة بأربعين ألف درهم . فاضطر للانسحاب مع من بقي من جيشه . ولم يفكر العرب باللحاق به ، وسرعان ما رضخ القادة العرب للأمر الواقع . في سنة ٧٨٧ طلب ابن رستم حاكم تاهرت المصالحة مع حاكم القيروان وكان له ما أراد . ولم يقع ما يعكر المعاهدة من جهة الأغالبة حكام افريقية إلاّ في عهد الوهاب خليفة ابن رستم . « في سنة ٨١١ قام في طرابلس على رأس جيش من قبيلة هوّارة بمحاصرة الأمير الاغلبي في الوقت الذي كان فيه عرش الأغالبة شاغراً في القيروان . وانتهى النزاع بين الطرفين بتوقيع معاهدة واشترى الأغالبة السلام من عبدالوهاب بعد أن تخلّوا لصالح اتباعه من البربرعن مجمل البلاد المفتوحة ... وانسحب عبد الوهاب » .

أما من ناحية الأدارسة فقد حصل نزاع بين الرستميين وزناتة تلمسان (مغراوة وبنو يفرن) المتكتلين مع سائر البربر الموالين لفاس . وقد حاول هؤلاء إرغام الرستميين على الخضوع للأدارسة فرفض هؤلاء بعناد ولم ينهزموا إلا في عام ٩٠٨ أمام الجيش الفاطمي .

وهكذا تتضح ملامح هذه المملكة الرستمية التي عاشت قرناً ونصف القرن من الزمان واستطاعت ان تعاصر مملكة الادارسة في فاس ومملكة الأغالبة في القيروان . ويجمع المؤرخون العرب على تأييد ما اورده ابن خلدون بشأنها . ولدينا تاريخ خاص عن الرستميين لأبي زكريا .

اكتشف ماسكوراي هذه المخطوطة ونشر ترجمتها سنة ١٨٧٨ ، لكنه لم

ينشر النص الأصلي . ولم يعثر عليه بين مخطوطات ماسكوراي بعد موته . وقد وعدنا الاستاذ زموغرزوفسكي بنشرها في المستقبل . ولعلّه من المستهجن حقاً أن نطلع على مخطوطة عربية بنصها الفرنسي فقط . ولو أخذنا الامر على علاته لاستطعنا ان نعثر عند ماسكوراي على تعليقات وحواشي توضح تاريخ الرستميين .

تمتد سلطة هؤلاء بعيداً نحو الشرق حتى مشارف طرابلس . ويتردد ذكر طرابلس في رواية ابي زكريا تردد اسم تاهرت .

دعا الرستميون حين شعروا بالتهديدسكان جبل نفوسه لمساعدتهم. وفي مجال حصار طرابلس هذا يسهب أبو زكريا في الحديث ، أما ابن خلدون فلا يتطرق للأمر إلاّ لماماً — ويذكر ابو زكريا أن الامام الرستمي كان ينصب الحكام ويعدّ الاجتماعات ويرئسها ومكث في جبل نفوسة سحابة سبع سنوات . ويوم حصار طرابلس« جمع كل من دخل في طاعته بجوار طرابلس وجبل نفوسة والجبال المحيطة بها » . يضاف الى ذلك جزيرة جربة . وقد سيطر الرستميون على جميع البلاد الطرابلسية المفتوحة على شاطىء البحر ، ما عدا المدن التي ظلت على ولائها للأغالبة . ويذكر أبو زكريا كيف أن الإباضيين كانوا مسيطرين على الاتصالات الأرضية بين الأغالبة ومصر ، ويأتي بقصة أغفلها ابن خلدون وذكرها النويري بايجاز وهي ان ابراهيم الأغلب أراد ان يذهب بجيشه من القيروان الى طرابلس ، كان ذلك نحو ٨٩٥ أو ٨٩٦ . وأرسل لبني نفوسه يطلب اليهم السماح له بالمرور من ناحية الشاطىء عبر شريط ضيق يتسع له ولرجاله. ورفض بنو نفوسة تلبية رغبته . وانتهى الأمر إلى معركة قضي فيها عليهم وبدأ حكم الرستميين بالانهيار ولم يعمر بعد المعركة سوى عدّة سنوات . ذلك ان هذه المنطقة الطرابلسية كانت الى جانب تاهرت خير معين لهم .

وهناك نقطة اخرى مهمة هي منطقة أورغلا . فحين أرغم يعقوب آخر الرستميين على مغادرة تاهرت فرّ قاصداً أورغلا فبلغها بسهولة واستقبل على

الرحب والسعة . وجرى له فيها استقبال عظيم ، كان ذلك سنة ٩٠٩ . وكانت أورغلا ملجأ لآخر الإباضيين بعد انهيار مملكتهم . يقول ابو زكريا إن شيخ الإباضية كان يمضي الشتاء في وادي غير (وأورغلا واحته الجنوبية) ثم يعود ناحية الصحراء قاصداً بني مصاب . ولم تعد أورغلا صالحة للسكن مع الوقت فانتقل الناس الى الزاب حيث تجمع كلّ من بقي من اباضية الجزائر . وهناك عثر ماسكوراي على مخطوطة أبي زكريا .

يقول ماسكوراي بحق : ما من واحة بين قابس وفجويج وسجلماسة إلا وهي مدينة بتطورها للخوارج ، صفريين كانوا أم إباضيين الخ... لقد كانوا سادة الصحراء .

فهم صحراويون بكل معنى الكلمة إذ علينا ان نلاحظ أن تاهرت وسرسو الملحقة بها تابعتان للصحراء

وليس في تاهرت اليوم سوى آثار رومانية . ويفترض غيزل ان الرومان قد انشأوا فيها مراكز عسكرية على الحدود ثم منطقة سكنية للمدنيين، ولم يجد في الآثار الباقية ما يؤيد فكرته . وكان لتاهرت أهمية كبرى في عهد السيطرة البيزنطية . ويشير غيزل نفسه إلى بقايا أسوار تعود الى عهد قديم (عهد سيطرة الأمراء البربر قبل الرستميين) .

ومن الناحية الأثرية البحتة هناك آثار الجدّار جنوبي تاهرت في المينا العليا. وهي عبارة عن أضرحة شبيهة بتلك الموجودة في مدغاسن « وبقبر المسيحية » ولكنها تعود لوقت متأخر عنها . وقد عثر فيها على كتابة اغريقية . كما استخدم في بنائها أدوات تعود لعصر سابق لها كبقايا هندسة مسيحية و كتابات منقوشة.. ويستنتج غيزل انها عاصرت العهد البيزنطي وينسبها الى أهالي تاهرت .

وتاهرت في العهد البيزنطي كانت في نفس المكان الذي تقع فيه اليوم . وعاصمة الرستميين (تاهرت الجديدة) تبعد خمسة أميال غربي تاهرت القديمة .

واذا كان رستم قد أطلق على مدينته لقب الجديدة فهذا ما يؤكد ان المدينة القديمة ماثلة في الأذهان .

كانت مصادرنا حول هذه الأسرة البربرية مقتصرة على الآثار التي تركتها لو لم يرد ذكرها عند ابن خلدون : عندما قام عقبة بحملته الأولى على المغرب لم يصادف مقاومة تذكر إلاّ في موضعين ، واحد حول الأوراس حيث قتل لدى عودته وواحد في تاهرت . « وقد تحدى في تاهرت الأمراء البربر ومؤيديهم الفرنجة » . وغيزل محق في اعتباره أن هؤلاء الأمراء البربر ينتمون لأبناء تاهرت.
وعلينا ألاّ نحصر كثيراً تاريخ هذه الاسرة الغامضة . وقد سبق لنا القول ان كسيلة ينتمي اليها . وتمكننا الإشارة ايضاً إلى ان تاهرت كانت مركزاً سياسياً هاماً في الفترة التي رافقت ظهور الجماليين الرحل القادمين من الشرق والذين كان لهم شأن كبير في زعزعة أركان نوميديا .

تقع تاهرت على ارتفاع ١١٠٠ متر عن سطح البحر على سفح جبل التل التي يبلغ ارتفاعها ١٢٠٠ متراً . ولا يقل ارتفاع المناطق المحيطة بها عن ألف متر . وشتاء تاهرت يمتاز ببرودته وضبابيته ورطوبته وثلوجه . أي على عكس الصحراء تماماً وهذا ما يجعلها قبلة انظار الصحراويين : ولهذا تغنى بها هؤلاء وأنشدوها أرق الأشعار كما ذكر ماسكوراي : « يروى ان عربياً قصد إلى تاهرت ثم ذهب بعدها الى بلاد الزنوج ونظر الى الشمس وخاطبها قائلاً : أراك اليوم مزهوة، لكنك كنت صغيرة جداً في تاهرت .

وهكذا تعتبر تاهرت والمنطقة المحيطة بها مركزاً للاصطياف يقصده سكان الصحراء مع قطعانهم هرباً من الحرّ الشديد .

وتاهرت اليوم احدى مدن التل وتقع بجوارها بلاد سرسو الزراعية . ويقصدها البدو الصحراويون قادمين من أقصى الجنوب الشرقي من لربا في الأغواط . بعد أن يقضوا الشتاء في وادي الجدي بمنطقة تقع على شبكة طرق طبيعية تؤدي الى الزاب من ناحية وإلى وادي غير من ناحية أخرى . وينتقل

بنو لربا الى تاهرت عن طريق شلاله . وهناك طريق اخرى من الجنوب التونسي ووادي غير تؤدي مباشرة الى تاهرت عبر غور الزاب (بسكره) وهدنة . وعلى طول المنطقة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي عبر الجزائر تمتد المراعي التي كانت تابعة لدولة الرستميين .

وتدل الطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة ان تاهرت ، مملكة للبدو الأقحاح .

وقد اختفى الإباضيون كفرقة دينية في تاهرت اختفاء تاماً . في حين استمروا على شكل جماعات صغيرة في جبل نفوسه والزاب أي في المناطق الصحراوية . وليس الأمر وليد صدفة لأن قوة الدولة الرستمية كانت في الصحراء .

ويكفي ان نذكر اسماء القبائل التي انشأتها وساندتها . وكلها من البتر ، الشرقيين في معظمهم ممن لهم ارتباط بجنوبي تونس والمنطقة الطرابلسية . وهناك يحدد أبو زكريا مواقعهم وخاصة في جوار طرابلس . ومنهم قبيلة زواغة التي استوطنت جزيرة جربة . ويذكر ابن خلدون أن جماعات من قبائل لواتة وهوارة وزواغة كانت تقيم في سرسو على ابواب تاهرت وهي من أشد مؤيدي الرستميين . وأراضي تاهرت نفسها تعود في ملكيتها لقبيلة لماية الاباضية الشهيرة كجارتها مطماطة . ويقول ابن خلدون : « ان بني لماية كانوا بدواً يجوبون المواقع الافريقية والمغربية غير انهم عاشوا في ذلك الجزء من المغرب الذي يجاور الصحراء » . كما ينسبهم لبني فاتن على غرار مطماطة . أي انهم ينتمون لفئة استقرت في اواسط المغرب . على اننا بتنا نعرف بأن معظم هذه الفئة – مثل قبائل تلمسان وشلف الواطىء – اجتذبتها فاس واسيادها الأدارسة . فهل يحق لنا الاعتقاد أن بني يفرن – المنتسبين الى زليطن أي المتحدرين من النوميديين المصاولة – لا يمتون بصلة للبدو والطرابلسيين . ذلك من شأنه ان يتجاوز القرائن الايجابية القليلة التي نملكها .

على أن هذه القبائل الرستمية من البدو الرحّل على كل حال . ويورد أبو

ز كريا مقابلة جرت بين فئة من لواتة وبين الخليفة عمر بن الخطاب بواسطة المترجم . سألهم عمر : « هل لكم مدن تعيشون فيها ؟ » فأجابوا : لا . وهل لديكم حصون تذودون فيها عن ممتلكاتكم ؟ فأجابوا: لا . وهل لديكم أسواق تقومون فيها بالبيع والشراء ؟ فأجابوا : لا. عندها أجهش عمر بالبكاء، لأنه تذكر إحدى نبوءات النبي حين قال : إن شعباً من الغرب سيخلف العرب ليس له مدن يسكنها ولا أمكنة محصنة يأوي اليها ولا أسواق يتاجر فيها . انها أنشودة البدو يتناقلها الرستميون .

ويقول ابن خلدون إن الصفريين وحدهم قد وضعوا بتصرف الرستميين نحو ثلاثين ألف رجل كلهم بدو يعيشون تحت الخيام .

ويساعدنا أبو زكريا على رسم صورة عن الإباضي : شعره ذو ضفائر ، يحمل مهنداً مستقيماً طويلاً له حدّان قاطعان يختلف عن السيف واليطقان . كما يحمل خنجراً مربوطاً بذراعه . وأظن أن ماسكوراي على حق في مقارنته مع ابن الطوارق حالياً . ويذكر لنا أن المرأة الإباضية مثقفة ، مما يزيد في وضوح الشبه . ذلك ان المرأة عند الطوارق تحتل في علمها وثقافتها مكانة تختلف عن مكانة المرأة في بلاد المغرب . لقد عني ماسكوراي بالطوارق عناية كبيرة . وليس مستبعداً على كل حال أن يكون هؤلاء البدو الخوارج قد تركوا بعض ميزاتهم لطوارق الهقار وهم من تبقى من قبيلة هوّارة .

ولنشر هنا إلى أن الخنجر المربوط باليد وجد في عهد كوريبوس وليس قبله . فلم يذكره المؤرخون ولم يظهر رسمه في الآثار القديمة . فهل يعني ذلك أن سلاح الطوارق هذا قد ظهر في العصر البيزنطي مع قبائل الجمالين الكبار ؟ هنا أيضاً ينبغي لنا ألاّ نتجاوز النصوص .

وأخيراً هناك حقيقة ملموسة هي ان مملكة الرستميين لم تتجاوز حدود الأراضي الوعرة والصحراء . وتاهرت هي رأس الطريق الطويلة الممتدة عبر التل المتجهة نحو البحر من ناحية المينا وهضبة منداس وشلف الواطىء .

ومن المؤكد ان برابرة شلف الواطىء بما فيهم أهل مأذونة كانوا من مساندي

الأدارسة . ولم يكن لهؤلاء منافذ مفيدة على البحر فالناحية الطرابلسية كانت تحت حكم الأغالبة . ولم تغيّر مملكة الأغالبة هذه ملامحها منذ القرن التاسع . حيث كانت موطن المناخ الجاف والعزلة الكبيرة والمراعي المجدبة . ويمكننا الاستعانة بما ذكره أبو زكريا لتتضح لنا مميزات هذا الإباضي في طباعه العميقة .

لا يسعنا هنا أن نجاري ماسكوراي ، وتاريخ أبي زكريا وضع في الزاب بعد المملكة الرستمية وليس في عهدها . وأهل الزاب الحاليون من سلالة الرستميين لكن ملامحهم تغيّرت خلال ألف سنة . اذ تعرضوا لهذا التحوّل الذي يعرفه المجتمع الشرقي . وعلى غرار الأرمن واليهود أصبح الزابيون بعد انهيار الامبراطورية نوعاً من القبيلة المتلاحمة الفخورة بأصلها رغم البعد بين أفرادها . والعامل الديني يفعل فعله في هذا المجال كما ازداد اثره مع الزمن . وتاريخ أبي زكريا شاهد على ذلك، فهو ليس بالوثيقة التاريخية وانما هو مجموعة من المتفرقات التي تروي ماضي الرستميين من وجهة نظر المثقفين من اهل الزاب . وهذا لا يفقد تاريخ ابي زكريا قيمته ، ولكن ينبغي ان نقرأه بكثير من التمعن . يقول الكتاب مثلاً ان الجماهير الشعبية الموالية للرستميين لم تكن تحسن سوى البربرية ولم تكن قادرة على متابعة الجدل الديني بالعربية . وكانت على استعداد لقبول جميع القضايا اللاهوتية إذا ما اتفقت ومصالحها وأهواءها . وما يهمنا هنا أن نستلخص الطبيعة المتأصلة في الرجل البربري .

من المؤكد أن البربري والبدوي من ذوي الطباع الدينية ، فالسلطان الرستمي كان إماماً قبل كل شيء يدعي السلطة الروحية على العالم كله . كما ان نظام الوراثة في الدولة الرستمية كان ينتقل من الاب إلى الابن ولكن ليس بطريقة عادية إذ أنه كان من الواجب في كل مرّة أن يجري استفتاء شعبي لمبايعة الحاكم الجديد . ومن الغريب حقاً أن سلالة الرستميين لم تتصدّع رغم القلاقل الموجودة وعلى الرغم من أن الإمام معرّض للعزل في كل وقت إن هو خالف الشريعة الدينية . وقد اتخذت حركات العصيان شكل الانشقاق الديني . غير

ان هذه الانشقاقات ، رغم كثرتها لم تكن خطيرة في عهد الرستميين . غير ان طبيعة الحكم في دولة الرستميين لم تكن مختلفة عن حكم الخلافة في بغداد فالخليفة بدوره زعيم روحي .

يقول ابو زكريا : كانت خيول الإباضيين من ممتلكاتهم الخاصة فالخزينة العامة ليست تحت تصرفهم الشخصي ، وهم يكسبون خبزهم بعرق جبينهم . فليس هناك إذن جيش نظامي او ادارة مركزية .

« كتب بنو نفوسة للإمام يخبرونه بنبأ موت حاكمهم طالبين اختيار خلف له . فأجابهم أن عليهم اختيار أصلح من فيهم لرعاية شؤون المسلمين ، ثم ارسال اسمه للإمام » .

ويشير مقطع أورده ابو زكريا أنه لم يكن للإمام حرس خاص . فالقاضي الرستمي يتعرض للإهانة من المتقاضين إن لم يوجد شخص في المحكمة يتبرع للدفاع عنه .

ولا يصعب علينا تفسير هذه الظاهرة طالما أن دولة الرستميين قامت في المناطق الوعرة ولم يكن لها ميزانية عامة . ومن الطبيعي ان ينمو شعور التقشف في جوّ كهذا الجو .

ويخبرنا ابو زكريا كيف أن أبا زكريا كان يبني بيده يعاونه عبده ، وقد استقبل السفراء الشرقيين وكان فوق الجدار فنزل الى الأرض وغسل يديه في الجون وسلم عليهم ودعاهم الى عصيدة اعدّها بنفسه .

كما يخبرنا كيف ان الرستمي كان يستعمل عمامته كفتيل للمصباح حتى مطلع الفجر في الليلة التي يعكف فيها على المطالعة . كما كان الحاكم الرستمي يرفض الهدايا التي تقدم إليه من المشارقة . لأنه يفكر بمصيره في الحياة الأخرى .

كما يحدثنا أبو زكريا عن زيارة قام بها الإمام الرستمي الى رجل من الإباضية اسمه المهدي. فوجد بيته خاوياً من كل شيء يستطيع بواسطته أن يقي

الإمام من البرد وكان متفرغاً للعبادة كل التفرغ . ثم زار منزل أحد ابناء عم المهدي وكان من الموسرين وقد أثث منزله بأحسن انواع الرياش والسجاد . فقال الإمام :

يا مهدي ، ان الجنة من نصيبك .

وقد فرض الإباضيون عقوبات صارمة على أهل الشر : فالزاني يرجم والسارق تقطع يده .

ويسود القانون نفسه أرض المعركة فلا سلب ولا قتل دون مبرر . وهذا يجعل الاباضية مختلفة كل الاختلاف عن الصفرية .

وقد تحدث ماسكوراي عن الشبه بين الإباضية والوهابية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في اواسط شبه الجزيرة . وكتب عنها بلغريف كتاباً موفقاً . ذاك ان الوضع الجغرافي متشابه فهنا وهناك نجد بدواً بعيدين عن البحر يعيشون على قحط الصحراء . فالبدوي الذي لا يسيطر على مدينة من المدن هو أشد الناس فقراً . وهو ميّال للعزلة والتقشف وشديد الشغف بالفضيلة ، ذاك انه يحوّل بؤسه لتطرف ديني .

وهناك عنصر ضروري آخر هو عنصر الاستقرار . ومغرب الرستميين كان هادئاً إذا ما قيس بالتاريخ الصاخب الذي عرفته تلك البلاد .

ولم يكن الأدارسة في الغرب والأغالبة في الشرق ليعنوا بالرستميين . ذاك ان الأدارسة وجهوا قوتهم التوسعية نحو الجنوب المراكشي وصبّ الأغالبة انتباههم على صقلية . وقد ذكر ابن خلدون والنويري لماماً بعض الايضاحات عن موقف الأغالبة كلما كانوا يدعون لمهاجمة البدو .

وقد قام أول الأغالبة حين كان حاكماً على تبنة وفي عهد أبي قرّة بمحاولة للاستيلاء على تلمسان ثم على طنجة لكن الجيش تخلّى عنه واضطر للتراجع .

وإبراهيم بن الأغلب وهو واحد من اواخر ملوك هذه السلالة غزا طرابلس سنة ٨٩٤ على رأس جيش أراد ان يبلغ به مصر . ويقول النويري إن أكثر من نصف جيشه تخـلّى عنه عائداً الى افريقية . فاضطر بدوره للتراجع .

ويبدو ان فظائع الخوارج قد جعلت الناس يملّون القتال طيلة القرن التاسع. وقد عاشت زناتة في ظل الرستميين حياة تأمل وتصوف وسـط الصحراء . وانتصر الإباضية معتدلو الخوارج . غير ان البدوي الذي يشعر بالحرمـان في أعماقه لا بدّ وان يتحوّل من الاعتـدال الى التطرف. وسرعـان ما قامت دولة المتطرفين .

٥ ـ نشأة الخلافة الفاطميّة وقبائل كتامة

الفاطميون

بوسعنا الآن إلقاء ضوء على تاريخ الخوارج ، لقد كان تاريخاً حافلاً بالأحداث وضع حداً لحكم الخلفاء في المغرب . فلم يعد عامل الخليفة الشرقي هو الذي يعين الحاكم ويعزله كيف شاء . وليس بمقدور الجيوش الشرقية ان تعبر افريقية انطلاقاً من مصر . وصحيح أن معركة القرن انقذت الإسلام في المغرب لكن معركتي شلف وسبع قد كسرت الطوق الذي لم يلتئم مرّة أخرى . ولا بدّ لهذه المعارك الثلاث أن تستحوذ على انتباهنا نظراً لارتباطها بمعركة بواتييه .

ومصدر هذا التحول في الشرق عند العباسيين المحبين لفارس والذين خلفوا الأمويين .

ثم إن الخوارج جعلوا المغرب يستعيد نفسه . ولم يعد يحمل من الفاتح العربي غير دينه أي حضارته . ولم يعرف فاتحاً آخر قبل مجيء الاتراك . انها حقبة فريدة من نوعهـا في تاريـخ غزوات طويلة الأمد ، حقبة تسنى فيها للمغرب أن يستعيد نفسه وتكوينه ويشكل عناصر الوطن .

واتخذت البلاد على الفور شكلاً مميزاً طبيعياً . وتبلور كلا العنصرين البشريين اللذين يكوّنانه . فالمدن القديمة المطبوعة بطابع الحضارة البونية والرومانية انقسمت الى مملكتين قامتا على طرفي البلاد : مملكة الأدارسة في فاس ومملكة الأغالبة في القيروان . وبينها كان البـدو في ظل الرستميين يعيشون في عزلة لا

يؤثرون في جيرانهم ولا يؤثر جيرانهم عليهم . والفارق كبير بين فريق البدو وفريق الحضر . وقد سادهما نوع من الاستقرار الذي دام قرناً كاملاً . لكنه كان استقراراً متقلقلاً . فالحياة السياسية في بلد حضارته شرقية لا بدّ وان ترتكز على تعاون البدو والحضر . ولا يمكن لهاتين الفئتين ان تعيشا متباعدتين إلى الأبد. ومن الطبيعي ان تنجذب واحدتها نحو الأخرى ليحدث الانفجار قبل أن يتحقق الانصهار. وينبغي لنا ان نعثر على فترة الانصهار هذه، فتلك المعضلة الأولى .

حدث خلل في التوازن نحو سنة ٩٠٠ في الفترة التي بدأت فيها ملحمة الفاطميين .

وأهم حدث ميّز العصر الوسيط الأول هو قيام دولة الفاطميين في المغرب. فقد خلق هذا الحدث تحوّلاً كبيراً في العالم الاسلامي بأسره ، كان أثره اعظم من أي أثر آخر قبله وبعده .

المهدي عبيدالله

لابن خلدون رواية خاصة عن ظهور الفاطميين تتفق ورواية ارنست مرسييه. ففي البداية تفسير لنشأة هؤلاء وكيف انهم متحدرون من فاطمة بنت النبي وزوجة علي . وهم أحفاد المهدي عبيدالله مؤسس الأسرة في مراحل اغترابه في شبه الجزيرة ومصر وطرابلس ثم في المغرب . ولطالما سعى الخلفاء العباسيون لقتل هذا الرجل .

وبينا المهدي مختبىء ، عثر احد دعاته كما يسميهم المؤرخون العرب على موقع مناسب في احدى نواحي المغرب . اسم الداعية عبدالله . والمكان المناسب في الأرض التي تملكها كتامة .

وتاريخ المهدي الهارب وداعيته الأمين مفعمة بالطرافة والمبالغة . وقع المهدي أثناء هربه في الأسر عند ملك صغير في إحدى الواحات النائية التي لا

علاقة لها بالأمر: كان ذلك في تفيلالت عند قبيلة سجلماسة. واستطاع الداعي أبو عبدالله على رأس فرقة من كتامة ان يقتحم المكان الذي سجن فيه المهدي ويقسم يمين الولاء له ويصعده على ظهر الحصان. ثم يمشي أمامه ودموع الفرح تنهمر من عينيه وهو يهتف : هذا مولانا ، هذا مولانا .

وخلاصة الرواية أن قبيلة كتامة تبنت قائداً قادماً من الشرق . والغريب أن قصصاً مماثلة قد حدثت في المغرب مرتين أو اكثر كما رأينا .

فهذا ادريس سليل علي وفاطمة أيضاً يأتي المغرب لاجئاً ، ثم يصبح ملكاً على القبائل البربرية في وليلي ، ويؤسس أسرة الأدارسة وأوّل مملكة في فاس .

وهذا رستم الفارسي، شرقي آخر متحدر من كسرى يؤسس بين زناتة أسرة الرستميين، أي مملكة الخوارج الإباضيين في تاهرت التي يتحدر منها أهل الزاب الحاليون .

فالقصة تتردد دائماً على هذا النحو في المغرب : نبيل من الشرق طريد تجتمع حوله قبائل المغرب. ونجاح الغريب يتفق مع القول المأثور: لا كرامة لنبي في وطنه. ولا سيما وأن المغرب موطن خصب لاستقبال الأنبياء ، ذلك أنه طيلة الفي عام سار في ركاب قواد من الخارج . وإذا كان المغرب قد قاوم الاسلام فإنه لم يبد في ذلك شخصية مميزة . وراح يبحث عن زعمائه وراياته في بلاد ما بين النهرين .

على انه لا الرايات ولا شخصيات الزعماء هي التي تهمنا في هذا المجال .

ومن المبالغة الشك في صحة وجود المهدي عبيد الله وداعيته عبد الله . فهناك مغامرون من هذا النوع حملوا هذا الاسم أو ان الأحداث حملتهم إلى ذلك . ومن المؤكد على كل حال أنهم جاؤوا المغرب بمذهب إسلامي جديد هو المذهب الشيعي . ولا بدّ لنا أن نتطرق قليلاً إليه .

المذهب الشيعي

للمذهب الشيعي نقطة التقاء مع المذهب الخارجي من حيث أساسه وطابعه اللاهوتي . فحين قتل علي بن ابي طالب على يد أحد الخوارج رفض الكثيرون من أتباعه الاعتراف بمعاوية كخليفة شرعي وظلّوا على ولائهم لأبناء علي . فالمذهب الشيعي تماماً كالمذهب الخارجي والدوناتي لم يكن في البداية سوى حركة منشقة ونتيجة اصطدام بين اشخاص وحرب بين رجال دين . وهي حركة انشقاق شرقية يرجع عهدها للفترة الاولى التي رافقت ظهور الإسلام . غير ان هذا المذهب لم يحافظ على طابعه في الشرق ، بل أصبح الراية التي انضوى تحتها الفرس ليعبروا بطريقة تختلف نوعاً عن الطريقة السامية في مجال الفلسفة والإيمان بالله . أما في المغرب فلم يكن للمذهب الشيعي أي طابع عقائدي خاص .

ويختلف هذا المذهب اختلافاً ظاهراً عن مذهب الخوارج . فلا يعرف بهذا التقشف الشديد وذاك التطرف الديماغوجي اللذين يتسم بهما الخوارج . بل هو على العكس من ذلك مذهب تسامح ومصاحبة . وقد نسب لشيعة المغرب بعض الانحلال في العادات . لهذا لم يضرب هؤلاء لهم جذوراً عميقة في هذه البلاد .

على انه ليس بمقدورنا اعتماد اعتبارات كهذه ، لأن البربر الذين بلغوا السلطة في عهد الفاطميين ليسوا بعد الآن من زناتة وانما ينتمون للفئات المناوئة لها . وقد لزم لهذه الفئات مذهب ديني جديد في الوقت الذي كانت المذهبية الدينية تقرر الأمور السياسية . الامر الذي يسّر ظهور المذهب الشيعي . على ان أي مذهب آخر كان قادراً على أن يلعب الدور نفسه .

ولا تعنينا على كل حال شخصية عبيد الله او ميزة المذهب الشيعي . وقبيلة

كتامة هي التي أعطت حركة الفاطميين الطاقة اللازمة لها إذا صحّ هذا التعبير الصناعي .

موطن كتامة

لم تظهر قبيلة كتامة في التاريخ العربي منفصلة عن قبيلة اخرى هي صنهاجة . وقد ذكر المؤرخون هاتين القبيلتين معاً في اكثر من مكان . ويذكر ابن خلدون وراءهما بني زواودة المقيمين بين باجه ودالس على مرتفعات شاهقة ومليئة بالغابات بحيث لا يستطيع المسافر اليها ان يهتدي لطريقه . وكان بنو زواودة حلفاء لقبيلة كتامة منذ قيام الدولة الفاطمية .

وكتامة وصنهاجة والزواودة كانت تقيم في منطقة القبائل المعروفة اليوم ، وهي موريتانيا الرومان . وهي منطقة طبيعية حملت لواء استقلال المغرب . وقد آن الاوان لتظهر موريتانيا ، القبائل على المسرح ، فهي التي احتلت المكان الأوّل عدة قرون وحاولت اثبات وجودها ووجود المغرب .

ومكان كتامة معروف في المجموعة الموريتانية . وقد عدد ابن خلدون مدنها سطيف وميلا وقسنطينة وكولو وجلجلي ، كما أرجعها لجدها كتام ثم وصل الى ايتاو التي تضم جميلة . وجميلة اسم قبيلة وقد أُعطي لخرائب كيكولم . ويذكر بطليموس هذا الاسم باليونانية . وهناك كتابة منقوشة باللاتينية بفدولاس بين ميلا وجلجلي تسميها اوكلماني . وحدود هذه القبيلة واضحة ، حيث تقع في الطرف الشرقي لبلاد القبائل الصغرى بين سطيف وجلجلي وبين بابور وقسنطينة . تلك هي النقطة التي نشأت فيها الدولة الفاطمية وهو أمر يثير العجب . وليس لهذه البلاد مميزات خاصة سوى أنها جبال كسائر جبال القبائل ولكن ما يفرّقها عن غيرها أنها تقع عند الطرف الشرقي لموريتانيا وقد كانت لأمد طويل على اتصال مباشر بموطن الثقافة القرطاجية والرومانية . ففي عهد

الامبراطورية الرومانية كان الوادي الكبير الحد الفاصل بين نوميديا وموريتانيا أي جبال كتامة التابعة لسهول بون (عنابة) وهو مركز حضاري قديم. وكانت سرتا أي قسنطينة حالياً وهي أقدم مدن الجزائر تقع في تلك المنطقة المتصلة بجبال كتامة .

وهي المنطقة المعرّضة أكثر من غيرها لإشعاع الحضارة القرطاجية . وقد جرى تنظيم البلاد ادارياً في وقت متأخرعلى أساس أنها موريتانيا سطيف. ذلك أن أثر البونيين واللاتين فيها قد جعلها مختلفة عن نوميديا وعن موريتانيا نفسها. وكانت المدن اللاتينية تحيط بهامن كل صوب ومنها سرتا وسطيف وميلا و كو كلم. الخ ... إلى جانب المدن الساحلية التي كانت مرافىء فينيقية وقرطاجية مثل كولو وجلجلي . كما كانت على اتصال من جهة الجبال مع مغاربة منطقة القبائل الصغرى وهم أشباه القبائل حالياً وقد كان بروكوب يعجب من بربريتهم : « كانوا يعيشون في أكواخ ضيقة في الصيف والشتاء . ويفترشون الأرض ، أما اغنياؤهم فينامون على الجلود . ولباسهم عبارة عن مئزر بشع ومعطف قديم... ولا يملكون الخبز أو النبيذ أو أي شيء لذيذ ... ويأكلون الحبوب غيرمطهية كالحيوانات ..». ويمكننا في أيامنا هذه ان نعثر في مخلاة رجل القبائل على بعض حفنات الدقيق يلتهمها نيئة طيلة النهار ويمضغها بأضراسه القوية ولا يتناول شيئاً غيرها .

هذا التداخل بين الوحشية والحضارة هو الذي يجعل البربر مهيبي الجانب . انهم جماعات بشرية لها قدرة الحيوان على المقاومة وتحت تصرفها نتاج حضارات قديمة في نفس الوقت . انها سنّة التاريخ ، فالفرنجة مثلاً لم يكونوا غير ذلك . ان حواشي البلاد القديمة المنهكة أمتن من داخلها. وفي تلك الحواشي تتكون دول جديدة سبق ان شارفت على الزوال .

لقد حاول المغرب اعادة بناء نفسه على اطراف افريقية ، في نوميديا اولاً ثم في بلاد كتامة .

وقد كان تاريخ كتامة بمثابة حقبة رائعة ومخيبة للآمال في آن معاً .

وصل أبوعبدالله الداعية نحو سنة ٨٩٠ ميلادية. انهابداية الحركة بعد مضي قرنين على دخول الاسلام بلاد المغرب . فمنذ قرنين والعرب يحكمون سعيداً كلّ افريقية . النقطة الوحيدة التي شعروا فيها وكأنهم في ديارهم . وكان يتولى شؤون افريقية حكام يختارهم الخلفاء إلى أن جاء وقت استطاع ابن الأغلب أحد هؤلاء الحكام ان يقيم حكمه بنفسه ويؤسس دولة الاغالبة دون خوف او وجل . لكنها سلالة عربية محضة . وكان الاغالبة في ذلك الوقت قد ركزوا حكمهم بعد استيلائهم على صقلية ، لكن حكمهم بدأ يهرم بعد ان مضى عليه اكثر من مئة عام وهي فترة طويلة بالنسبة للأسر الحاكمة عند المسلمين . فابن خلدون يحدّد عمر هذه الاسرة بثلاثة اجيال . وقد تصرّف آخر الاغالبة كالمجانين الدمويين .

وكانت بلاد كتامة تابعة لدولة الاغالبة وتقع عند طرفها . وقام بنو كتامة بثورتهم ضد هؤلاء .

اكدجان

يقول ابن خلدون ان مدينة اكدجان تقع في اراضي بني سقيان وهم فرع من قبيلة جميلة . وفي اكدجان اندلعت الشرارة الاولى في المغرب اوّلاً ثم في العالم الاسلامي بأسره . انها معقل التمرد . واسم جميلة كاف لتوضيح الامور لانه مرتبط بآثار كوكلم . وينبغي ان تقع اكدجان في تلك المنطقة ولكن في اي مكان بالضبط ؟ ونبحث في اطلس الآثار الذي وضعه غيزل ، كما نسمع فيرو يؤكد انه تعرف على اكدجان .

ويرى ج . مارسيه انها تقع بجوار قرية شفرول . وفيها نقطة تدعى بالعربية ضربة الكلب وكلمة اكدجان تعني الكلاب . وليس في المنطقة خرائب ظاهرة غير ان السكان يذكرون اسم اكدجان . هذا كل ما بقي من آثار المنطقة التي انطلق منها الفتح الفاطمي !

ودور اكدجان الواقعـــة في المكان الذي ذكرناه يبـــدو واضحاً . ففي العصور الحديثة لم يستطع الاتراك الولوج لمنطقة القبائل الصغرى إلاّ بعد احداث خراب كبير . وهناك محاولة لعثمان في الوادي الكبير تسقط فيرو اخبارها، كما سمع هذه الطرفة عن جبلي القبائل : وهي ان احد الرجال تخاصم مع جاره على قضية فطلب من احد الاشخاص المقيمين مجدداً في المنطقة ان يسرد له قائمة من الشهود تثبت حقه فرفض هذا الاخير . بعد ذلك بايام عاد القبلي اليه مائلاً كلتا يديه وقال له : انظر، في يدي هذه خمسة دراهم أدفعها ثمناً للورقة التي طلبتها وفي يدي الاخرى خمس رصاصات سأضعها في بندقيتي وبنادق أبنائي لنطلقها عليك ان لم تلبّ ما طلبناه » . في صبيحة اليوم التالي غادر الرجل الغريب المكان الى منطقة اقلّ همجية .

ورجال القبائل هؤلاء يشابهون بوحشيتهم اولئك البدو الرحل . حتى أن السلاطين والوجهاء لم يستطيعوا فرض سلطتهم عليهم .

يقول فيرو ان السلاح الوحيد الذي كان يستخدمه الأتراك ضدهم هو إلقـاء القبض على رجال القبائل العاملين في قسنطينة والاحتفاظ بهم كرهائن ردّاً على الإساءات التي يقوم بهـا إخوانهم في الجبال وكثيراً مـا كانوا يحكمون عليهم بالاعدام .

وكانت العلاقات بين السلاطين الأغالبة وبلاد كتامة على هذا النحو .

في فترة من الفترات الحرجـة قصد ابو عبدالله الشيعي إلى اكدجان ليحتمي فيها . وزحف القائد الأغلبي لإخضاعه . لكنه صادف صعوبات جمة كلمّا توغل في بلاد كتامة واضطر في النهاية للانسحاب .

وقد ادرك المؤرخون العرب أن هؤلاء القبائل بعيدو المنال . ويقول ابـن خلدون : « ما من شيء تغيّر في مواقف كتامة منذ دخول الاسلام وحتى عهـد الأغالبة . فلم تكن هذه القبيلة تشعر بالخوف نظراً لكثرة عددها » . ويؤكـد

هذا الرأي ابن الرقيق في تاريخه .

وانه لأمر يثير العجب عجز الحـكام العرب والأتراك عن إخضاع أبناء القبائل . على ان اكدجان لا تحتاج لبحث طويل ، ففي قلب منطقة القبائـل الصغرى كانت المعقل الذي لا يمكن اقتحامه .

سقوط الأغالبة

كان وصول ابي عبدالله كما أورد ابن خلدون في سنة ٨٩٣ . وفي سنة ٩٠٢ تورط أحد القادة الأغالبة بمهاجمة المناطق الجبلية بغية الوصول إلى اكدجان . ثم بدأ بنو كتامة الهجوم وقد وقع على عدّة مراحل. ففي ابريل ٩٠٩ استولى جيش كتامـة على القيروان بدون قتال وقد فرّ منها آخر الأغالبة وسكّ فيها ابو عبدالله اول النقود الفاطمية . بعد ذلك بأشهر اي في ديسمبر وصل المهدي نفسه القيروان حيث جيء به من سجلماسة واصبح اول سلطان فاطمي . وكان اول عمل اقدم عليه ابو عبيدالله المهدي قتل ابي عبدالله الذي مهّد له طريق الحكم . وقد خاطبه قتلته قائلين : ها ان الذي دعوتنا بالخضوع له يأمرنا بقتلك .

لكن المهدي لم يستطع التملص من نفوذ كتامة التي جعلته سلطاناً ولا يمكنه بدونها ان يفعل شيئاً . وقد كافأ زعماء كتامة بتقديم خـدمات كبيرة لهم كما وزع عليهم مبالغ من المال وعدداً من الجواري الجميلات ، واوكل اليهم مراكز قيادية مهمة .

وهكذا وقعت افريقية التي عرفت نظام الدولة في عهد الأغالبة وقعت في يد الفاطميين مع المنطقتين الملحقتين بها وهما طرابلس وصقلية . « وانتظمت مكاتب الحكومة وامر نظام الجباية بدقة وعين الحكام في جميع المدن يساعدهم الموظفون» ، وبين عشية وضحاها اصبح الفاطميون اسياد كل شيء وذلك بفضل كتامة التي لولاها لم يتحقق شيء .

وكان من نتائج الانتصار بناء مدينة جديدة هي المهدية . لقد قصد المهدي بنفسه المنطقة الساحلية لاختيار عاصمته بعد ان زار تونس وقرطاجة . ووصل إلى شبه جزيرة لها شكل يد متصلة بقبضة فاختارها موقعاً لمدينته الجديدة . وامر بتطويقها من كل جانب بالاسوار التي تتخللها الابواب الحديدية . وبدأ العمال البناء في يونيه ٩١٦ . وأعدت في الهضبة ترسانة تتسع لمئة سفينة حربية كما حفرت المستودعات والمخازن . وارتفعت البيوت والقصور، وانتهى العمل بين ٩١٨ و ٩١٩ . وبعد ان انهى المهدي مهمته هتف : الآن صرت مطمئناً على مصير الفاطميين .

هذا ما اورده المؤرخون العرب، ومن المألوف كما رأينا ان يعمد كل حاكم جديد لبناء عاصمة جديدة . لكن هناك اسباباً تكمن وراء الاختيار .

فالقيروان كانت عاصمة الاغالبة ، كما كانت عاصمة القواد العرب . وتقع وسط السهل في حين كان بالإمكان جعلها في المرتفعات على مسافة قريبة . غير أن البدو بطبيعتهم يفضلون السهول . فلم تكن المدينة إذن قلعة محصنة وانما مخزناً ومسجداً . ثم إنه جرى الاستيلاء عليها مرات عديدة طيلة حياتها التي استمرت قرنين ونصف القرن . فمن الطبيعي أن لا يرغب القبائل الجبليون بالإقامة فيها .

وفي السنوات الاخيرة التي مرّت على عهد الاغالبة أي نحو ٨٩٠ ، وقعت حركة تمرد في تونس وضواحيها عند بدء حركة الفاطميين. وإثر حركة العصيان هذه امر السلطان ابراهيم بن الاغلب – بعد ان قمعها بشدة – ان تبنى له في تونس قصور تصلح مكاناً لإقامته . سرعان ما انتقل اليها بصحبة القواد والعلماء . وقد فكر آخر الاغالبة جدياً ببناء عاصمة جديدة .

وقد رأينا كيف ان عبيدالله المهدي قد زار تونس وقرطاجة خلال بحثه عن

العاصمة الجديدة . ولا بدّ لاسم قرطاجة وتونس ان يتردد دائماً في مجال بناء المدن الجديدة . لكن الفاطميين حين هجروا القيروان لم يتجهوا إلى تونس ، إذ لا تستطيع أية سلطة تعتمد القبائل الجبليين إلاّ أن تتجنب هذه المدينة الحضرية والصناعية .

وهكذا فرضت فكرة بناء المهدية نفسها . وتمّ ذلك على الساحل التونسي في منطقة لا نظير لها في سائر المغرب . فخليج سرت فريد من نوعه ، لان البحر هناك مليء بالجزر ومياهه غير عميقة وهي ذات طبيعة جغرافية مميزة، وهكذا أصبح المغربي ساكن البر دائماً من سكان السواحل . وعاشت هناك فئة من الناس تصح تسميتها بالبرمائية تعيش على الزيتون وصيد السمك . انها النقطة الوحيدة التي ظلّ فيها الشعب البوني عاشقاً للبحر . وفي منطقة ليست بعيدة عن شاطىء المهدية جرى انتشال مركب روماني غرق منذ ألفي عام وكان محملاً بأحلى التماثيل البرونزية الإغريقية التي تزين الآن متحف العلوي . ويدلّ العثور عليها انها واقعة في مكان يؤمه الغطاسون وصيادو الاسفنج .

لقد اثبتت مدينة المهدية جدارتها حيث أشرفت على البحر دون أن تفقد البرّ . ولا سيما وان الأغالبة أسياد صقلية قد تركوا للفاطميين اسطولاً بحرياً . وهكذا كان اختيار موقع المدينة موفقاً جداً.

وكان على المهدية على كل حال ان تخوض التجارب ، ففي سنة ٩٤٥ حاصرها ابو يزيد صاحب الحمار . كان ذلك في فترة عظيمة الحرج في تاريخ الفاطميين ، حيث اضطر هؤلاء للانحسار وتجمعوا في المهدية نفسها .

ويروي المؤرخون عن عبيدالله المهدي انه ما ان ارتفعت اسوار المهدية حتى وقف المهدي على احدها واطلق سهماً باتجاه الغرب واشار إلى المكان الذي وقع فيه وقال : « هذا هو المكان الذي يستطيع صاحب الحمار بلوغه » .

ويقول «البيان» إن صاحب الحمار قد تقدم كثيراً حتى بلغ ابواب المدينة .

فشاهده احد جنود المشاة فأسرع راكضاً الى السلطان . فوجده يعبث بسمكة داخل اناء. فخاطبه قائلا: أراك تلعب وراكب الحمار طرق برمحه باب مدينتك؟ فأجاب السلطان : — هل انت متأكد من ذلك ؟ فقال : طبعاً ! فقال الامير : لن يرجع سالماً لأن ساعته قد أتت . هذا ما قرأناه في كتبنا . ثم أمر بمهاجمتـه على الفور .

ولما تحقق النصر النهائي على يد السلطان المنصور، أنس هذا من نفسه القوة وقـــرر العودة الى القيروان او بالاحرى الى احــد احيائها واطلق عليه اسم المنصورية . وتضررت المهدية كثيراً من هذا التدبير لان معظم احيائها اصبحت خاوية كما قال البيان . لكنها حافظت على وجودها واصبحت بمثابــة مرفأ للقيروان وقد عزّزها موقعها الحصين والسمعة التي اكتسبتها بعد الحصار .

وفي العاشر من يونيه سنة ٩٧٣ استولى الخليفة الفاطمي عـــلى مصر وقرر الاستقرار فيها بعد ان هجر المغرب نهائياً . وبين ٩١٨ و ٩٧٣ كانت المهدية والمنصورية مــن أهم العواصم التي عرفتها افريقية او تونس الفاطمية . حيث اصبحتا مركزين للخلافة وليس للسلطنة فقط .

معنى انتصار الكتاميين

لأوّل مرّة نرى قبيلة بربرية تأخذ الحكم من العرب ، لا في المغرب وحسب بل في المشرق ايضاً . انها ثورة عارمة من صنع الكتاميين أوّلاً . وذلك بإجماع المؤرخين .

فقد أشار ابن خلدون الى الدور الكبير الذي لعبه الكتاميون وقال : « ان ثورتهم قد قضت نهائياًعلى الدولة العربية في افريقية ، واوصلتهم إلى سدّة الحكم. وقد حذا برابرة المغرب حذو جيرانهم ، وبدأ نفوذ العرب يتقلص في افريقيــة والمغرب وانتقل الحكم إلى البربر ».

والكتاميون هم الذين اقفلوا نهائياً حركة الفتح العربي وقلبوا التيـــار رأساً على عقب . ذلك هو مدلول انتصار الفاطميين .

والكتاميون هم الذين صنعوا الثورة التي قادها عبيدالله وخلفاؤه . وعلينـا ان ندرك ان هؤلاء كانوا وراء تخلص المغرب من فاتحيه الأجانب . ذلك حدث فريد في تاريخ المغرب . فلأوّل مرة منذ ألفي عام استطاع أبناء البـــلاد طرد الدخلاء بأنفسهم .

على ان هؤلاء الكتاميين يحملون قناعاً اجنبياً ، فـلو ولجنا إلى باطن الأمور لوجدنا ان الخضة التي عرفها المغرب بدأت في زاوية صغيرة ببلاد القبائل واقعة في رقعة مثلثة بين سطيف وجلجلة وقسنطينة . زاوية نسيها العالم على الارجح لكن هذا المثلث الصغير مـــا زال يحمل آثارها . وبوسعنا لو زرنا المكان ان نحدد موقع الهزة تحديداً حقيقياً .

زوال القبيلة

يقول ابن خلدون في القرن الرابع عشر ان اسم كتامـة زال من الوجود ، وقد علـّل أسباب هذا الزوال :

« حين انشأ بنو كتامة دولتهم في الغرب انتقـلوا الى الشرق حيث استولوا على الاسكندرية ومصروسورية. وبعد ان أسسوا مدينة القاهرة قصدها خليفتهم الرابع المعزّ واقام فيها مع ذويه وأصحابه.وأصبحت دولة الكتاميين ذات بأس فغرق هؤلاء في حياة البـــذخ والترف وكان قسم منهم قــد بقي في موطنهم الأصلي ... ومن أهم القبائل الكتامية قبيلة سدويقش . وتقطن السهول الواقعة بين قسنطينة وباجـــه ... وهي تنكر اصلها الكتامي دفعاً لعار الانتماء الى المذهبية الشيعية في حين انها تنتسب لكتامة فعلاً. وهذا مـــا يؤكده مؤرخو قبيلة صنهاجـــة ، كما ان الموقع الافريقي الذي تسكنه قبيلة سدويقش يشهد بذلك » .

ويؤكد فيرو نظرية ابن خلدون هذه . ويلاحظ ان اسم كتامة قد اختفى منذ وقت طويل لأنه اصبح مرادفاً للشتيمة حيث يعني : « المتاجر بالأعراض والجاحد والذليل » .

ومن الطبيعي ان ينكر جميع سكان البلاد انتسابهم لهذه القبيلة . على انه ليس من المستغرب اختفاء الكثير من القبائل ، فهي قاعدة معروفة في تاريخ المغرب . إذ اختفت قبيلة بني كومية وهم مؤسسو دولة الموحدين ، كما اختفت قبيلة صنهاجة الصحراوية مؤسسة اسرة المرابطين . ويعود انشاء الدولة لقبيلة واحدة ، لأن القبيلة هي الخليّة التي تكوّن جسم الجهاز السياسي وهي الجزء الحيوي الوحيد . وليس شرف انشاء الدولة طويل الأمد لان القبيلة تستنزف نفسها في الحرب من جهة و في ملذات السلطة من جهة أخرى . تلك هي قاعدة ما برحت تتردد منذ القدم في بلاد المغرب . واليك مثالاً خاصاً على ذلك في قبيلة كتامة .

ان ما اختفى منها هو اسمها وذكراها وتقاليدها وشخصيتها الجماعية لكن العنصر البشري لا يتبدد بسهولة ، وبالإمكان العثور على بقايا القبيلة ضمن حدودها الجغرافية الاولى .

يقول فيرو : لا يعثر في بلاد القبائل الشرقية — كما في الغربية — « على تلك القرى الكبيرة المكتظة بالسكان ، والبيوت المبنية بناءً محكماً بلونها الابيض وسطوحها المسقوفة بالآجر والتي تشير الى بحبوحة في العيش . ففي المنحنى الشرقي ابتداء من بابور وحتى ادوج بجوار بون (عنابه) لا نرى سوى اكواخ متواضعة يعيش فيها البشر والحيوان معاً » . ويقول دوتيه ان أبناء هذه المنطقة هم أشد الجزائريين بدائية . ومنطقة القبائل الصغرى شرقي بابور هي موطن قبيلة كتامة بالضبط .

ويشكل هذا الموقع تعاكساً اقتصادياً مع باقي بلاد القبائل ، لما هو عليه من تأخر .

يضاف الى ذلك — كما يقول فيرو — انه ابتداء من بابور باتجاه الشرق « تتغير اللغة أيضاً . فلغة القبائل لا يفهمها ولا يتكلمها أحد . أمّا اللغة الشائعة فهي اللغة العربية التي تتخللها بعض التعابير الدخيلة التي تحتاج بعض الوقت لفهمها . وقد أجرى فيرو دراسة صغيرة عن هذه اللغة المحلية وأورد بعض النصوص كشواهد .

هذا واجزاء المغرب التي تتحدث بالعربية ، لم تتعرف على لغة الضاد في وقت واحد . ففي تونس وسهل عنابة كما أسلفنا تلاحم بين العربية والبونية ، وعلى كل حال فإن اللغة العربية قد دخلت الى المدن الرومانية البونية في عهد الخلفاء . وليس من المعقول ان تكتفي المدينة بلهجة محلية اذ يلزمها لغة فعلية . وعلى المرتفعات الجزائرية العالية نلاحظ ان استعمال اللغة العربية جاء متأخراً. ويفيد ابن خلدون بأن ظهورها لا يتجاوز في قدمه القرن الرابع عشر او الخامس عشر . أما في جبال بلاد القبائل الصغرى فيختلف الحال والتاريخ . فمن الواضح أن الكتاميين كانوا يتكلمون البربرية في الأصل . وقد سبق لنا القول ان معقل الداعي في منحدرات بابور الكلسية كان يحمل اسم اكدجان اي «الكلاب». وقد ساعدت التسمية العربية « خربة الكلاب» على التعرف على هذا المكان . ثم إن وادي قسنطينة الذي نسميه الرمل واسمه الكامل وادي الرمل كان يدعى بالبربرية سوف جمار أي وادي الرمل أيضاً . ومن الصعب أن نغفل الصلة بين الدور التاريخي الذي لعبه الكتاميون وبين حلول العربية محل البربرية . وتختلف اللهجة العربية في بلاد القبائل الصغرى عن سائر اللهجات العربية الأخرى في بلاد المغرب لأنها جاءت بخلاف هذه الأخيرة في القرنين العاشر والحادي عشر .

وهكذا تبقى آثار الفاطميين في حدودها الجغرافية الدقيقة ، فقد ظلت هذه الحدود بين بلدان القبائل الأخرى أكثرها تأخراً وأشدها استعراباً . وليست هذه النتائج متناقضة على كل حال ، اذ لا يلزمنا خيال واسع لإدراك تفاصيل القضية .

لنفكر بالحظ العريض الذي أصاب هذه القبيلة الضئيلة العدد . فأكثر ابنائها تواضعاً استطاع أن ينال نصيبه بعد ان عمل في المجال العسكري أو الاداري في المدن الأفريقية الكبرى وحتى في مدن الشرق البعيدة. ولهذا رأوا لزاماً عليهم أن يدرسوا اللغة العربية من أجل تحمل مسؤولياتهم الجديدة ، وكانوا في نفس الوقت ناجحين في الحياة يخجلون من لغتهم فتخلوا عنها وكأنها عيب . وبعد ان عاد من عاد منهم الى بلاد القبائل لم يستطيعوا التعرف على أنفسهم . لقد جلبوا الى هذه البلاد تعفن المدن الكبيرة وتزعزع الروح التي هزها الانتقال المفاجيء . تلك هي أشياء بسيطة لا تتمشى مع التقاليد القديمة والاعتقادات الراسخة ، والرضوخ العفوي للأمر الواقع ، وكلها ظروف مؤاتية لازدهار المناطق الريفية البسيطة .

٦ – مملكة قبائل صنهاجة

قبيلة صنهاجة

من الواضح أن عبيد الله المهدي « الإمام الغائب الرابع » كان شرقياً كداعيته ابي عبد الله « الشيعي » . والشرقيون هم روح هذه الحركة المغامرة التي عرفها المغرب وليس بنو كتامة سوى أدوات لها . وكان اهتمام عبيد الله منصباً على سورية وبلاد ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب ومصر ولم يفكر في أي شيء آخر . وفي هذه البلدان ظلّ قلب دعاته أيضاً .

يقول ابن خلدون ان البيعة تمت في مكة بين الداعي ابي عبد الله وبين أشخاص من بني كتامة .

فقد دخل المهدي القيروان بعد مغادرته السجن سنة ٩٠٩ . وفي عام ٩١١ قضى على داعيته ابي عبدالله . وفي عام ٩١٣ أرسل حملته الأولى إلى مصر براً وبحراً . واحتل أسطول مؤلف من مئتي سفينة مدينة الاسكندرية ، وبلغ الجيش البري بقيادة ابي القاسم ابن المهدي ، الفيوم . ولم يفكر المهدي ببناء المهدية قبل سنة ٩١٦ ، وكان آسفاً على عدم تمكنه من قطع صلاته بالمغرب نهائياً . ثم إن اختيار عاصمة ساحلية من شأنه أن يعزز مشاريع الفتوحات الشرقية .

على أن الاسرة الفاطمية كانت – كأسرة حاكمة – مصرية . ولم يكن باستطاعة قبيلة صغيرة من المغرب تجهل العربية تقريباً أن تقدم أكثر من السيوف. على أن

عظمة بني كتامة هؤلاء كانت كالشهاب ، لمعت ثم انطفأت بسرعة .

ولم يتحقق حلم المهدي بفتح مصر قبل يوليو ٩٦٩ في اليوم الذي دخلت فيه القوات الفاطمية (أي الكتامية) مدينة القاهرة القديمة . وسقطت دمشق عام ٩٧٠ . بعدها مباشرة قصد المعز حفيد عبيد الله إلى مصر مع أقاربه وأعوانه بعد أن قرّر مغادرة القيروان . وتمّ الاستيلاء النهائي على القاهرة الجديدة في ١٠ يونيه ٩٧٣ .

وأصبح المغرب بالنسبة للفاطميين مرة أخرى بلاداً بعيدة بربرية . اذ كانت هذه البلاد منطلقاً ليس إلاّ ، وهكذا لم تدم سلطة الكتاميين أكثر من خمسين سنة .

لكن العمل الذي دشنوه استمر من بعدهم . فقد وضعوا راية المغرب ان صح القول ، او حظ المغرب في السيطرة على زمام امره وتوجيه مصيره ، وضعوها في يد القبائل الجزائريين ، وقد حافظ هؤلاء طويلاً على هذا المصير .

وخلفت كتامة على الفور قبيلة أخرى مجاورة وقريبة هي قبيلة صنهاجة. ولم يتنبه أحد الى أن الصنهاجيين من القبائل ، لأن احداً كذلك لم يشر لأصل الكتاميين القبلي . على أن القضية معقدة جداً بالنسبة لصنهاجة .

فصنهاجة أو الزناغة (فالتسمية هي نفسها) قبيلة كبيرة مشهورة جداً وأبناؤها موزعون في مختلف أنحاء المغرب فقبائل البربرية المراكشية تنتمي الى زناغة كما يقول ابن خلدون . لكن زناغة الصحراء هي القبيلة المهمة فقد ورد ذكرها في كتاب بطليموس وهي التي اعطت اسمها لبلاد السنغال . فالصنهاجة الملثمون هم الذين كانوا وراء المرابطين في بناء مراكش وغزو اسبانية وإقامة الامبراطورية . ويبدو ان صنهاجيي بلاد القبائل يعون الصلة التي توحّد بينهم حق الوعي . وقد أورد ابن خلدون ان أميرة من المرابطين قد رجت احد صنهاجيي القبائل طالبة إليه المساعدة باسم القرابة بين موطني صنهاجة .

وقد لقي رجاؤها استجابة في نفس المنتصر. على أن كل ذلك وقائع تزيد في تشوش الصورة لأوّل وهلة .

لكن من السذاجة تجزئة القبائل البربرية في المغرب . فبنوا أوربة الأوراسيون الذين ساروا وراء كسيلة هم أنفسهم الذين التفوا حول ادريس في فلبيلس .

وفي بلاد القبائل نفسها هناك قبيلة تدعى غشتولة ، يعتبرها بعضهم نفس «الجتولا» الذين يعتبرون من الصحراويين. إن هذه التجزئة بين القبائل دون ذكر موطنها الجغرافي هي التي تجعل تاريخ المغرب صعباً علينا نحن الغربيين .

ومن واجبنا إن شئنا تفهم الأمور أن ننظر للحدود الجغرافية مغفلين تشابك الأنساب التي أوردها المؤرخون العرب ، هذا رغم تخوفنا من الوقوع في الخطأ .

لم يذكر المؤرخون العرب الكتاميين مرّة إلاّ وذكروا الصنهاجيين الى جانبهم ، معتبرين أنهم يرجعون لأصل واحد فهم جميعاً من الحميريين . ولو صحّ شيء من هذه الاسطورة ، لكان من الواجب ربطه بذكرى الاحتكاك الطويل مع افريقية البونية ، وافريقية الرومانية الملحقة بالعناصر البونية .

ويطلق ابن خلدون على صنهاجة بلاد القبائل ، لقب صنهاجة العرق الأول، أي أعرق الصنهاجيين . لكنه يحدد المكان الذي عاشوا فيه بين مسيلة والجزائر مروراً بتتري وميديا . وهي المنطقة التي كان يسلك فيها الناس طريقهم بين موريتانيا سطيف وموريتانيا القيصرية ، طريق تقوم على جانبيها الجاليات كما أنها خاضعة لتأثير الحضارات القديمة . وهناك تقع اوزيا (أومال) ورابيدي ولمبديا (ميديا) الخ... وتكثر فيها الآثار الرومانية النادرة عادة في منطقة القبائل .

في تلك الحدود اندثر اسم صنهاجة ، كما اندثرت اللغة البربرية ولم يبق سوى

فئة بربرية قليلة تقيم بين بليدا وميديا . وهذا شيء طبيعي بالنسبة للبربر الذين لا يحافظون طويلا على شرف تأسيسهم الممالك. على أن ابن خلدون يعدد القبائل الصنهاجية الفرعية ومنها ما هو مرتبط ببقعة من الأرض . فهناك بنو أونـّغة مثلا ، ينطبق عليهم اسم المنخفض الواقع شمالي جبل شقشط والمنصورة ويدعى منخفض أونـّغة وتشرف عليه « الجرجرة » وهوم للاّ خديجة المثير . وهناك أيضاً بنو مزرانه ، ونحن نعلم بأن الجزائر كانت تدعى في السابق جزاير بني مزرانة ، حتى أن قبائل جرجرة يدعونها مزرانه حتى اليوم بلغتهم المحلية . واسم « لمدية » اعمق دلالة وهي قبيلة صنهاجية ، اسمها مرادف لميديا . وهذا تفصيل بسيط يوضح العلاقة بين صنهاجة وعصر ما قبل الاسلام .

ويورد ابن خلدون في موضع آخر : إن ارض الزواوة تفصل بين موطن كتامة وموطن صنهاجة . ونحن نعلم بأن قبائل جرجرة تسمي نفسها بالزواوة . ويعتبر ابن خلدون أن الزواوة فرع من بني كتامة ويسخر من النسابين الذين لا يفرقون بينهم وبين زواغة القبيلة الصحراوية . ويستند ابن خلدون على القرب الجغرافي بين زواوة وكتامة ، واجماعها على تأييد عبيد الله .

كما يشدد على صلة الموالاة التي تجمع بين زواوة وصنهاجة وكتامة أيضاً : « احتل هذا الشعب -تحت حكم الصنهاجيين- مرتبة مميزة سواء في زمن الحرب أو في فترات السلم . ذلك أنه ظلّ موالياً لقبيلة كتامة منذ بداية عهد الدولة الفاطمية . حين أقام الصنهاجيون في باجه على أرض زواوة استطاعوا اخضاع هذه القبيلة ، وظلت القبيلة على ولائها لهم إلاّ في مجال جباية الضرائب . فقد كانوا يتمردون عليها لأنهم مطمئنون لقدرتهم على الفرر إلى جبالهم الآمنة . » ودفع الضرائب كما لاحظه ابن خلدون دليل الخضوع .

ويقول المؤرخ العربي إن هؤلاء الصنهاجة من الحضر المستقرين على العكس من أبناء عمهم المرابطين وهم من البدو . « وكانوا مقيمين في البقعة الفاصلة بين أواسط المغرب وافريقية » . في حين أن بني مسوفه ولمتونة « كانوا مقيمين في

الخيام وسط الصحراء » . ولنلاحظ هذا التعبير : « بين أواسط المغرب وافريقية » فأواسط المغرب تعني موريتانيا القيصرية . وافريقية تعني مقاطعة افريقية .

وهكذا نلاحظ أن بلاد صنهاجة تقع على طريق تقطع بلاد الحضر .

ويعطي ابن خلدون عن بني لمتونة المرابطين الحكم التالي « إن الشعب الذي أسس دولة في كل من اسبانية وافريقية ... قد زال من الوجود ، فقد استنفد حب السيطرة قواه وانصرف الى الملذات والغزوات البعيدة حتى أبيد في النهاية . أما أولئك الذين ظلّوا في الصحراء ، فما من شيء غيّر في نظام حياتهم ، وقد حافظوا على وجودهم حتى اليوم » .

وهذا حكم نستطيع اطلاقه على جميع كتلة بلاد القبائل مع تغيير الأسماء . لقد اختفت القبائل التي أسست دولة كتامة وصنهاجة من الوجود . لكن الذين لم يغادروا جبالهم حافظوا على بقائهم فيها ولا يزالون محافظين على أسمائهم القديمة . فقد ذكر ابن خلدون بني يني وبني غشتولة وبني فراوسن وبني إراطن من سكان بلاد القبائل . ويذكر المؤرخ العربي ان جبال بني إراطن « مواقع يسهل الفرار اليها والذود عنها . وهذا ما أجرى عليه الماريشال راندون اختباراً .

جميع هؤلاء اعترفوا بسلطة السلطان الصنهاجي ، بمن فيهم بنو إراطن . وقد ورد اسمهم مع « القبائل الخاضعة » كما ذكر ابن خلدون الذي عايش القضية حيث كان وزيراً في باجه . في ذلك الوقت كان أسلاف القبائل الحاليين من « الحلفاء المخلصين من البداية حتى النهاية » . لقد كانت هناك كتلة من القبائل أصبحت كتامة وصنهاجة بعدها رائدة لها . هذه حقيقة لا تقبل الشك ، كما يسهل علينا فور التسليم بها أن نعرف تاريخ صنهاجة .

لم يسهب المؤرخون العرب بمن فيهم ابن خلدون في ذكر تاريخ هذه القبيلة . لا سيما وأن ابن خلدون عاش بعد نشأة الدولة الفاطمية بأربعة قرون ، ولم يعد لمغرب القرن الرابع عشر وحتى لمغرب الثالث عشر صلة بالقرن العاشر والحادي عشر .

وتركز اهتمام المؤرخين حول قضايا عصرهم . على انه كان لصنهاجة مؤرخوهم المعاصرون لهم . ومنهم ابن شداد الذي كان واسع الاطلاع لأنه – كما قيل – ينتمي للعائلة المالكة .

وقد فقدت مؤلفاته كما فقدت مؤلفات غيره ممن عملوا بوحي الأسرة الصنهاجية . لكنها وصلت الى ايدي المؤرخين الذين جاؤوا بعدهم امثال ابن خلدون والبيان وابن الاثير والنويري . وقد استقوا منها المعلومات ، ولا شك أن ما أتوا به نقلا عنها يعتمد شواهد عاصرت الأحداث .

اسم مؤسس الأسرة زيري بن مناد . وهو اسم عظيم جداً بل لعله أعظم الاسماء في تاريخ البربر في العصر الوسيط .

وطبيعي أننا لن نستطيع العودة الى أصله ، لكننا نعتمد نتيجة أعماله . فهو أوّل بربري أصيل أستطاع أن يؤسس مملكة .

ولا شك انه صادف مصاعب عديدة نظراً لانتمائه لأصل متواضع وقد دعاه ابن الأثير بزيري الحميري ، وكان بالفعل يحمل هذا الاسم ، لكن اسماً كهذا يدلّ على صعوبة نسبته لأصل عربي . قبله كان كسيلة والكاهنة ، لكنهما لم يتركا سوى ذكرى المقاومة التي لم تجد نفعاً . أما زيري فقد أسس مملكة قوية قامت بأعمال عظيمة ، وهي في رأيي أهم الممالك البربرية .

وقد شعر المحدثون بأهميته أو أنهم تأثروا بشخصيته . وتروى عنه أسطورة نقلها ابن خلدون باقتضاب . وتروى حول ولادته نبوءات وعجائب كثيرة ، وطفولته شبيهة بطفولة هرقل . لكن الأجيال اللاحقة لم تلهج باسمه ، فهو أقل شهرة من كسيلة والكاهنة ، اذا تغاضينا عن ذكر مسينيسا وجوغرتا . ذاك أن اسمه غاب في خضم تاريخ المغرب المبهم . والمجد له ظروفه الخاصة .

يبدو زيري وكأنه يد الفاطميين اليمنى أي مساعد الكتاميين الأول . ويقول النويري نقلاً عن ابن شداد أن علاقة وطيدة كانت تربط زيري بالخليفة الفاطمي.

وقد لعب دوراً مهماً في جميع مراحل الفتح الفاطمي في المغرب . ففي حصار المهدية هبّ زيري لمساعدة المدينة المحاصرة ، حيث أمدّها بالمؤن وساعد على فكّ اخطر حصار ضرب حولها . وقد ظهر زيري حين حوصر أبويزيد صاحب الحمار في قلعة كيانه وجرح أبا يزيد وجُرح . وحين فكّر الحاكم الفاطمي بارسال جيش الى فاس كان زيري على رأس الحملة وقدم خدمات جلّى . وظلّ حتى وفاته مخلصاً لمن هو مولاهم .

كما حصل ان الحاكم الفاطمي اختار حين فكّر بغزو مصر بلكين ابن زيري ليكون نائباً له . « بحث الخليفة بين كبار ضباط الدولة عن رجل مخلص جدير بأن يوكل اليه حكم المغرب . فوقع اختياره على بلكين ابن زيري . لقد دافع هذا القائد – الذي عملت عائلته في خدمة الفاطميين – عن قضية الشيعة وذاد عن دولتهم » . وهكذا تمكن بنو زيري من تولّي الحكم في المغرب تحت راية الفاطميين. لكن النزاع نشب بينهما فيما بعد ،واشتد بازدياد هؤلاء اندماجاً بمصر ازدياد اولئك اندماجاً بالمغرب . أما في البداية فقد انتقل الحكم بصورة طبيعية من الكتاميين الى الصنهاجيين ، لأنهم جميعاً دافعوا عن قضية واحدة ، قضية القبائل .

العواصم – آشير

هناك شك يخيم على موقع اكدجان معقل كتامة الأول ، لكن عواصم الصنهاجيين معروفة وهي ثلاثة : آشير والقلعة وبجايه . واليك معلومات عن كل منها :

أقدم هذه المدن آشير . وكانت تقع شرقي بوغاري . وبالإمكان تحديدها بالضبط على أطلس غيزل الأثري . كما تنبغي الاستعانة بعمل الكابتن « روديه » وبمقال جورج مارسيه . والنتائج التي يخلصون اليها واضحة . فبقايا آشير موجودة في الجبل الاخضر . وكان يدعى جبل تتري في عهد ابن خلدون .

لكن هذا الاسم لم يعد يدل على نقطة بالذات وإنما يشتمل على ولاية تتري في عهد الاتراك وعاصمتها ميديا . والأخضر أعلى نقطة في سلسلة الجبال تلك ، إذ يزيد ارتفاعها على ١٤٠٠ متر وتتخللها المنحدرات الصخرية والسفوح الحادة . وتعتبر موقعاً جغرافياً ممتازاً على حدّ قول الكابتن روديه . وهناك ثلاث مناطق أثرية بين بانيه وعين بوسيف على خريطة قياسها $\frac{١}{٢٠٠,٠٠٠}$. وأبعد هذه المناطق الى الغرب منزه بنت السلطان وتقع بجوار عين بوسيف ولم تكن سوى قلعة قريبة منها . أما الموقعان الاثريان الآخران اشير وبانيه فيبدوان كمدينتين منفصلتين لكن أحياءهما متصلة بعضها ببعض. ولعلّ بانيه أهم هذه التجمعات البشرية وأحدثها . إذ يسهل التعرف على آثار المسجد فيها .

وإذا كنا لانعرف المزيد عنها فمرد ذلك للاهمال. ومن غرائب المفارقات أن تذهب عاصمة بني زيري ضحية النسيان كما جرى لهم أنفسهم .

فزيري هو الذي بنى آشير . وإليك ما أورده في ذلك النويري عن شداد : « بعد أن اختبر زيري المكان قال لأصحابه ، هذا الموقع هو المناسب للإقامة . وقرّر أن يبني فيه مدينة آشير » . (كان ذلك سنة ٣٢٤ للهجرة الموافق لسنة ٩٣٥ من التاريخ المسيحي) . ويذكر ابن شداد : « ان المكان لم يكن مأهولاً في ذلك الوقت . واستقدم زيري من المسيلة وحمزة وهدنة عدداً كبيراً من النجارين والبنّائين وطلب الى الخليفة أن يرسل اليها مهندساً لا نظير له في افريقية . وبدأ المهندس العمل وفرغ من بناء المدينة » . لم يبق عليه بعد ذلك إلا ان يجد لها سكاناً . « وقصد زيري الى تبنة والمسيلة وحمزة لينقل منها أهم مواطنيها إلى آشير . وهكذا تمكن من توطين الناس في عاصمته الجديدة بعد ان جعل منها قلعة حصينة ... وسرعان ما اكتسبت أهمية كبرى حين اصبحت مركزاً لتجمع الفقهاء والعلماء والتجار » .

ليست هذه الصورة الساذجة بعيدة عن الحقيقة فكثيراً ما كان الأمير ينشىء مدينته من العدم حيث يأمر ببناء بيوتها ثم يملأها بالسكان ، ويحرص على

استقدام الحضريين اليها من المدن الأخرى . ويعرف ابن خلدون أن بناء المدن إنّما هو نتيجة لقيام الأسرة بحيث ان الأولى تزول بزوال الثانية .

ولكن لا يذهبن بنا الظن إلى ان آشير لم تراعَ فيها أي من المقتضيات الجغرافية . إذ كانت تقع في آخر نقطة جنوبية غربية من كتلة القبائل ، فهي نهاية الطريق التي تبدأ من الساحل وهذا من أهم المميزات الجغرافية . ويوجد اليوم خط حديدي يصل الجزائر بميديا وبوغاري في نفس المنطقة . ويشير المؤرخون بإيجاز الى ان زيري قد سارع لوضع يده « على تلك الطريق المهمة » . ويضيف ابن خلدون : « بعد ذلك بوقت قصير سمح زيري لابنه بلكين ببناء ثلاث مدن ، احداها على شاطىء البحر وتدعى جزايربني مزرانة (الجزائر) والثانية على الضفة الشرقية لنهر شلف وتدعى مليانه ، والثالثة تدعى لمديا باسم القبيلة الصنهاجية (وهي ميديا) . وقد نال بلكين من أبيه حق إدارة هذه المدن الثلاث التي تعد أكبر مدن وسط المغرب » . ولا شك انها ملحقات لمدينة آشير ، على العكس مما حدث بعد ذلك في عهد الأتراك حين اصبحت ولاية تتري ملحقة بولاية الجزائر . على ان هذا الخط لم يعرف مدينتين اثنتين أشير والجزائر فقط وإنما ثلاث مدن . والثالثة اقدمها وكانت تدعى « القيصرية » وفيها من ناحية الجزائر قبر ملكي عظيم هو « قبر المسيحية » ، وليس من قبيل الصدف ان تتوالى المدن على هذا النحو في منطقة واحدة .

ذلك أنها تقوم على خط مهم يقطع التلّ الى قسمين متنوعين بكل معنى الكلمة . فمن الغرب تلّ السهول شبه الساحلية التي تتوالى حتى وهران ، ثم السهول الوعرة . ومن الشرق سلسلة الجبال المتراصة الغنية في الاحراج ببلاد القبائل . ولا يسعني إلا ان أذكر بما قلته سابقاً . فالمكان مناسب جداً ليكون موقعاً لعاصمة الجزائر .

وليس بناء كآشير من الأمور الاعتباطية المصطنعة ، لأن الامير الذي بناها كان يعرف ما يريد وقد اختار المكان المناسب . ولو ان التاريخ اتجه في مسار

آخر لكانت آشير اليوم عاصمة المغرب . ولأخذت مكان الجزائر .

قلعة بني حماد

تعتبر قلعة بني حماد عاصمة ثانية لبني زيري . فحماد هو ابن بلكين وحفيد زيري، لكنه كان الولد الثاني وليس البكر . ومنه تفرّعت أهم بطون بني حماد. قال ابن خلدون :

« سنة ٣٩٨ للهجرة (١٠٠٧ مسيحية) بنى حماد مدينة القلعة » ويروي لنا طريقة بنائها على نفس الصورة الآنفة الذكر . « نقل الى القلعة سكان مسيلة وحمزة بعد ان دمر المدينتين . وفي حوالي نهاية القرن الرابع للهجرة (أي بعد سنتين أو ثلاث سنوات) فرغ من بناء المدينة وجلب السكان إليها كما أحاطها بالأسوار بعد ان بنى فيها عدة مساجد ومحطات للقوافل فضلاً عن مباني عامة أخرى » .

المشهد يتكرر دائماً ، الأمير يبني مدينته كما يبني الغني دارته .

وقد رافقت القلعة مصير بني حماد من أوله لآخره ، واحتلت مكانة مرموقة لم تكن آشير نفسها لتحتلها . وقد لفتت آثارها انتباه المؤرخين ووضع الجنرال بيليه عنها صورة بيانية .

ولم تكن ثمة صعوبة في تحديد مكانها الذي تشير اليه مئذنة المسجد ومنار القصر . كما عثر بيليه على ذكريات المدينة عند السكان الاصليين .

قامت مدينة القلعة على انقاض قلعة قديمة بنيت فوق الصخور ولها تاريخ حافل مذ هاجمها ابو يزيد صاحب الحمار وردته بعد حصار مرير . انه موقع حصين كان يدعى منحدر كيانا في ذلك الوقت ويسمى اليوم جبل مديد. ويمكن العثور على المكان بالضبط في خريطة غيزل . والمديد امتداد للأخضر الذي بنيت عليه آشير . وكلاهما يشكلان آخر المنحدرات الصخرية لمنطقة التل بمحاذاة

الهضاب العليا او « شرفات الجنوب » كما كان فرومنتان يسمي بوغاري .

والقلعة على غرار آشير تقع عند الطرف الجنوبي لطريق طبيعية تقطع التل من البحر حتى المرتفعات. وعلى هذه الطريق وبمحاذاتها يقع وادي قصب وسهل مجنة وممر بيبان ووادي الصمام ، وتقع بجاية عند طرفها الآخر . وهنا اكتفي بذكر ما تكلمت عنه باسهاب في ما سبق .

وقد عثر بيليه من السكان الاصليين على بعض المعلومات التي تفيد عن صلة القلعة في أواخر أيامها ببني مقرانة وكانوا اصحاب مجنة يحمون ممر بيبان من قلعة بني عبّاس . وهؤلاء سلاطين صغار من القبائل يذكرها مؤرخو القرون الوسطى باسم سلاطين العبّاس . وقد ظلوا حتى ثورة ١٨٧١ بمثابة آخر بقايا الأسر الارستقراطية وسط بلاد القبائل الديمقراطية . وهم على صلة بطريق القلعة – بجاية .

وأهمية هذه الطريق مذكورة في تاريخ أسرة بني حماد . ففي سنة ١٠٦٧ أي بعد ثلاثة ارباع القرن على قيام القلعة ، نقل السلطان الحمادي الحاكم (الناصر) عاصمته من القلعة إلى بجاية . إذ اصبح موقع القلعة متقدماً جداً ، فانكفأ الحماديون باتجاه معقلهم ببلاد القبائل . وهكذا ظهرت بعد آشير والقلعة آخر عاصمة لدولة الصنهاجيين ، ألا وهي بجاية .

بجاية

إنها مدينة عريقة في قدمها ولعلها تعود لعصر البونيين ، وكانت مستعمرة رومانية باسم سلدا . ولم تزل هذه المدينة من الوجود ابداً ، لكن عظمتها كانت في فور وغور . وقد تحوّلت عدة مرات لقرية صغيرة لاحول لها ولاطول. وكانت على هذه الحال حين وقع اختيار الناصر ، سلطان بني حماد، عليها .

ويتحدث ابن خلدون عن تأسيس بجاية كما لو أن ليس لها أي تاريخ فيقول: « سنة ٤٦٠ (١٠٦٧ ميلادية) استولى الناصر على جبل بجاية وهو موقع تسكنه

قبيلة بربرية بنفس الاسم . . وكانت من الصنهاجيين . وحين أخذ الناصر المكان أقام فيه مدينة تدعى الناصرية . لكن الجميع يطلقون عليها اسم بجاية على اسم القبيلة . » مرة أُخرى تتكرر عملية بناء المدن ، فلم يأت ابن خلدون على ذكر سلدا لأن مدينة الحماديين قد اكتسبت مجداً عظيماً من شأنه أن يمحو تواضع القديم .

ولا يفيدنا الأثريون عنها الكثير ويخصص لها بيليه بعض الصفحات في نهاية كتابه عن القلعة ، ويفهم منها أن بجاية على عكس القلعة قد حافظت على وجودها. فالحياة هي التي تسبب الهدم . فهذا القصر الحمادي أو ذاك إذا بقي منه شيء فلا بدّ وأن يكون مطموراً . لكن بيليه استطاع أن يعيد أسوار مدينة الحماديين الى الأذهان . والمدينة التي تقع داخلها يزيد حجمها على ثلاثة أضعاف بجاية الجديده أو سلدا الرومانيـة . ويقول ليون الافريقي الذي عرف بجاية زمن تقهقرها أنها كانت تحتوي على ٢٤ ألف موقد أي ١٠٠ ألف نسمة .

وصحيح أن بيليه يرى في هذا الرقم مبالغة . لكن أقوال المؤرخين لا تنضب عن عظمة القصور الحمادية في بجاية وعن « قصر الجوهر » بنوع خاص . ولدينا وصف مسهب لهذا القصر وكذلك رسم ملوّن له . ومن المرجح أن هاتين الوثيقتين محرفتان . وفي عهد الادريسي العالم الجغرافي كانت بجاية مركزاً صناعياً وتجارياً وثقافياً هاماً ، وكانت أعظم مدينة في البلاد التي نسميها اليوم الجزائر . ولا شك أن بجاية كانت في أوج عظمتها في عهد الحماديين . وجدير بالذكر هنا أن بجاية الاسبانية قد حاصرتها القبائل طيلة ٣٦ سنة . ولم يكن حظ بجاية التركية أفضل . ويروي بيليه « أن فارس آرفيو الذي زار بجاية سنة ١٦٧٤ يقول إن المدينة لم تعد في ذلك الوقت سوى قرية بائسة يقطنها نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخص بالإضافة إلى ١٥٠ جندياً أرسلتهم الجزائر . ولم يكن هؤلاء الجنود ليتجرأوا على مغادرة المدينة مخافة أن يقضي عليهم البربر » .

وفي سنة ١٨٣٠ كان فيها ٢٠٠٠ نسمة و٦٠ جنـدياً تركياً « وكان السكان

يتعرضون للسلب والنهب بشكل مريع على يد القبائل . » فالأمر مختلف جداً عن بجاية الحماديين التي لم تتعرض لأية متاعب من جانب القبائل المحيطة بها . فما كانت هذه لتعتبرها مدينة أجنبية وانما عاصمة لها .

وعن القلعة وبجاية بعض المعلومات البسيطة التي تمتّ بصلة للقبائل . يقول ماس لا تري : « حتى سنة ١١١٤ كان للمسيحيين الافارقة والبربر كنيسة في القلعة هي كنيسة السيدة العذراء . وكان كاهنهم يعيش في بيت مجاور للكنيسة . وهو آخر كاهن من أهل البلاد وصل الينا ذكره » .

وفي موضع آخر يعطي ماس لاتري بعض التفصيلات الاخرى فيقول : « استقبل الامراء الحماديون في فترة مقاربة للفترة التى بنيت فيها القلعة استقبلوا جالية كبيرة من المسيحيين البربر من بين القبائل التي أمّت عاصمتهم ، وظلّ هؤلاء المسيحيون مقيمين فيها لوقت طويل ، اذ ان جوّ التفاهم الذي ساد العلاقات بين كرسي البابوية والامراء الحمّاديين قد ضمن سلامة هؤلاء الرعايا »

وكان لهذه الصلات الطيبة مع الغرب أثرها على الصعيد التجاري . وقد أصبح لبجاية مكان خاص في قاموس براشيه الفرنسي ، يقول القاموس :

«Bougie كلمة ذات أصل تاريخي ، يشير الى مدينة بجاية حيث كانت تصنع هذه السلعة . » وكان أجدادنا يستهلكون ما يسمى بزيت الكوك المستورد من بجاية . انه زيت الزيتون المصنوع ببلاد القبائل التي ظلت كوكجو عاصمة لها لوقت طويل . وقد سبق لنا القول إن المغرب في العهد الروماني كان يصدر زيت الزيتون إلى العالم اللاتيني . وظل أثر هذا العرف التجاري ماثلاً لدى قبائل بجاية حتى وقت قريب . فلم تكن صلات المودة والتجارة مستغربة بين جبال القبائل وملوكها من جهة وبين العالم اللاتيني من جهة أُخرى . وليس مستغرباً أيضاً استمرار المسيحية فيها وبقاء العادات التي عرفت في العصور القديمة .

التأثيرات الشرقية

لا بد لنا – رغم الطابع القبلي الذي يميز الصنهاجيين – أن نتنبّه للتأثيرات الشرقية العميقة في نفوسهم .

فقد دلّت عمليات التنقيب التي أجراها بيليه على ان هندسة البناء كانت شرقية . « فواجهة المنار ودار البحر وهما من قصور مدينة القلعة ذات طابع مميز في بلاد ما بين النهرين . ومن الواضح ايضاً أثر الزخرفة الآسيوية والفارسية في الأواني التي استعملوها » .

وواضح كذلك أن كلاً من آشير والقلعة وبجّاية كانت تتكلم العربية كما كانت متأثرة بالحضارة الاسلامية ، ويتحدث بيليه عن مجمع أُدباء بجاية القادمين من الشرق واسبانية وكانت لهم مدرسة في عاصمة بني حماد . « وفي بجاية أيضاً عدد لا يستهان به من الاولياء ، ولهذا سمّيت في السابق بمكة الصغيرة » .

وكل ذلك من الأمور الطبيعية . إذ كيف لا تتأثر مدينة تقع في الشمال الافريقي بالحضارة العربية واللغة العربية في القرن الحادي عشر ؟

ولنوضح كذلك امراً آخر ، فقد أشرنا إلى ان آشير والقلعة وبجاية كانت عواصم الصنهاجيين. والواقع أن عاصمتهم الرسمية هي القيروان .

فالقيروان كانت عاصمة بني كتامة الفاطميين حتى الوقت الذي انتقل فيه هؤلاء الى القاهرة . وتربع أمراء الصنهاجة بعدهم على عرش القيروان . ولم يقم بنو زيري في أي مكان آخر . وقد امضى بلكين وخلفاؤه فترات حكمهم في القيروان. وإليك ما أورده ابن خلدون حول تنصيب بلكين: « في تلك المناسبة غير الخليفة اسم بلكين وجعله يوسف وأعطاه لقب أبي الفتوح وسيف الدولة وقدم له ثوب الولاة » . كانت النية واضحة في محو أصله القبلي ، لكن ذلك لم يتحقق لأن المنصور ابن بلكين ظلّ في آشير حتى يوم وفاة أبيه .

وتوالى على حكم القيروان كل من المنصور (٩٨٤ – ٩٩٥) وابنه باديس (٩٩٥ – ١٠١٦) وكذلك المعز ابن باديس وخليفته (١٠١٦ – ١٠٦٢) . وفي أيام حكم هذا الأخير أي سنة ١٠٥٧ هاجم العرب المدينة ودمروها . وارتكب المنصور وقتئذ غلطة فادحة حين ولّى عمه حماد على آشير ورأينا ما حلّ بها بعد ذلك .

والواقع ان مملكة الصنهاجيين كانت ذات وجهين . فقدكانت هناك دولتان ألقى السلطان بينهما بثقله الشخصي . وافريقية إحدى هاتين المملكتين وقد انتقلت عاصمتها من قرطاجة الى القيروان قبل تونس . وهي نموذج للمدينة الحضرية التي يحتقرها ابن خلدون لأنها،شأن بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر ، مطبوعة على الطاعة وحب الاستقرار والترف بحيث يسهل الاستيلاء عليها . وهكذا أقام بنو زيري في القيروان .

ولهذا السبب انتصر الحماديون سكان بلاد القبائل عليها ، وانتهى أمرها نهائياً سنة ١٠٥٧ وقامت مكانها آشير والقلعة وبجاية .

على ان سلاطين القيروان من بني صنهاجة كانت لهم مطامع في جميع أقطار المغرب . فقد شاؤوا الاستيلاء عليها برمتها وقد بلغت جيوشهم مراكش . لكن وسائل النصر لم تكن بحوزتهم إذ كان يلزمهم أكثر من الجندي القبلي . وقد رأينا أن المنصور الزيري لجأ لجنود من الزنج . وبعد أن قمع ثورة أبي الفهم ، أمر المنصور بقتل زعيم الثورة « وشقت بطنه واستخرج منها كبده وافترس الجنود السود جثته حتى العظم » . وقد استعان العديد من السلاطين بهؤلاء السود أكلة اللحوم البشرية .

وليس من الصعب العثور على مواضع الشبه بين صنهاجة وسائر ملوك المغرب ، لهذا لم يعنَ المؤرخون العرب كبير عناء بأصلهم القبلي . يضاف إلى ذلك أن وضاعة أصل القبائل حوّلت الانتباه عن وجود أمراء لديهم . والواقع

انه لو أعملنا الذاكرة لوجدنا لهم امراء . ويروي مرسييه عن بداية فتح الاتراك للجزائر زمن بربروسه ، وعن الصراع الذي وقع آنئذ ضد الأميرين القبليين ، ملك الكوكو (بلاد الزيت) وملك بني عبّاس .

كما يميل جمهور القبائل للانضواء تحت إمرة قائد واحد وذلك لضرورات الأمن . ولعلّ هذا ما بقي من عهد صنهاجة ، واخيراً لنلق نظرة على الخريطة ولنحدد موقع اكدجان والقلعة وآشير وبجاية عليها . لنرى أن هذه الأسماء تحدد تاريخ الكتاميين والصنهاجيين. فالمدن الثلاث الأولى تعتبر بمثابة حدود لها أما الأخيرة فهي منها في مكان القلب . ولو أخذنا الخريطة بعين الاعتبار – وهذا ما لم يلتفت اليه المؤرخون العرب قط – لصعب علينا الظن بأن الكتاميين والصنهاجيين ليسوا من القبائل .

وإذا سلمنا بما شاهدناه على الخريطة هان الأمر واتضح واصبح بمقدورنا أن نلمّ بالخطوط العامة لما صنعوه وما حاولوا أن يصنعوه.

٧ ـ ردود فعل الخوارج وصاحب الحمار

السنوات الأولى لحكم الفاطميين

لم يكن انتصار القبائل والبرانس ليقع دون ان يحدث ردود فعل عنيفة لدى البتر الزناتيين الخوارج . وقد سبق لنا ذكر حصار المهدية على يد صاحب الحمار . وخليق بنا أن نعود لهذه الحادثة نتقصى الحقائق من ورائها .

في تلك الفترة ظهر على مسرح المغرب بعد النوميديين وزناتة عنصر ثالث هو فلاح الجبل الحضري الذي يطلق عليه اسم رجل القبائل ويعتبره المؤرخون العرب من البرانس كما كان الرومان يسمون ابناء قومه « بالمور ». لقد كان هذا الفلاح موجوداً منذ القدم غير أن دوره كان ثانوياً للغاية . ثم هبّ فجأة ليقوم بدور طليعي مع الكتاميين والصنهاجيين .

وحركات المغرب كما نعلم لها بطانة دينية معظم الأحيان . وقد نشأت الحركة الجديدة بانضمامها للفاطميين المنشقين مذهبياً. انهم رجال القبائل الذين لم يتفقوا يوماً مع البدو الرحل . لكن خلاف الطرفين لم يتفجر طيلة السنوات الأولى لخلافة الفاطميين .

ومن البديهي أن الخليفة الفاطمي لم يكن ليعي عظم الثورة المغربية التي اندلعت باسمه . ولم يكن ليدرك وهو العربي انه سلم المغرب لرجال القبائل .

ذاك أن الأبعاد الحقيقية للأحداث لا تظهر في نفس الفترة التي تقع فيهـــا . ولم يستطع هذا الخليفه الشرقي أن يتفهم واقع المغرب بعمق . والدليل على ذلك واضـح .

فالمهدي بعد مغادرته سجن سجلماسة وتتويجة من ثم ، ورث تركة الأغالبة كلها بما فيهـــا من تنظيم وادارة ومالية وأسطول بحري . لكنه لم يكن يحس باحساس سلطان افريقي .

كان الخليفة والسيد المطاع،وقد امتدت مطامحه لتبلغ العالم الاسلامي بأسره، وجميع المغرب بالطبع . وقد حدا به شعوره هذا على الفور للتخلص من الممالك المستقلة التي أنشأها ظهور الخوارج في المغرب . ومنذ السنوات الأولى لحكمه قضى على حـــكم الإباضية في تاهرت ، كما قضى على مملكة سجلماسة الصفرية الصغيرة وكذلك على مملكة الأدارسة في فاس . وصدّع بذلك التوازن الذي عرفه المغرب منذ قرن .

وكانت حروب مراكشية قاسية . ولدينا تفاصيل وافية عن سلسلة الحملات التي شنها الفاطميون على فاس بين ٩١٠ و ٩٣٤ . ولسنا الآن بصدد سردها وانما يحسن بنا أن نتطلع لنتائجها .

لقد اختفى الأدارسة وحلّ محلّهم أمويّو بلاد الأندلس . كما زالت سلطنة فاس ، لكن السلطة الفاطمية لم تحلّ محلّها . ورضيت قبائل زناتة التي التفت حول فاس في عهد الأدارسة (أي زناتة تلمسان) رضيت هـذه القبائل بحكم قرطبة البعيدة . وهكذا لعب الحكم الفاطمي دور زعزعـة التوازن فقط . وعلينا أن نتحدث من ناحية أخرى عن شخصية القادة الفاطميين ومواليهم في الفترة الأولى . فجيشهم كان كتامياً ، لكن قواده لم يكونوا كذلك . ولم يظهر رجال القبائل بين قادة الأركان ، وقد لعب أحد زعماء مكناسة سكان ملوية دوراً مهماً واسمه مسالـّة ابن حبّوس . وهو الذي أخضـع تاهرت وسجلماسة

لسلطة الحاكم الفاطمي . كما قاد أول حملة على فاس .

ثم إن المهدي قضى في السابق ردهة طويلة من الوقت في سجلماسة لاجئاً وسجيناً . وسجلماسة تابعة الى بني مكناسة نوعاً ما . وعلينا أن ننظر للصلات الشخصية بين المهدي ومسيلة وهي صلات ترجع لزمن الاعتقال.

ومات مسالة بعد وقت قصير على يد بني مغراوة . والمعروف ان مكناسة ومغراوة قبيلتان زناتيتان ، لكن بني مغراوة لم ينظروا بعين الرضى لمكانة امير مكناسة لدى الحاكم الفاطمي .

ويذكر ابن خلدون : « أن ابن شقيق مسلـّة وخليفتـــه تخلى عن تأييد الفاطميين ونادى بالأمويين أصحاب الأندلس أسياداً على افريقية . »

وهناك شخصية ثالثة مهمة في ادارة الفاطميين هو علي بن حمدون الأندلسي . وقد تعرف على المهدي في الشرق ورافقه في أيام حظه العاثر . ولما انتصر المهدي جعل له مكانة رفيعة في البلاط . وأصبح حاكماً لمسيلة والزاب . وظلّ طيلة حياته موالياً للمهدي ، لكن ابنه وخليفتـه شعر بالحسد تجاه زيري الصنهاجي فجمع رجالاً من زناتة حوله ، وحرّضهم على رفض سلطة الفاطميين والاعتراف بسلطة الخليفة الأموي في الأندلس .

ولعلّ من الأصح القول إن رجال زناتة هم الذين حرضوا قائدهم على هذا الأمر .

ووقعت الحملة الثانية على فاس وقادها ابن المهدي وخليفته المرتقب وكانت بمساندة بني مكناسة . وبعد تخلـّي مكناسة وقعت حملة رابعة بقيادة أمير مغراوي ينتمي لعائلة خازر الشهيرة .

ولم يجد الحاكم الفاطمي نفسه مقيداً برجال القبائل بالطبع . فإذا لم يختر قادة جيشه من عائلته او مواليه اختارهم من قبيلة زناتة .لأنه سعى لحلّ مشكلة

بلاد زناتة عن طريق زناتة نفسها . وتصوّر أنه اعاد سلطة الخليفة المباشرة على المغرب ، لكن هذا كان خلاف الحقيقة تاماً .

ذلك أن الانتفاضة ضد الفاطميين ظلت ناراً تحت الرماد من ٩٠٩ حتى ٩٣٠ ، سواء عند بني مكناسة او في الزاب ، او لدى البدو الخوارج . ومما لا شك فيه ان تسلّم الفاطميين السلطة قد غيّر الظروف السياسية حتى قلب مراكش . وبعد قرن من السلام النسبي ، تصدّع التوازن واهتزت أركان المغرب ! واستيقظت فجأة لدى البدو ، شهوة القتال والسلب والطمع التي نامت قرناً كاملاً . فلم لا تستيقظ هذه الشهوة والفرصة مؤاتية لها ؟

وظل ولاء الإباضية على حاله . بينما استعاد متطرفو الخوارج قوتهم على يد صاحب الحمار .

وظهرت اوائل الانتفاضات سنة ٩٢٩ . وبلغت أشدها بعد موت المهدي عام ٩٣٤ . وخضت حكم ولده القائم الذي مات في خضم الازمة سنة ٩٤٦ . ولم تنته الثورة نهائياً إلاّ بموت صاحب الحمار سنة ٩٤٧ . لقد كانت فترة رهيبة من الصراع بين أسر القبائل والزناتيين .

أبو يزيد صاحب الحمار .

كان أبو يزيد ينتمي لزناتة بالطبع . ويلقبه ابن خلدون باليفرني ، لكن مركز نشاطه لم يكن قط ناحية تلمسان . « فقد ولد في السودان وكان أبوه يقصدها لتعاطي التجارة » وقد ولد أبوه في كستيليا (الجريد التونسي) ... « وأمضى أبو يزيد طفولته في تزور بالجريد نفسه . » لقد كان صحراوياً من جنوبي تونس .

وذات يوم قصد الى تاهرت « حيث أسس كتّاباً لتعليم الاولاد ». فهو إذن من رعايا الرستميين لكنه ينتمي للفئة المنشقة . ويقول ابن خلدون « انه ينتمي

للنكارية المذهب الخارجي الذي يومى إليه كذلك باسم الصفرية » . ويسهب أبو زكريا في الحديث عن النكّار ويميل لجعلهم مختلفين مذهبياً عن سائر الصفرية : فهم ينتمون لأقصى التطرف .

يقول ابن خلدون : « كان يركب حماراً أغبر » ويشدد ابو زكريا على مواصفات الحمار : « انه حمار قاهري ، سريع الجري بحيث لا تستطيع الخيل اللحاق به إلا جرياً اذا كان متمهلاً ، وكان يسبق جميع الخيول ان كان راكضاً » .

وكان ابن خلدون يرى في ركبه الحمار نوعاً من الميل لبساطة الحياة وقساوتها . ويضيف ان لباسه عبارة « عن قميص من الصوف أميل الى القصر له كمّان ضيقان » انها جلاّبة العمال المغاربة والزابيين ، أي لباس الشعب .

ذلك هو الخارجي. ولكن إليك أبا يزيد الصفري: « قال له أحد اعوانه : لا تظنن أن الإباضيين سيتبعونك ، فهم في مساجدهم . أما نحن فقد خرجنا معك لنلتهم تلك الجثث معاً ... وكان يعني بالجثث نتاج أعمال السلب » . ويوم استيلائه على القيروان وعد ابو يزيد قاضي المدينة بالعفو عنه . فقال له أحد أعوانه :

— ألا تدري ما يقوله كتاب كليلة ودمنة ؟

وأجاب ابو يزيد :

— وما يقول هذا الكتاب ؟

— يقول : لا شيء أحب الى القلب من قتل عدو حقير .

وحكم على القاضي بالإعدام ونفذ فيه حكم الموت رغم الوعد الذي قطعه له واستولى ابو يزيد على ممتلكاته .

ويضيف أبو زكريا قوله : « ويقال ان عدد القرى التي خرّبها يزيد على ثلاثين ألفاً ... ، وقد تجاوزت قسوته واعمال العنف التي ارتكبها كل ما روي عن فظائع الفراعنة وسائر الحكام المستبدين . وكان يشهد بنفسه أعمال الفوضى والانتقام التي يرتكبها جنوده ، ولم يفكر قط بإيقافهم أو منعهم ... وذات يوم مرّ بجوار قابس ووافق اهلها على فدية معينة لمدينتهم لقاء الامتناع عن غزوها ، ولكنه ما ان قبض الفدية حتى أمر جنده باقتحام المدينة وإعمال السلب والنهب فيها ثم عاد بعد فقدر ثمن الفدية من جديد ورفعها وكان على السكان ان يدفعوا له الفرق كذلك » .

ومرّة أخرى في الساحل ، ألقى جنوده القبض على فتاتين رائعتي الجمال ، وجاءته أمهما شاكية وهي تقول :

— أيها الشيخ ! لقد أخذ جنودك ابنتي لاسترقاقهما . وقد اعتدوا عليهما وهما حرتان . واكتفى ابو يزيد بالقول :

— وهل من انسان حرّ في افريقية ؟ وخافت المرأة على حياتها وهربت منه ولم يكن « عدو الله » ليمضي ليلة واحدة دون أن تحيط به أربع من العذارى .

ويستفيض أبو زكريا في الحديث عن فظائع ابي يزيد « عدو الله » . ولا شك أن الكراهية شديدة بين الإباضي (أبو زكريا) وبين الصفري (أبو يزيد) أما ابن خلدون فأكثر انصافاً ولا شك : وهو يعطي عن أبي يزيد الفكرة نفسها وقد أورد : « أعمل أبو يزيد النار في بجة بعد أن أمر بسلبها : كما أمر بقتل رجالها وأطفالها واسترقاق نسائها » .

« وهاجم رقادة وسلبها ثم أحرقها ... وكذلك سلب القيروان » .

« حاصرت فرقة من جيش ابي يزيد مدينة سوسة واعملت الفرق الباقية الخراب في سائر انحاء افريقية ... وقد وصلت فئة من المنكوبين إلى القيروان

حفاة عراة بينما مات الباقي من الجوع والعطش » .

وكان أبو يزيد ذا سلوك شائن اشمأز منه حتى المقربون اليه .

وقد انضمت اليه في البداية قبيلتا لواتة وهوّارة ، وخاصة هوّارة بني خملر ، ويحدد ابن خلدون مكانهم شمالي الأوراس . ولعلّ ثورة أبي يزيد كانت بمجال بلاء هوّارة بنوع خاص . ففي جنوبي الأوراس ، وخاصة في شماله وشرقه احرز نجاحاتها الأولى ، واستطاع ان يكوّن نواة جيشه في توزر وبغاي وتيبسة ومرمجنة .

لكن نجاحه هذا خلق له اعواناً في جميع المناطق الوعرة . وفي نهاية المأساة التي تسبّب بها يحدثنا ابن خلدون كيف ان الحاكم الفاطمي قد شهد استسلام مغراوة التي ناصرت ابا يزيد . وبنو مغراوة من شلف ومنطقة تلمسان .

ويقول ابن خلدون « إن جمهرة كبيرة من البربر جاءته من بلاد بني نفوسة والزاب وقلب المغرب » . وهم جميعاً من البدو الذين هبّوا رجلا واحداً ، لأن الصفرية الداعية الى السلب والنهب تتجاوب تجاوباً كليّاً مع هؤلاء البدو الذين يتخيلون ثروات المدن تحت قبضة سيوفهم .

لقد كانت هزة عنيفة في بلاد المغرب كاد حكم الفاطميين يسقط تحت وطأتها . وابرز حوادثها حصار المهدية الذي تحدثنا عنه بإيجاز .

ولم يكن انتصار الفاطميين بفضل إخلاص الكتاميين والصنهاجيين لهم فحسب ، وهو اخلاص فريد من نوعه نظراً للعداوة المستحكمة بين القبائل والبدو فالتحاسد بين الرّحل شارك في ذلك . وقد ذكر ابن خلدون ان القبائل الرحل الملتفة حول ابي يزيد رفضت الانصياع لأمره نظراً لما بينها من تحاسد . وقد فقدت من جنودها في حروبها الداخلية ما يفوق خسارتها في الحرب ضد الأعداء » .

يضاف الى ذلك حاسة الدفاع عن النفس الموجودة لدى حضريي افريقية حيث كان عليهم أن يختاروا بين الحياة أو الموت . « لقد بلغت الفظائع التي ارتكبها البربر في المدن، والحملات التي شنوها على افريقية درجة رهيبة ، حتى سكان القيروان حملوا السلاح ضدهم وعادوا من جديد الى سلطة الفاطميين » . والوضع مشابه لما كان عليه في معركة القرن او في عصر الكاهنة . ذلك ان سكان المدن ساندوا الحكام مساندة قوية للوقوف في وجه الفوضى .

وحين وقع صاحب الحمار (سنة ٩٤٧) في يد الحاكم الفاطمي بعد أن تخلّى عنه اتباعه من هوّارة « سلخ جلده عن عظمه وحشا جسمه بالقش وقدمه لعبة لقردين تدربا على هذا العمل » .

ويضيف أبو زكريا قائلا : « وأشار الأطباء الذين فحصوا جروح أبي يزيد على الحاكم الفاطمي ان يستعجل تدابيره إن هو شاء أن يكون موت الرجل على يديه. وأمر الحاكم الفاطمي بسلخه ، لكن عدوّ الله مات قبل ان يصلوا إلى سرته » .

وفي مشهد آخر يحدثنا كيف أن الحاكم أمر بقتل جميع السجناء .

ويقول النويري إن ابراهيم ابن الأغلب حين انتصر على بني نفوسة في طرابلس سنة ٨٩٤ ، « تربع على عرشه وأمر بإحضار أحد السجناء ومرّ على جسمه بالسيف ثم طعنه بالرمح في قلبه وبنفس الطريقة قضى على ٥٠٠ رجل » .

ويقول البيان ان ابراهيم ابن الاغلب أمر في نفس الوقت «بقتل خمسة عشر رجلاً وقطع رؤوسهم وشويها في النار ، وكأنه يريد أكلها مع جنوده ، فخاف رجال الجيش وظنوا أن الأمير قد اعتراه مسّ من الجنون » . كل هذه فظائع تنبىء بنهاية العهود . والواقع ان المغرب كان مسرحاً لفظائع كهذه لا سيما

بين الاعداء اللدودين : البدو والحضر .

وتعتبر ثورة صاحب الحمار آخر حقبة من حقبات التمرد عند الخوارج . وقد انتهت كما بدأت وسط نوع من الجنون . ودخل المغرب في مرحلة جديدة اصبح روادها رجال القبائل . ومع هؤلاء لعب المغرب ورقته الأخيرة في اهم مرحلة من مراحل اللعبة .



٨ ـ كبار أعداء الأسر القبلية :
بنو يفرن وبنو مغراوة موالي الأمويين حكام الأندلس

بنو مغراوة وبنو يفرن

بانتهاء صاحب الحمار دالت دولة الخوارج لكن بـــلاد زناتة حافظت على بقائها . والمنطقة الشرقية من هذه البلاد هي التي تأثرت اكبر تأثر من هوّارة إلى لواته إلى بـــدو الجنوب التونسي حول الأوراس وهدنة . أما زناتة الغرب فقد حافظوا على بقائهم رغم اشتراكهم في ثورة صاحب الحمار لأنهم عرفوا طريق الانسحاب في حينه .

وقد أصبحوا أكبر اعداء لأسر القبائل . وهم الذين أطلق عليهم ابن خلدون زناتة الطبقة الاولى واشهرهم مغراوة وبنو يفرن .

ومن الضروري أن نتعرف على هؤلاء الناس لأن ذلك سيفيدنا في معرفـــة المزيد عن الصنهاجيين .

يستفاد من ابن خلدون أن بني يفرن ومغراوة قبيلتان متقـاربتان كقرابة الكتاميين والصنهاجيين . فمغراوة وبنو يفرن ينتميان لجد واحد هو «ازليطن» واسمه مشابه لاسم نوميديي مسولا . على ان القرابة الجغرافية مؤكـــدة بين مغراوة وبين يفرن ، واسم ازليطن موجود في وادي « إزلي » الشهير الواقع إلى

جوار « وجـــدة » . ويمكن البحث عن أصل القبيلتين في تلك المنطقة لا سيما ناحية تلمسان .

وقد علمنا ان تلمسان ، بوماريا الرومان سابقـاً ، قد ظهرت من جديد في زمن أبي قرّة اليفرني إبان ثورة الخوارج . فبنو يفرن أتبـــاع ابو قرّة هم الذين أسسوا تلمسان على حدّ رأي ابن خلدون ، لكن مغراوة قد نازعتهم عليهـــا مرات عديدة .

ويحدد ابن خلدون مواقع القبيلة فيقـول إن عدة فروع من بني يفرن كانت تقيم في جزء متوسط من المغرب يمتد من تلمسان حتى جبل بني راشد (جبـل آمور) . وهناك فئات أخرى من نفس القبيلة تقيم في المنطقة الفاصلة بين تاهرت وتلمسان . أما مغراوة فيقيمون ايضاً في وسط المغرب في منطقة تمتد من شلف حتى تلمسان ومنها الى جبال مديونة .

ومنطقة شلف هي قلب بـلاد مغراوة ، لكن امتدادهم يصل الى الهضبات العليا والصحراء . ومن أفخاذهم الاغواط والريغا المقيمين في وادي غير .

على انه لا يمكننا تحديد مكان مغراوة وبني يفرن كما نحدد إقامة الكتاميين والصنهاجيين لأن القبائل البدوية رحّالة كما هو معروف .

وكانت فروع بني يفرن تعيش مبعثرة . وبنو مغراوة شأن بني يفرن كانوا يعيشون تحت الخيام .

ويمكن العثور عليهم حتى في افريقية . وكثر العثور عليهم في اواسط المغرب ببلاد زناتة وكأنهم طردوا تدريجياً على يد القبائل الطرابلسية الكبرى مثل هوّارة ولواتة التي تقطن الجنوب التونسي والمنطقة المحيطة بالأوراس .

وهناك جفاء بين البدو الشرقيين والزناتيين أنفسهم . وظهر هـذا الجفاء في عهد أبي قرة الذي تخلّى عن حلفائه يوم حصار تبنة . وبالنسبة لحـدود مملكة الإباضيين في تاهرت ومملكة الأدارسة في فاس ، تعتبر شلف ومنطقة تلمسان

تابعتين لفاس . كما يظهر هذا الجفاء أيضاً في ثورة أبي يزيد ذات الطابع الشرقي والتي أدّى تخلي بني يفرن عنها لانهيارها .

ويعود الانفصال بـين العناصر البدوية الشرقية والغربية إلى عهد الفتـح الإسلامي .

ويقول ابن خلدون إن بني مغراوة عرفوا منذ البداية بولائهم للأمويين. وهذا ما يفرقهم عن القبائل البربرية . وصحيح ان فجر الاسلام بعيد عن القرن الرابع عشر إلا أنه من المؤكد ان ولاء مغراوة كان متجهاً للأموي اسبانية في القرنين العاشر والحادي عشر . «جميع القبائل المغراوية كانت تعتبر نفسها من أصحاب الامويين وهم يدينون بالولاء لهـذه الفئة القرشية بالذات . ولذلك نقلوا ولاءهم لاموي اسبانية ». ذاك يتفق على كل حـال وشعور الكراهية الذي يكنّه الزناتيون للقبائل .

زناتة وأمويّو الأندلس

بتنا نعرف ان البربر لحقوا بالعرب الى اسبانية . وعلينا ان نعرف ان لمغراوة مكانة مرموقة بين هؤلاء البربر . فبنو مغراوة أقرب القبائل البدوية لإسبانية ومن الطبيعي ان تجتذبهم بلاد الاندلس .

على ان زناتة وبني يفرن ومغراوة اصبحوا في تلك الحقبة اصحاب الامويين حكام الاندلس في ذلك الحين .

فظهور الفاطميين قد هدم ممالك الخوارج ، مـن امثال تاهرت ومملكة الادارسة بفاس . ولم يعد يعثر على شيء تقوم له قائمة في الغرب . وبات الحاكم الاموي في الاندلس يميل لاحتلال مكان الادارسة . وبدأت الصلاة تقام باسمه في جميع المساجد ابتداء من تاهرت حتى طنجة .

وعثر في القبائل التي أيدت الادارسة على مؤيدين له وهي القبـائل

البدوية التي ألفت التطلع نحو الاندلس . واستطاع صاحب اسبانية ان يستقطب الى جانبه زناتة المغرب ، ويقيم الصداقة مع أمرائهم ، موزعاً عليهم المناصب .

« وقد طلب حاكم فاس اليفرني الإذن ببدء الجهاد المقدس في اسبانية . ولما استجيب الى طلبه ترك ابن عمه في فاس كتائب له .

وفي قرطبة اجتمعت فئات كبيرة من البربر تحت راية الملك » .

ويدل هذا الكلام أن هؤلاء من بني يفرن ومغراوة. وكثيراً ما كان صاحب الاندلس يرسل الى أمراء زناتة المكافآت ويخصهم باستقبال عظيم كلما أمّوا بلاطه . « وكان الامراء الزناتيون يتهافتون على خدمة السلطان والولاء له » .

لكن هذا الرأي مبالغ فيه لأن هؤلاء من ذوي النزعات الفردية ولا يسهل التحالف معهم على الابد . وحتى الخليفة الاموي كان يحذرهم . وقد جمع حاكم فاس ذات مرّة عدداً من الامراء الزناتيين، مما أدّب القلق في نفس صاحب الاندلس . وحين جاء رسول الى يدّو اليفرني يحمل له دعوة لزيارة البلاط اجاب قائلاً : « امض واسأل الاموي اذا كان الحمار الوحشي يرغب في الانقياد الى مروض الخيول » . وهناك من هم أكثر منه نعومة أو يتظاهرون بذلك . فالامير المغراوي زيري بن عطية تلقى أمراً للذهاب الى قرطبة واستقبل فيها بآيات التبجيل والاحترام .وقد استعمله صاحب الاندلس للقضاء على يدّو. وتمّ له ما اراد . لكن زيري بن عطية كان يخدم السلطان ضمن حدود .

ويروي روض القرطاس على النحو التالي زيارة زيري هذا لقرطبة : استقبل الرجل بحفاوة بالغة في البلاط ومنحه السلطان لقب وزير . ثم ركب البحر الى طنجة وما إن حطّ رجله فيها حتى هتف قائلاً « الآن ، ضمنت بقاءك يا رأسي » . ثم احتقر الهدايا التي خلعها عليه السلطان ورفض لقب وزير وخاطب اول من ناداه بهذا اللقب قائلاً : أصلحك الله، أ انا امير ابن اميرولست وزيراً .

إن أبهة الحاكم الأموي مدعاة للإعجاب حقاً : لكن من الافضل ان تسمع الحديث عن الاسد ولا تراه . ولو كان في الاندلس رجل واحد له قلب لما كانت الامور كما هي عليه » . وبلغ خطابه مسامع الامير – كما روى ابن خلدون – فوهبه المزيد من العطايا . وفي النهاية انضم زيري بن عطية علناً إلى حركة العصيان .

غير ان الصلة ظلت وطيدة بين هؤلاء الاقطاعيين وصاحب قرطبة نظراً لحاجتهم اليه . فإذا وقع حادث ما ، كانت الاندلس ملجأ صالحاً .

وهناك امير زناتي غضبت عليه قبيلته « ففرّ إلى الاندلس مع فئة من انصاره » . وهناك زناتي آخر وهو ابو يداس – قتل عمه ورفضت قبيلته الاعتراف بزعامته – فقصد مع إخوته الى اسبانية سنة ٩٩٢. واستقبله صاحبها بالترحاب وأغدق عليه وعلى أصحابه النعم . وسرعان ما احتل الرجل مكاناً بارزاً في بلاد الاندلس . وفي فترة أخرى فرّ عدد كبير من بني يفرن الى اسبانية وقد لعب الامراء الهاربون دوراً مهماً في تاريخ الاندلس . وقد أسس أحد ابناء بني يفرن مقاطعة مستقلة في روندا . كما أسس زناتيون آخرون هم بنو برغل مملكة لهم في كرمونة . وأصبح بنو دمّر أسياداً على مورون وأركاس. ويذكر ابن خلدون عن هؤلاء : « انتصرت هذه الفرق الافريقية على الفرق الاسبانية ذات الاصل العربي إثر حرب أهلية ادت لانهيار الخلافة . وحين جزّأوا الدولة اغتصبوا الوظائف المهمة وحكم المقاطعات » .

ومهما يكن من امر فإن الشراكة كانت موجودة بين امويي الاندلس وزناتة . وقد استعاد مضيق جبل طارق اهميته في ذلك الوقت . واصبحت بلاد زناتة تابعة للأندلس ، وسرعان ما صار المكس هو الصحيح . فالدولة الحضرية المنظمة لايكتب لها الدوام ان هي استعانت بالبدو الرحل الذين يدفعونها الى الانحلال .

أمراء بني يفرن

ثمة بين هؤلاء الأمراء الزناتيين ، موالي الأمويين الخطرين ، أشخاص مهمون كان لهم حول وطول في افريقية .

وعلى رأس بني يفرن كان يالا زعيماً كبيراً ، أسس مدينة أفغان وجعلها عاصمة له ، وكانت تقع بين تلمسان ووهران وشلف وتاهرت ، لكن مكانها لم يحدد اليوم بالضبط .

واغتيل يالا على يد الفاطميين ودمرت عاصمته افغان . وكان من الأهمية في قرطبة الى درجة انه استطاع في حياته جعل أحد اقاربه والياً على فاس

وكان ولده يدّو مغامراً كبيراً تمرد على جميع الناس واستولى على فاس ثم انتزعت منه . ومات وهو يحمل السلاح بيده ، لكن سلالة يالا لم تنته بانتهائه. فقد أقام امراء من بني يفرن ومن اسرته بالذات مملكة في شالا (سالين، شيلا ، الرباط حالياً عند مصب نهر ابي رقرق) . وامتد سلطانهم جنوبي النهر علي جزء من تدلا . وقد ظلوا حتى عهد المرابطين مصدر قلق دائم لأبناء عمهم ومنافسيهم بني مغراوة أصحاب فاس .

ثم إن أمراء آخرين من بني يفرن (إن لم يكونوا مغراوة بالذات ، لأن ابن خلدون لم يوضح ذلك) هم الذين أسسوا مملكة الى جهة الجنوب داخل مراكش الاطلسية في اغمات على سفح الاطلس الكبير قريباً من المكان الذي أسس فيه المرابطون مدينة مرّاكش . وقد تزوج أول المرابطين اميرة من أغمات وهو مدين لها بأهميته .

مما يدلّ على أن الفتح الاسلامي في مراكش الاطلسية ، ذلك الفتح الذي بدأه الأدارسة ما برح يمضي قدماً وتوطدت الجسور بين فاس والصحراء حيث مضى فتح المرابطين .

وسواء كان سلاطين أغمات من بني يفرن أو مغراوة فإن بني يفرن

قد تقهقروا نحو الغرب ، وذلك بتأثير صنهاجة من جهة وبضغط من ابناء عمهم ومنافسيهم بني مغراوة بنوع خاص . وهناك خصام عنيف دائم بين الأقارب ، تلك طبيعة من طبائع البدو .

أمراء مغراوة

استطاع بنو مغراوة في الواقع أن يحجبوا وجود بني يفرن . وقد التفوا وراء رجل يدعى خازر عاش في عهد ثورة الخوارج . ومن أهم ابطال هذه السلالة محمد بن خازر الذي عاش مئة عام وملأ الدنيا بأخباره طيلة حياته . ولم يكن اسم هذا القائد مرتبطاً بمكان معين ، ذلك أمر عجيب . فقد حكم تلمسان لفترة ما . ثم تخلّى عن المدينة لإدريس . ويضيف ابن خلدون قوله : « في أواسط المغرب ، ظلت السهول تحت سيطرة محمد بن خازر » . وكان يحكم « إمارة بدوية » . وكان يتمتع دون معاصريه بحسّ في السياسة ، ولهذا استمر حكمه وقتاً طويلاً . فقد عرف كيف يتخلّى عن ابي يزيد في الوقت المناسب وتجنب الهزيمة بعد أن خلق توازناً في علاقته بين الفاطميين والأمويين. وقد مات على مذهب الفاطميين. لكن أبناء خازر كانوا معظم الاحيان موالين للأمويين .

وألمع شخصيات هذه العائلة هو حفيد محمد ، زيري بن عطية . فهو الذي قضى على يدّو وانتزع منه مدينة فاس حيث حكمها ابناؤه طيلة عدّة أجيال . وخلاصة القول انه أسس أسرة خلفت الأدارسة بعد فترة انتقالية . لكن هذه الأسرة لم تكن مستقلة وظلت خاضعة لسيطرة الأمويين . ويذكر ابن خلدون كيف ان زيري بن عطية عبّر عن ولائه لقرطبة بعد ان حقق نجاحاته الأولى ، كما عدّ الهدايا وهي عبارة عن زرافات وتمور تدل على أن مصدرها الصحراء. بعد ذلك حاول زيري أن يقوّض سلطة الأندلس. فبذل الخليفة القرطبي مجهوداً عسكرياً جباراً ليضع زيري عند حدّه،وهو مجهودان دل شيء فعلى شدة اهتمام الامويين ببلاد زناتة ،وغلب زيري على امره وجرح في المعركة وطرد من فاس الى

الصحراء ليعود الى حياة المغامرة . واستطاع ان يتدبر أمره شأن جميع الامراء البدو ، واستطاع أن يؤسس في بلاد مغراوة القديمة ناحية تلمسان وشلف سلطة قوية جعلت امير قرطبة لا ينسى الماضي بسهولة . وبعد وفاة زيري بن عطية ١٠٠١ اعاد الحاكم الاموي تتويج ابنه على فاس بصفة حاكم لها . وقد اورد لنا ابن خلدون قرار تعيينه حرفياً وهو نص ملكي مميز .

ولكن بعد ذلك بخمسة عشر عاماً أي نحو ١٠١٥ أصيبت أسرة الأمويين في الاندلس بالانحلال . وأقامت أسرة زيري بن عطية نوعاً من الحكم المستقل في فاس حتى مجيء المرابطين . لقد كانوا ذوي شأن عظيم . إذ اصبحوا في ذلك أبرز فئة في بلاد زناتة واستطاع فرع من عائلة خازر أن يؤسس عائلة حاكمة صغيرة في سجلماسة . كما حكم أمراء مغراويون يعدّون من أتباع ابناء عمهم في فاس ، حكموا تلمسان .

وهناك فرع آخر من عائلة خازر انضمت الى صفوف العدو أي الى الصنهاجيين واستطاعت أن تحكم تبنة ثم عادت إلى العصيان . ولم تتمكن من إقامة أي حكم دائم بجوار بلاد القبائل . أما في الطرف الآخر من بلاد المغرب أي في طرابلس فقد قامت اسرة مغراوية من بني خزرون واستمر حكمها وقتاً طويلاً ، معتمداً اسلوب المناورة بين القيروان والقاهرة .

تلك هي حقيقة الأمر لدى الزناتين وطلائعهم المغراويين . لقد كان مسرحهم نفس المسرح الذي عمل عليه البدو والمغاربة بين طرابلس وتلمسان ، تلك الرقعة من الصحراء والأراضي الوعرة الممتدة في جميع الاتجاهات جنوبي بلاد القبائل .

كتلة القبائل وكتلة زناتة

أولئك هم الاخصام الذين قاد الكتاميون الفاطميون وبنو زيري الصنهاجيون كفاحاً مريراً ضدهم . كان ذلك نزاعاً بين القيروان وقرطبة ، يستند على فاس . لكن العناصر المحاربة هي التي تهم . فالمحاربون هم القبائل من جهة والزناتيون

الرحّل من جهة ثانية .

وحين قامت ثورة صاحب الحمار الزناتية ، تلك الثورة التي زعزعت كيان الفاطميين ، كان زيري الصنهاجي أهم اعضاء الاسرة المزعزعة . ونظراً لخبرة الخليفة السابقة في تلك الأمور ، اضطر للتراجع عن ميله القديم لزناتة . فقد مضى عهد مسالة بن حبوس . واثبتت كتلة زناتة وجودها وأصبحت قاعدة الفاطميين مرتكزة على بلاد القبائل . وفي تلك الفترة الحالكة من تاريخ المغرب كان القبس الوحيد ذاك الصراع المرير بين قبائل صنهاجة وبدو زناتة .

ويرسم ابن خلدون بما له من طول باع صورة عن الموقف فيقول : حين استطاع الفاطميون ان يبسطوا سيطرتهم على افريقية انضم زيري (الصنهاجي) اليهم ، وبدا كأشد انصارهم ولاء . وقد أفاد من التحالف معهم في مجال التفوق على منافسيه بني مغراوة ، وقد ابتعدت هذه القبيلة كما ابتعدت سائر الشعوب التي تنتمي لأصل زناتي نهائياً عن الفاطميين وانضموا للأمويين أصحاب الاندلس وأقروا لهم بالسيطرة في اواسط المغرب وفي المغرب الأقصى » . ذلك هو تحديد دقيق للموقف . ولكي تقرب العملية من مداركنا علينا أن نثير نقطة لم يتطرق اليها ابن خلدون ، انها قضية الأرض ، فلا يغربن عن البال أن وراء زيري الصنهاجي ، كتلة هي القبائل ، أما الزناتيون فهم كتلة البدو . وليس هؤلاء أفراداً وقبائل واسراً تتصادم وحسب . لأن هناك صراعاً بين مفهومين للمجتمع والحياة لا يتفقان ، يتمثلان بقصتين من الأرض تختلف طبيعتهما اختلافاً كلياً . وما كنا ابداً لنرى قبل أو بعد تمايزاً اكثر وضوحاً . ذاك ان بلاد القبائل لم تفكر مرة واحدة أن تعي ذاتها ككتلة قومية .

عندما ندرك هذه الوقائع العميقة ، ينتظم أمامنا تاريخ المغرب المظلم في القرن العاشر ويتخذ له معنى .

٩ ـ انتصار أسر القبائل والقضاء على بني يفرن ومغراوة

زيري وبلكين

يبقى أن نشير لنتيجة ذاك النزاع الطويل بين صنهاجة وزناتة والذي انتهى بانتصار الأولى .

لم تعد القضية تتعلق بكتامة ، فالحكم الفاطمي كان مسيطراً عليها. واستطاع بالنتيجة ان ينقلها لمصر . ونشأت بين كتامة وصنهاجة كراهية عنيفة . وكان الصنهاجيون وبنو زيري ممثلي بلاد القبائل الحقيقيين . وإثر وفاة صاحب الحمار أسس زيري آشير ونظم خط ميديا – مليانه – الجزائر . أي جبهة القبائل ضد مغراوة شلف .

وفي سنة ٩٥٨ أرسل الحاكم الفاطمي حملة كبرى جديدة على مراكش . بقيادة جوهر وهو صقلي أو يوناني عتق الخليفة رقبته واصبح رجلاً عسكرياً بارزاً ، وقد قاد الجيش الذي فتح مصر وانشأ القاهرة . وكان الحاكم الفاطمي يميل لاختيار اعوانه من بين محظيه وعتقائه المغمورين. لكن وراء جوهر كان زيري الصنهاجي . وهو الذي هاجم فاس . ويبدو ان الحرب لم تعلن بنفس الروح التي كانت سائدة قبل ثورة صاحب الحمار . واغتال رجال القبائل يالا اليفرني ودمروا عاصمته افغان وقضوا على قبيلته . وبدأت نكبة بني يفرن منذ ذلك الحين ، واختفوا

من اواسط المغرب ولم يعد يعثر عليهم إلا في مراكش . وكان جيش الفاطميين يشعر بالكراهية الشديدة تجاه زناتة ، انها كراهية القبائل . « وحين مات يالا اتهم الزناتيون زيري بالتآمر لقتله » .

واصبح النزاع عنيفاً بين زناتة والأسرة الحاكمة وهنـاك نقطة تسترعي الانتباه وسط هذا النزاع الذي تحرّكه المطامع الفردية . يقول ابن خلدون : « اصبحت الحرب بين زيري ومغراوة من الضراوة بحيث تحالف هؤلاء مع الحاكم الأموي ». فابن خلدون نفسه يرى ان الامويين استفادوا من كره مغـراوة لصنهاجة أي من كراهية البدو للحضر . وكذلك من عجز زناتة عن المقاومة بمواردهم الخاصة فقط . لأن تفوق صنهاجة عسكرياً واضح كلّ الوضوح. حصل زيري من الحاكم الفاطمي على « حكم المغرب وعلى حق ضمّ جميع الدول التي يخضعها ». وحقق على الفور انتصاراً كاسحاًعلى مغراوة في مكان يقع على الارجح بين آشير وتلمسان . وانتحر أمير عائلة خازر المغراوي بإلقاء نفسه على سيفه ومات معه خلق كثير من بينهم سبعة عشر اميراً كما يقول ابن خلدون. وكان سرور الأمير عظيماً حين تسلّم في القيروان رؤوس هؤلاء الناس ، بعد ان ارسلهم زيري اليه .

وتشكل هذه المعركة التي وقعت عام ٩٠٧ والتي لا يعرف موقعها ، منعطفاً هاماًفي تاريخ المغرب لأنها حققت انتصار القبائل لأوّل مرة في تاريخ البلاد . ويقول ابن خلدون : «إن بني زيري وصنهاجة استطاعوا ترويض شعوب المغرب البدوية » . لكن الترويض لم يمكن نهائياً لأن زيري أخذ على حين غرّة وقتل وحمل عدد من أمراء مغراوةرأسه الى قرطبة .

وما إن وصلت الأخبار الى آشير حتى هب بلكين بن زيري الى الحرب وحقق على زناتة انتصاراً كبيراً .

واتفق ان الحاكم الفاطمي كان يريد الانتقال الى مصر ، فلم يجد غير بلكين

نائباً له . فأوكل اليه حكم المغرب وافريقية معاً . كما كلفه بقيادة الجيش وجباية الضرائب وإدارة المقاطعات . وأوصاه بألا يعفو البدو من عبء الضرائب ابداً .

وتعتبر فترة حكم بلكين (٩٧٤ — ٩٨٤) العصر الذهبي من عهد القبائل . وفيه بلغت قوة صنهاجة أوجها .

واستولى بلكين على فاس وأصبح سيد مراكش باستثناء « سيتا » . ويحدثنا ابن خلدون عن بلكين حين وقف فوق هضبة تطوان وراح ينظر الى سيتا حيث جيش العدو ويقول : « هذه الأفعى تهددنا بأنيابها ». لكنه لم يذهب في فتحه أبعد من ذلك .

وكانت سيطرة القبائل على مراكش نوعاً من العبث ، فمراكش بعيدة جداً كما انها صعبة المسالك فضلاً عن قربها من قرطبة .

وبعد بلكين اتجه آخرون من بني زيري نحو فاس . وأحدهم واسمه بلكين ايضاً اغتيل سنة ١٠٦٢ بتواطؤ الصنهاجيين الذين أثارتهم غزواته البعيدة . وهكذا فإن استيلاء بني زيري على فاس مرّات عديدة لم يكن أمراً مجدياً لا بل كان نوعاً من الإنهاك لهم .

فتح الجزائر وانهيار زناتة

على طول حدود الجزائر الحالية أو حتى تلمسان على الاقل ، كان هؤلاء يعتبرون وكأنهم في بيوتهم . فقد أوقفوا مدّ المرابطين الى أبعد من فاس في نهاية القرن التاسع ، وفي وقت كانت فيه الاسرة الصنهاجية في عصر انهيار واسرة المرابطين في عهد تفتحها . وتحقق نوع من التعايش بين الاطراف المعنية ، ففي سنة ١١٠٢ حين استولى الصنهاجيون على تلمسان مرّة أخرى يروي لنا ابن خلدون كيف أن الامير الصنهاجي قد تأثر كثيراً بتضرع اميرة من المرابطين رجته باسم النسابة أن يرتدّ عن مهاجمة مدينتها . وكان لها ما

ارادت وتراجع الفاتح في اليوم التالي . ومن المعلوم ان المرابطين يحملون اسم صنهاجة لأنهم فرعان متباعدان لقبيلة واحدة . على أن قرابة الدم ليست دائماً عامل تقارب لدى البربر . فقد كان للصحراويين المرابطين وللقبائل أيضاً عدو مشترك في زناتة .

ومن المؤكد أن الجزائر في القرنين العاشر والحادي عشر كانت موطن القبائل البربر . فبلكين الأول ابن زيري كان صاحب مسيلة والزاب ، وقد قرّر عدم السماح للعدو بامتلاك حيّ واحد ، وجاب الولايات من تبنه إلى بغاي الى المسيلة وبسكرة ليطرد منها زناتة . كما دمّر تاهرت ونقل سكان تلمسان الى آشير ونجح في انقاذ المغرب الأوسط من بقايا زناتة . كذلك أسر ابن خازر امير مغراوة ثم قتله وطارد زناتة حتى سجلماسة وعاقبهم عقاباً شديداً. وفي اواسط المغرب أعمل السيف في رقاب زناتة وحلفائهم سكان بيوت القش . وهناك أصدر حكمه بالإعدام على كل بربري يعنى بتربية الخيول ويستخدمها للركوب. وهو تدبير غريب يدل على مدى الكراهية التي يكنها للبدو ، وكذلك دليل على تفوق لا ريب فيه . وتوفي بلكين حين كان في جولة تفتيشية بين سجلماسة وتلمسان .

وموجز القول إنه اصبح السيد الوحيد على الأوراس وهدنة والهضبات العليا وسهول وهران أي على طول المنطقة الطبيعية الكبرى التي يقطنها الزناتيون . ويقول ابن خلدون إن زناتة غادرت وسط المغرب وعبرت ملوية واستوطنت في المغرب الأقصى . وانتهى في الجزائر على الأقل ، دور مغراوة وبني يفرن وزناتيي الصنف الأول كما يسميهم ابن خلدون. ولم يسترجع الزناتيون قوتهم إلا بعد فترة طويلة ، بعد ان تغيرت معالم المغرب وتغيّروا هم أنفسهم واصبحوا زناتة الصنف الثاني ، وانتهت مشكلة قيام الدولة بإخضاع البدوي للقبائل .

أما المنصور ابن بلكين فكان – رغم لقبه – محبّاً للسلام أكثر من أبيه ،

وقد نسي طريق مراكش ووفر على نفسه طيلة إحدى عشرة سنة من حكمه أية مصاعب تذكر مع زناتة . (٩٨٤ – ٩٩٥) .

على ان الهدوء الدائم لا يمكن ان يستمر في بلاد البدو ، فسرعان ما بدأ الانشقاق من جديد .

واصبح زناتة مراكش على الأبواب يتطلعون الى مهدهم السابق في الجزائر . وفي عهد باديس خليفة المنصور (٩٩٥ – ١٠١٦) حصلت غزوات وثورات عنيفة . كما حصلت خضات أيضاً تحت حكم المعز خليفة باديس (١٠١٦– ١٠٦٢). غير أن الكلمة الأخيرة ظلت للأمير الصنهاجي في ما يتعلق بالزناتة على الأقل . وفي عهد المعز وقع الفتح العربي الثاني .

بعد ذلك بوقت طويل نحو ١١٠٢ ،كان الزناتيون رغم تأييد العرب لهم في موقف ضعيف تجاه الصنهاجيين . فبعد أن أوقف المنصور ابن الناصر غزو المرابطين لتلمسان اتجه لمحاربة الزناتة واضطرهم للتفرق بين الزاب ووسط المغرب .

وموجز القول ان النتائج التي تمّ الحصول عليها في بلاد زناتة كانت مستمرة . فلم تقم – في عهد الأسرة الصنهاجية – إمارة زناتية واحدة على طول المساحة الممتدة بين طرابلس وتلمسان . ولم تعد الأوراس تشكل مركزاً سياسياً. وانتهى أمر تاهرت، كما لم تعد تلمسان مدينة الحدود تحتل مركز العاصمة إلا في عهد زناتة الصنف الثاني .

يعني ذلك عملياً انه قد تمت حماية جميع المدن الإفريقية من غزو البدو طيلة قرن من الزمن أي منذ موت صاحب الحمار .

تلك كانت إرادة كل حاكم في صدّ هؤلاء البدو من أجل المحافظة على التراث الحضاري المستقر. ويقول ابن الأثير ان من نتائج تأسيس آشير إحلال الصنهاجيين بين

المدن من جهة ، والزناتة والبربر من الجهة الثانية وهذا ما سرّ له الحاكم الفاطمي كثيراً .

ازدهار اسطوري

وصف ابن خلدون تقسيم افريقية في عهد المعز فقال : « لم يكن قط لدى البربر امبراطورية أكثر امتداداً وازدهاراً » ، ويستدل على ذلك مما أورده ابن الرقيق الذي أسهب في وصف أعراسهم ومباهجهم » . كما يلاحظ ابن خلدون بنفسه آثار الترف والازدهار الشديدين . وكذلك البيان يتناول الموضوع نفسه .

لقد صان القبائل إفريقية من غزوات البدو ولم يعمدوا هم أنفسهم لسلبها . فما من جيش كتامي أو صنهاجي أقدم على سلب مدينة إفريقية . وقد سبق لنا ذكر النظام الذي رافق انتقال السلطة من الأغالبة الى الفاطميين ومن الفاطميين لبني زيري . وهناك سبب عميق لذلك ، فالهوة سحيقة بين رجل القبائل والبدوي . ولا أفهم لماذا يهمل المستعربون أمر انتساب كتامة وصنهاجة لحمير . ففي ذلك على الأقل دليل على ان فلاح القبائل ليس كسائر البربر ، لأن غيره من البربر ينتمون للبدو .

والفلاح معروف بميله لامتلاك الأرض . ورجال القبائل ملاكون شغوفون بملكهم كما أنهم يفهمون الحياة المدنية وقد كوّنوا نوعاً من الديمقراطية الحضرية. أما البدوي فذو نزعة شيوعية ارستقراطية . وليس من المستغرب ان يعمّ التفاهم علاقات سكان المدن والفلاحين القبائل ، كما انه ليس من المستغرب عدم تفاهمهم مع البدو .

بداية انجاز دائم أجهض قبل أوانه

في بلادنا نشأت الأمة من تعاون سكان المدن والفلاحين، وإن شيئاً من هذا

القبيل كاد يتحقق في بلاد المغرب .

لكن العملية لم تتم لأن الطابع الشرقي كان مسيطراً على مجرى الأمور حتى أن بلكين بدّل اسمه إلى يوسف ولقب نفسه بسيف الدولة بعد ان ولاّه الحاكم الفاطمي . كما حمل خلفاؤه اسماء عربية كالمنصور والمعز . وراح أمير صنهاجة يبتعد عن القبائل كلما رسخت جذوره في القيروان . إذ هو وريث الفاطميين والأغالبة ، فكيف له أن يسير على غير منوالهم في وقت لم تتوصل فيه دولة شرقية أن تشكل أمة .

ومن آخر وصايا الحاكم الفاطمي لبلكين ما يلي : « لا تولّ أحداً من غير بني زيري » . تلك هي الطبيعة الشرقية ، وقد عرف بنو زيري تمرّد الأمراء الوراثيين . وقد حصل أكثر من مرّة صدام بينهم وبين زناتة . وقد قصد أحدهم ويدعى زاوي الى شنّاوة لينتقل منها الى اسبانيا وينضم للأمراء الزناتيين . واستطاع ان يتولّى مركزاً مرموقاً في الجيش . لكنه بخلاف الآخرين شعر بحنين لبلده . وعاد الى بلاط الصنهاجيين حاملاً معه رفات أحد الأجداد من بني زيري ليجعل له ضريحاً في مدفن العائلة . وهكذا تجلت عنده الطبقية القبلية . فالجبلي يشعر بحنين لوطنه ، وهذا ما لا يدركه البدوي .

لكن حركات التمرد عند بني زيري لم تكن بمثل الخطورة التي وقعت في الأسر الاخرى . فهي حركات سهلة التفسير نتيجة تركيب الدولة الصنهاجية .

إنه تركيب خطير ، حيث ان البلاد ليست واحدة وإنما تضمّ دولتين متجاورتين لم تجمع الصلة بينهما وهما افريقية وبلاد القبائل : في بلادنا تتداخل المدينة والريف . أما هنا فليس لهما اتصال .

ففي افريقية نجد المكلّف والمال والصناعة والثقافة وهي العناصر الضرورية لقيام الأمة . أما في بلاد القبائل فهناك القوة وحدها .

وكان للبلاد كما رأينا عاصمتان : القيروان في افريقية وهي الأهم ، وآشير ثم قلعة بني حماد في بلاد القبائل . وكلتاهما اصبحت مستقلة في النهاية . وقد مهّد لهذا الاستقـلال مشاكل أمراء بني زيري . ذاك ان الحماديين وهم فرع من فروعهم استقلوا بالقلعـة سنة ١٠١٧ وبها استمرت اسرة بني زيري . اذ استطاعت بلاد القبائل ان تقف الى حين في وجه الفتح العربي الثاني بينما سقطت القيروان على الفور .

وامّحت هذه المدينة كعاصمة كبرى ، وبدأت تونس تجد لها مكانـاً فهي بمثابـة دعوة للقبائل . ويقول ابن خلدون : «ان شعوب افريقية كانوا ميّالين للأسرة الحمادية . وقد تخلّى أهل تونس عن المعز وأرسلوا شيوخهم إلى الناصر الحمادي . وتولّى ضابط من ضباطه بالاشتراك مع الأهـالي شؤون الحكم في المدينة واستطاع ان يحقق الوئام معهم » .

انها طرفـة تدل على مدى حاجة القبائل والمدنيين بعضهم إلى بعض . على أن اتساع الفتح العربي لم يكن ليسمح لإفريقية بالبقاء كتابعة للحماديين .

وبين القيروان التي انتهى أمرها وتونس التي لم تتكوّن بعد ، أخذت بجّاية مركز الصدارة . ولا سيما في عهـد الناصر مؤسسها وفي عهد المنصور ابنـه بين ١٠٦٧ و ١١٠٥ .

وهكذا أصبحت العاصمة الفعلية لشرقي المغرب . كما أصبحت عاصمـة مملكة كبرى كان الفتح العربي فيها في بدايته .

ولم تكن مملكة القبائـل هذه لتعمّر طويلاً بعد انفصالها عن شقيقتها في افريقية . لأن القوة لا تكفي وحدها لقيام الممالك .

على انه من الملاحظ أن العرب كانوا عاجزين عن الاستيلاء على جبال القبائل وبجاية . وقد اصبحت أماكن مهملة بعد انفصالها عن افريقية .

ولو أعدنـا رسم التاريـخ لتصوّرنا ان هـذا المخرج ما كان ليصبح حتمياً . فقد أعطى بنو زيري اشخاصاً أقوياء كالناصر والمنصور . وكان بإمكان مملكة صنهاجـة أشد القبائل البربرية نزوعاً للاستقلال ان تتطور نحو المستقبل لو ان المغرب ترك وشأنه . لكن المغرب لم يبق على حـاله . لأن الفتح العربي الثاني غيّر وضعه جذرياً .

١٠ ـ حدث جديد هام: قدوم البدو العرب واحياء الزناتة

البـــدو

كشفت ترجمة ابن خلدون الى اللغة الفرنسية العديد من الحقائق عن بـــلاد المغرب .

فلم نكن نعرف قبل ابن خلدون أكثر من ان الفتح العربي الأول لبلاد المغرب وقع في القرن السابع . في حين انه حصل فتح ثان يعيد جداً عن الأول وقع في منتصف القرن الحادي عشر .

ويقول ابن خلدون بحصافته المعهودة : « ان العرب في غزوتهم الأولى اضطروا للإقامة في المدن بغية السيطرة عليها ولم يقيموا في الخيام وسط السهول ، ولم يضربوا خيامهم فيها إلا في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) حيث توزعوا في انحاء هذه المنطقة الواسعة » .

وينتمي عرب القرن الحادي عشر الذين غزوا المغرب لقبيلتين رئيسيتين هما: بنو هلال وبنو سليم .

وكان الفتح العربي الأول لهدف حكومي صرف : حيث ارسل الخليفـــة جيشاً لغزو البلاد وإخضاعها . وإقامة فرق عسكرية ومكاتب داخل المدن . لكنّ افراد هذا الجيش لم يأتوا مع نسائهم وأسسوا عائلات متمازجـــة الدم .

وهكذا كان الفتح ماديـاً ومعنوياً في نفس الوقت . لكن البربر لم يتأثروا من جرّاء ذلك من حيث العرق وكذلك من حيث اللغة إن صحّ اطلاق كلمة لغة بربرية على مجموعة اللهجات التي يتكلمها هؤلاء . أما اللغة العربية فأصبحت لغة الدواوين الرسمية ولغة المعاملة في حين ظلت البربرية شائعة حتى مشارف المدن . وهكذا وعى البرابرة انفسهم واطلقوا على شعبهم اسم البربر لأول مرة .

أما عرب القرن الحادي العشر الذين أمّوا البـلاد بعد ذلك بخمسة قرون فكانوا مختلفين عن العرب الأولين الذين جاؤوا قبلهم ، ويقول ابن خلدون انهم من العرب المستعجمة أي الذين لا يحسنون اللغة العربية ولا يحافظون على اصولها حتى في قصائدهم البدوية الفلكلورية .

أما مدن المغرب فكانت تتكلم اللغـة العربية الفصحى في القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر . ولم تتغلب عليها العاميـة ، لأن من لا يحسن لغة القرآن وقتئذ كان يتكلم البربرية. والبدو الرحل هم الذين أتوا بالعربية العامية في القرن الحادي عشر . حيث كانوا شعباً متكاملاً من الرحل ، نزحوا بنسائهم واطفالهم باحثين عن المرعى والحرب ايضاً . وهي حقبة عاشهـا ابن خلدون بنفسه .

في سنة ١٣٥١ خرج سلطان تلمسان في حملة على شلف . « وتحالف مع بني زغبة (وهم من القبائل العربية) الذين ساعدوه بفرسانهم ومشـاتهم ونسـائهم وإبلهم » .

لقد بدأ استيطان العرب هذه المرة . لكن بني هلال وبني سليم كانوا بـدواً نموذجيين . عادوا فكرة الحكومة والنظام ، وانصرفوا بكلّيتهم لأعمال السلب والنهب . وكان ابن خلدون يعنيهم بنوع خاص حين كتب كلماته الشهيرة عن العرب .

ولقد عرف المغرب دماراً كبيراً في القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر.

انها كارثة افظع من كارثة الخوارج حلّت به .

وقد وضع جورج مارسيه كتاباً مهماً عن بني سليم وبني هـلال يمكن الرجوع اليه .

وسنكتفي بالإشارة الى ان إهمال صنهاجة كان سبباً في مجيئهم إلى بـلاد المغرب .

ان هاتين القبيلتين كانتا في موطنهما الأصلي (شبه الجزيرة من ناحية سورية) من أخطر القبائل الموجودة . حيث كان افرادها لا يتورعون عن مهاجمة الحجاج المتوافدين الى مكة . كما أسهموا مساهمة فعّالة في ثورة القرامطـة . وقد نفاهم الخليفة الفاطمي الى صعيد مصر تخلّصاً من شرهم . وسكنوا على ضفـة النيل اليمنى وبقي عليهم أن ينتقلوا للضفة اليسرى قبـل ان يطلق لهم العنان نحو المغرب . وخلق وجودهم في الصعيد جوّاً من الذعر والإرهاب .

في تلك الأثناء وقع السلطان الصنهاجي بالقيروان في خطأ جسيم حين رفض سلطة الخليفة الفاطمي وأرسل تحياته للخليفة العباسي في بغداد. كان ذلك سنة ١٠٤٥ . بعد ذلك بست سنوات أي ١٠٥١ كانت طلائع القبائل الهلاليـة تدخل افريقية .

وليس بمستطاعنا ان نتطرق لجميع التفاصيل التي عرفتها بلاد المغرب في ذلك الحين ، لكن بوّدنا الإشارة لبعض الأمور التي تنير بعض جوانب المشكلة.

انهيار صنهاجة

جاء انهيار صنهاجة نتيجة للغزو البدوي . فمنذ ١٠٥٦ و ١٠٥٧ بدأ البدو بدخول القيروان وسلبها . وقد سبق لهذه المدينة أن قاومت حركات مماثـلة لكنها لم تستطع الصمود هذه المرّة وتشتت أهلها وحلّت الكارثة بها . لكن القيروان لم تزل كمدينة وإنما فقدت مكانها كعاصمة لتحل محلهـا تونس . على ان الاسرتين الصنهاجيتين الحاكمتين في افريقية وبجاية ظلتا في الحكم قرنـاً من

الزمان بعد ذلك أي حتى ١١٦٠ قبل ان يقضي عليها الموحدون لا البدو .

وظلت بجاية مهيبة الجانب في حين اصبحت افريقية مرتعاً للبدو . ولم يعد للسلطان من سلطة إلا على المدن باستثناء تونس المدينة الرئيسية . واستطاع السلطان المحافظة على نفسه بطريق الدبلوماسية حيث استطاع ان يضرب العرب بعضهم ببعض .

ولكن كيف قيض لصنهاجة أن تستمر قرناً من الزمان في ظروف كهذه ، قبل ان يأتي جيش من الموحدين بطريق الصدفة ليقضي عليها ؟ ذلك بالطبع لأن البدو لم يكونوا طامعين بالعرش .

وحين تغلّب الحاكم الفاطمي على ابن الأغلب ، اكتفى بتسلم السلطة واستمرت الادارة كما كانت عليه .

فلم يكن البدوي الظافر ليفكر بتسلم السلطة فهذا لا يهمه ابداً لابل انه لا يفقه ما هي السلطة . « لم يكن لهذه القبيلة العربية – كما قال ابن خلدون – أي رئيس قادر على قيادتها والسيطرة عليها . وراح ابناؤها الى الحقول بعد ان طردوا من المدن واستولوا عليها ليجعلوها مراكز لأعمال السلب والنهب » .

وبقاء السلاطين الصنهاجيين بعد انهيار سلطتهم العسكرية من الأمور التي تلقي الأضواء على طبيعة البدو .

نهضة زناتة

أصاب الحاكم الفاطمي صاحب القاهرة – دون أن يدري – عصفورين بحجر واحد حين تخلص من الهلاليين والسليميين وأرسلهم في نفس الوقت للقضاء على صاحب القيروان الخالع لطاعته . وقال وزيره الذي ذكره ابن خلدون : « سيتخلص خليفتنا منهم ، ولا يهمنا إن لم تنجح المهمة » .

على أنه ما من عقل بشري كان قادراً على استيعاب الأثر الذي احدثه قدوم الهلاليين الى المغرب ، فقد تفشت جرثومتهم بشكل فظيع في انحاء البلاد . ولم يستطع الصنهاجيون الصمود في وجه الغزاة على الرغم من سيطرتهم على زناتة ، ذلك ان تلك السيطرة قامت على الارهاب ، الامر الذي جعل الزناتيين ينتقلون بسهولة الى جانب الأعداء على أرض المعركة .

وعلى الرغم من فارق اللغة والجنس فقد قام تفاهم بين البدو وزناتة بسبب التشابه في نمط الحياة . واستطاع البدو الذين لم يكونوا على جانب عظيم من القوة أن يستقطبوا بلاد زناتة بسهولة، وكانوا بمثابة عود ثقاب في برميل من البارود .

الدول الزناتية الجديدة

ينبغي أن نتخطى حدود العصر الوسيط الأوّل كي نشهد نهضة زناتة عن كثب .

سبق لنا القول ان البدو لم يفكروا قط بإنشاء أسرة حاكمة . لكن ذلك ليس عين الحقيقة ، فقد أشار ابن خلدون لقيام دولة هلالية صغيرة في قابس سكّت النقود واستمرت بعض الوقت . ولعل انصراف البدو عن فكرة الدولة يرجع لعدم قدرتهم عليها أو جهلهم بها .

وهم بذلك يختلفون عن زناتة . فبعد أن حرّرها قدوم البدو من سلطة صنهاجة أعادت تكوين نفسها وأسست أقوى اسرتين حاكمتين في تاريخها : بنو عبدالواحد في تلمسان والمرينيون في فاس . وبذلك تحقق انتصار زناتة ، أي البربر البدو . ولم يكن هذا الانتصار اعظم مما اصبح عليه في تلك الفترة . تلك ظاهرة على صلة وثيقة بمجيء الهلاليين وبني سليم . وبإمكاننا ان نحدد هذه الصلة.

كان على صنهاجة أن يجابهوا زناتة الصنف الاول كما يسميهم ابن خلدون. وقد رأينا في الفصول السابقة ما يعنيه بذلك . وكان « وسط المغرب » أي مجموعة السهول العالية والواطئة الممتدة بين هدنة وملوية تحت حكم قبيلتين

بدويتين كبيرتين بزعامة اسرتين حاكمتين . والقبيلتان هما مغراوة وبنو يفرن . هؤلاء هم زناتة الصنف الأول . وتركزت جهود الصنهاجيين ضد بني مغـراوة وبني يفرن ، وتكللت جهودهم بالنجاح. وتم طرد القبيلتين من وسط المغرب ومن مراكش ايضاً حيث قضى عليهم المرابطون اعداؤهم الجـدد . وبدا انتصار الصنهاجيين كاملاً .

على ان المغرب لم يبق فارغاً بعد طرد مغراوة وبني يفرن . وظلّ فيه شعب من البدو وزناتة . وحتى القرن الرابع عشر ، لم يفقد المغرب كونه – كما يقول ابن خلدون – موطن زناتة عن حق وحقيقة. وتمسك الزناتيون الذين حافظوا على بقائهم بعد زوال الصنف الأول ، تمسكوا بالخط الحياتي لأسلافهم . فليس غير الدولة الاوروبية قادرة على صهر البدو وربطهم بحكم اداري قـادر على تغيير الطبيعة الاقتصادية في السهول الوعرة . ولم تكن حكومة صنهاجة قادرة على مجرّد التفكير في شيء من هذا القبيل . واكتفت بالسيطرة على مجموعة من القبائل المشتتة الخاضعة لنفوذ القيروان والقلعة. وأخيراً وصل العرب. وأصبح الزناتيون في وضع ممتاز من ناحيتين : أولاً لم يعد حكم صنهاجة مهيب الجانب بما في ذلك بجاية نفسها ، ثم إن الغزو العربي ساهم بدوره في زعزعة هـذا الحكم . واستمر المد طويلاً قبل ان يبلغ أواسط المغرب. ومن المرجح على كل حال أن تكون بلاد زناتة في وسط المغرب قد حافظت على وجودها بعد الغزو العربي . ومن المؤكد ان « الذئاب العرب » لم يطأوا أرض زناتة حتى القرن الرابع عشر . ولم تظهر القبائل العربية في تاريخ تلك البلاد إلا نادراً .

أما زناتة وسط المغرب فقد هادنوا البدو واعتمدوا عليهم قبل ان يدركوا خطورة ما اقدموا عليه . وهكذا استمدوا منهم قوة جديدة ساعدتهم على بعث إمارات على غرار الإمارات الأولى كبني يفرن ومغراوة ، وهكذا نشـأت اسرة بني عبد الواحد واسرة المرينيين وهم من زناتة الصف الثاني .

ومنذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ، اصبح بنو عبد الواحد شديدي البأس

في منطقة تلمسان . وأسس بطلهم يغموراسن ابتـداء من سنة ١٢٣٥ أسرته الحاكمة رسمياً .

بعد ذلك بعدة سنوات أي في سنة ١٢٤٨ استولى المرينيـون على فاس وأسسوا فيها أسرة تحمل اسمهم على انقاض دولة الموحدين .

ولم يعرف زناتيو الصنف الاول مصيراً اعظم من هذا المصير . على أن بني يفرن وأبناء عمهم بني عبد الواحد كانوا على عداوة شديدة رغم القرابة بينهم ، شأن مغراوة وبني يفرن من قبلهم .

لكن هناك فترة قرنين كاملين تفصل بين الحادي عشر الذي عرف ظهـور الهلاليين والثالث عشر الذي شهد توطد حكم بني عبد الواحد والمرينيين . وقد لزم وقت كهذا الوقت لتبعث بلاد زناتة من جديد . ذلك مثال لصالح المملكة الصنهاجية . فدورها في تهديم أثر البدو كان عميقاً جداً. ولكن سرعان ما نبت غصن زناتة من جديد على صورة أشد واقوى . وفي هذا الصراع الحيوي بين القبائـل ، هذا الصراع الذي يشكل أهم نقطة في تاريـخ المغرب في العصر الوسيط ، كان الدعم البدوي في أساس الانتصار الذي احرزه اولئك الرحل .

الخلاصة

المغرب في الجزء الثاني من العصر الوسيط
انتصار الزناتة والانهيار الشامل

دولة المغرب في نهاية العصر الوسيط

لقد سعينا لإزاحة الستار عن تاريخ المغرب في العصر الوسيط الأوّل وايضاح مختلف المراحل التي مرّ بها . وها نحن نشارف على نهاية مهمتنا . ولو كان تاريخ المغرب كأي تاريخ آخر ، لما احتجنا لإضافة سطر واحد على ما ذكرناه . لكن تاريخ المغرب ليس كسائر التواريخ لأنه لم يكتب قط . وما من أحد يعرفه . لذا نرى لزاماً علينا أن نخصص فصلاً مطولاً للاستنتاجات . فبودنا أن نرسم ملامح المغرب في نهاية العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة، تماماً كما خرج من العصر الوسيط الأوّل . لقد كانت نهاية العصر الوسيط مرحلة من التفكك الذي لا مردّ له، وهذا ما نتوخى ملامسته في استنتاجاتنا.

الحفصيون وتلمسان كلّ ما تبقى .

على طول المنطقة الواقعة في مراكش الشرقية ، أي نفس المنطقة التي نسميها

اليوم الجزائر وتونس ، لا تزال افريقية موجودة وهي تونس .

بزوال آخر سلطان صنهاجي (نحو ١١٦٠) كانت تونس سعيدة جـداً بمساندة الحاكم الموحدّ بكل ما أوتيت من قوة ، والحاكم هو الذي أسس أسرة مستقلة .لكن أي شيء لم يتغيّر . وظلت افريقية مشابهـة لنفسها سواء كانت القيروان عاصمتها أم تونس، فهي مجموعة المدنيين أنفسهم القابعين وراء أسوارها عاجزين عن التأثير خارج تلك الأسوار .

وفي داخل الحدود المدنية حيث يعيش أناس حضريون وتجار وحرفيون وموظفون ، لا تمكن الحياة دون سلطان على رأس الحكم . وهم يطبعون السلطان بطابعهم كائناً ما كان القطر الذي أتى منه . فحينما وصلنا إلى تونس وجدنا فيها « بيكاً » تركياً . أما زميله بيك الجزائر فقد ظل بعد أربعة قرون محافظاً على طابعه التركي إذ يتكلم التركية ويحيط نفسه بالاتراك الذين يشعرون ببعدهم عن الوطن الذي نصبوا عليه حكاماً. أما في تونس فتختلف الحال إذ لم يبق شيء من السمات التركية لدى الحاكم رغم ظاهر الاسم ، إذ كان الداي سلطاناً تونسياً من افريقية كسائر اسلافه الحفصيين والصنهاجيين والأغالبة . وهكذا ظلت ذكريات قرطاجة لم تتغير ، حيث أنها لم تمت تماماً وليست في الوقت نفسه قادرة على الحياة . فهي بمثابة برعم لا يتفتح .

وبعيداً عن تونس الحفصية على طرف البلاد الأخرى ظهرت تلمسان المدينة الجديدة التي بناها يغموراسن وبنو عبد الواد . وقد وعى ابن خلدون حقيقتها. وفي ذلك الحين أصبحت عاصمة المغرب المتوسط والوطن الأم لقبائل زناتة .

وليست تلمسان متميزة بالطابـع الشرقي . فهي أقرب لمراكش وهي على صلات قوية بفاس . كما نستطيع في وقتنا الحـاضر أن نلاحظ الطابع الغربي الطاغي على هندسة تلمسان . وهو مراكشي أو اسباني .

وهذا ما يجعل تلمسان جوهرة في الجزائر حالياً . وليس هـذا كل شيء .

زوال المغرب المتوسط

وتلمسان هي المدينة الوحيدة التي لا تزال موجودة في الجزائر منذ العصر الوسيط .

وبعد دخول البدو على المسرح في القرنين التاليين ، أصيب المغرب المتوسط بين تونس وتلمسان بالشلل والجمود . واختفت آشير وقلعـة بني حمّاد وبجاية الحمادية والحفصية . كما اختفت تيهرت وأرشقول . وزالت البطحـاء من الوجود ولم تعد تعرف آثارها . ويورد ابن خلدون سلسلة من اسماء المـدن الميتة التي لم تعد تثير أي ذكرى في نفوسنا: « وهكذا زالت شلف وقصر عجيسة والخضراء ومتدجة وحمزة ومرسى جدجاب والجباه والقلعة. ولم يبق أحد في تلك المدن، كما لم يعد يسمح صياح ديك فيها » .

وليس البدو وحدهم السبب في ذلك وقد سبق لابن غانية آخر سلالة المرابطين أن هاجم المغرب الشرقي طيـلة نصف قرن . وهي من اطول ملاحم قطاعي الطرق . وإن دلّت على شيء فعلى ان البـلاد في طور الانحلال . ولنتصور أن وضعاً كهذا يستمر ثلاثة قرون ، فلا بد للمغرب حيال ذلـك إلا أن يموت . وعندها تحوم العقبان حول الجثة. وقد رأينا كيف ان المغرب في العصر الوسيط الأول قد تخلص من الغرباء . ولم يعد يحمل من الفاتح العربي سوى دينه. وجاءت فترة تجـاوز فيها البربري حدوده وتطلع نحو جيرانه في اسبانيا وصقلية ومصر . وليست تلك الحقبة من تاريخ المغرب اكثر الحقبات غموضاً وانما كانت ابرزها .

وكأن البلاد في ذلك الحـين قد أفادت من المخزون البشري والاقتصادي الذي خلّفه الرومان .

وقفلت تلك الفترة بمجيء البدوي . وبدأت الساعة تدور الى الوراء وعاد

المغرب لعادته الأولى ألا وهي الخضوع للفاتح الاجنبي .

وبات يشهد مجيء أرمني هو قراقوش الى جانب ابن غانية الذي كان اسبانياً .

لكن هؤلاء مجرّد أفراد وقادة عصابات عاديين . وهم أشبه بالنبالة الاكراد (الغز) والفرق المسيحية التي ظهرت في جيوش بني عبد الواد والمرينيين ، وحتى الموحدين من قبلهم .

وأخطر من ذلك ان بعض الدول الأوروبية بدأت تغامر عسكرياً على الشواطىء المغربية. فسقطت طرابلس بعض الوقت في يد صقليي روجر سنة ١١٤٥ ثم سقطت في يد الجنويين عام ١٣٥٤ . وفي منتصف القرن الثاني عشر لم يكتف اسطول روجر بطرابلس بل استولى أيضاً على المهدية وصفاقس وسوسه. وشدّد روجر سلطته على جميع المقاطعات البحرية لأفريقية واحتفظ بها وقتاً طويلا تحت سلطته .

وهل لنا ان نذكر بحملة لويس ابن لويس الصليبية وهو الذي حاصر تونس سنة ١٢٧٠ وكان على وشك الاستيلاء عليها كما قال ابن خلدون بخلاف ما ورد في كتبنا . وظهرت فرنسا لأوّل مرة في افريقية على انها كالت ضربات لم تترك آثاراً دائمة ، وانما برهنت على وهن الجسم المغربي . ومهّدت الطريق أمام أحد الغزاة المحظوظين وهم الاتراك .

المرابطون والموحدون والمرينيون

لم نتكلم حتى الآن إلاّ عن المغرب الشرقي ، فثمة فارق تاريخي بينه وبين المغرب الغربي الذي نطلق عليه اليوم اسم مراكش. فمراكش كما نراها اليوم نشأت في عصر متأخر لأن مدينة مرّاكش عاصمتها الثانية لم تظهر إلاّ في القرن الحادي عشر ، كما رأينا من جهة أخرى ان فاس التي لا نتصور مراكش بدونها قد أسست على يد أدريس الثاني .

وقد جاءت الأسر المراكشية الكبرى كالمرابطين والموحدين (وهم بمصاف الفاطميين من حيث الأهمية) بعد الفاطميين ولا تنتمي بذلك للعصر الوسيط الأول . وليس في نيتنا الإسهاب في الحديث حول هذا المجال .

لكنه خليق بنا أن نبيّن أن سلّم التطور هو نفسه سواء في مراكش أم في غربي المغرب ، أي انه تطور جاء متأخراً. ويبدو لنا ان حكم كتامة وصنهاجة هو الذي نزع لتحقيق وحدة المغرب وابراز شخصيته المستقلة. والحقيقة أن اسرة الموحدين قد سارت في نفس الاتجاه بعد ذلك بقرنين .

وقيام اسرة المرابطين رافق ظهور بدو الصحراء الملثمين ابتداء من مراكش وحتى بلاد الأندلس . لقد كانت أسرة بارزة وقصيرة الأجل .

نشأت اسرة الموحدين كردة فعل عنيفة ضد المرابطين البدو . انشأها القبائل هي الأخرى ، وهم قبائل أعالي الاطلس جنوبي مراكش . وكانت من أدوم الأسر الحاكمة في مراكش ومن ألمعها .

وجملة القول إن اعظم اسرتين عرفهما مغرب العصور الوسطى هما الفاطميون والموحدون وهما من أسر القبائل . وليس هذا وليد صدفة على كل حال ، لأنه منطبق على المفهوم الغربي القائل ان تحالف سكان المدن مع الفلاحين يؤدي لنتيجة ايجابية حيثما كان .

ودولة الموحدين كدولة الفاطميين من تلك الدول المغربية التي تنشأ فجأة . وسرعان ما مدت جذورها إلى الطرف الآخر للمغرب وحتى تونس . لكن ضعف الموحدين في الجزائر كان كضعف الفاطميين في مراكش . وقد اعطى الموحدون حكماً جديداً لأفريقية ، هو حكم الحفصيين . لقد كانت الغاية وضع البدو الزناتة عند حدّهم . ولا مجال للتساؤل هناك إذا كان الموحدون قد فشلوا في هذا الأمر . وقد مضوا لإسقاط المرينيين وهم من الأسر الزناتية ، مستندين في ذلك على بدو يعملون لصالحهم . ولم يعد ثمة مجال لإنشاء دولة في بلاد تغلغل

فيها البدو ايما تغلغل .

ولنشر هنا إلى أن انتصار زناتة هو بمثابة بداية النهاية سواء في مراكش أو في الجزائر . فقد انتهى عهد الحملات الظافرة على اسبانية ، كما انتهى عهد السيطرة على ضفتي جبل طارق . فلم يتمكن الحكم المريني الذي وقع فريسة التآكل مع نسيبه حكم عبد الواد شأن الزناتة – لم يتمكن من ايقاف تقدم الملوك المسيحيين الإسبان . ولم يطل الوقت حتى حطّ الاسبان والبرتغاليون رحالهم على الشواطىء المراكشية .

وهكذا في مراكش كما في شرقي المغرب نشاهد اسرة من القبائل تقوم بأعمال عظيمة وتكاد تحقق كيان دولة . وسرعان ما انهار كل شيء بانتصار زناتة التي أحياها البدو . فليس من الممكن نفي التوازي بين تينك العمليتين التطوريتين بعد تأخر دام قرنين .

على أن النتيجة النهائية واحدة ، انه الانحلال . وقد عاش ابن خلدون في حقبة بلغ فيها الانحلال ذروته . واستطاع أن يعي الموقف كما رأينا . تلك هي خاصة القرون التي تلت العصر الوسيط .

زناتة تستعرب

ولكي نفسر ظاهرة التقهقر هذه ونبيّن ملابسات الموضوع المرتبط بزناتة يبقى أن نشير لنتيجة أخرى تتعلق بالغزو البدو والتي قادت إلى الكارثة على ما أظن .

علينا أن نفكر بالدور الذي لعبه الزناتة في بلاد المغرب . فهم الذين كانوا طيور العاصفة والملاك الأسود وهم الذين قضوا على المغرب ،فقد لعب جميع الزناتة سواء من الصنف الأول أو الثاني – لعبوا دورهم بعنف وقوة ونجاح . بحيث لم تواز زناتة قبيلة أخرى من قبائل البربر ، كيف لا وهي قبيلة الجمّالين

الرحل الكبار .

ولكن ما الذي حلّ بها الآن واين نعثر على بقاياها اليوم ؟ أفي السهول أم في المرتفعات أم الهضاب ؟ انه لغريب حقاً ألاّ نعثر عليها ابداً . فلعلّها زالت دون أن تترك لها أثراً .

إن جميع الأسر الحاكمة في المغرب قد زالتوهذه قاعدة عامة ، فقد انقرض بنو مرين وعبد الواد ومغراوة وبنو يفرن . ولكن أين القبائل الباقية التي لم تصل إلى سدّة الحكم ؟ لقد زال الكتاميون والصنهاجيون لكن بني زواوة وهم ينتمون لقبيلة متواضعة حليفة لهم حافظوا على بقائهم . كما زال بنو لمتونة المرابطون ، لكن الصحراء لا تزال مسرحاً لأولئك البربر الملثمين أحفاد لمتونة. أما وضع زناتة فغريب حقاً ، لأنهم لم يتركوا أي أثر .

وظني أن البدو المغلوبين على أمرهم بعد أن فقدوا كل شيء سيتحوّلون إلى فلاحين . والواقع أن في قرى زسفانة وغرارة والأغواط ووادي غير نجد شعباً يائساً أقرب إلى الزنوج يلقب نفسه بالشعب الزناتي أو انه ينتمي للقبائل الزناتية المعروفة مثل « بني قومي » والأغواطيين والفيريين . يضاف إلى ذلك إباضية الزاب الذين حافظوا على استقلالهم وكرامتهم وعرقهم الأبيض نظراً لتعلقهم بالدين وممارستهم التجارة . ولكن هل صحيح أن أولئك القرويين هم كل ما تبقى من زناتة ؟ أغلب الظن أن الأمر صحيح .

لكن بلاد زناتة لم تزل من الوجود فلا تزال الهضاب والسهول التي كانت مرتعاً لهم على حالها . لكن سكان هذه البلاد يسمّون أنفسهم عرباً ويعلنون انتماءهم للهلاليين وبني سليم وكأن هؤلاء البدو قد حلّوا محلّ الزناتيين فرداً فرداً .

واذا ألقينا نظرة أجمالية على خريطة اللغات الشائعة في المغرب لرأينا ان بلاد زناتة من ابرز المناطق التي تتكلم العربية بحيث أن هذه اللغة تسود الآن

تونس والاوراس وتمتد الى هدنة والمرتفعات والسهول الوهرانية وتتعرج عبر غور تازه لتبلغ السهول الاطلسية المراكشية . أي في حدود بلاد زناتة .

فهل يصحّ ان نسلّم بزوال هذه القبيلة . من المعروف ان البدوي لا يترك له جذوراً فهو يرتحل كلما خسر المعركة . ولكن هل خسر الزناتي المعركة ضد البدوي ؟ فبنو عبد الواد والمرينيون كانوا أسراً زناتية لا بدوية .

رابط الدم

انها قضية أثارت فضول الباحثين فهل يمكن القول ان الدم العربي قد حلّ في محلّ الدم البربري ؟

يبدو الأمر مستبعداً لأول وهلة. فالهلاليون وبنو سليم عبروا برقة وطرابلس قبل ان يبلغوا الجنوب التونسي وهي مناطق يقطنها البربر . فلم تكن هاتان القبيلتان اذن ذات دم عربي صاف . وقد حيّر بنو قرّة وهم فرع من الهلاليين المؤرخ ابن خلدون حول نسبهم .

ثم نتساءل: كم كان عدد الهلاليين وبني سليم حين أمّوا بلاد المغرب ؟ هنا لا يعطينا ابن خلدون اجابة شافية .

أوّل فرقة من الهلاليين وهي التي هزمت الصنهاجيين تتغنى بأنها هزمت ثلاثين ألفاً في حين لا يزيد تعدادها على الثلاثة آلاف . ويبدو أن الرقم ليس مبالغاً فيه لأن معظم جيش الصنهاجيين فرّ الى صفوف الأعداء .

وبنو مكيل من أهم القبائل العربية التي استوطنت الصحراء المراكشية وإليك ما يقول عنهم ابن خلدون. « جاء بنو مكيل الى المغرب مع القبائل المتحدرة من بني هلال ويقال ان عددهم لم يزد في ذلك الوقت على المئتين ».

ولا يمكننا بالطبع ان نثق كثيراً بهذه الارقام . غير أنها ذات دلالة ، فليس بإمكاننا أن نتوقع ارقاماً أضخم بالنسبة للقبائل الصحراوية . علماً بأنها انتقلت

من شبه الجزيرة الى صعيد مصر .

وحينما قرر الحاكم الفاطمي ارسال البدو الى المغرب اعطى كلاً منهم « معطفاً من الجلد وقطعة من الذهب » . ممّا يدلّ على قلة عددهم . ثم إن الفرق الصغيرة وحدها قادرة على اجتياز ألفي كيلو متر من الصحراء . وقد قدّر عدد بني هلال وبني سليم بمئتي ألف نسمة كحدّ أقصى . وهو رقم اعتباطي لكنه مقارب للحقيقة . اما عدد سكان المغرب في القرن التاسع فكان يبلغ عشرة ملايين نسمة ،وتكون نسبة الدم العربي بمعدل ٢٠٠,٠٠٠ الى ١٠,٠٠٠,٠٠٠ أي اثنين بالمئة . ولا نعرف كيف ان البدو تكاثروا جدّاً منذ القرن الثاني عشر . لا سيما وان الحرب الدائمة ليست ملائمة لزيادة عدد السكان .

تلك هي اعتبارات تشير الى أن البدو كانوا بمثابة الخميرة في بلاد المغرب . ولنحاول الآن مع ابن خلدون ان نرسم خريطة اللغات في القرن الرابع عشر .

من المؤكد ان البدو احتلوا على الفور الجزء الشمالي من الصحراء على سفح الأطلس وحتى الاطلسي . ويبدو انهم لم يلقوا مقاومة شديدة لا سيما في الغرب .

ويقول ابن خلدون انهم وجدوا سوس « خلوا من قبائل البدو تقريباً » . ولعلّ الصحراء الشمالية هي البقعة التي نجد فيها نسبة كبيرة للدم العربي.حتى ان بعض اشكال الإعراب التي اختفت في سائر المغرب لا تزال موجودة هناك .

وفي المغرب نفسه يبدو ان ثمّة حدوداً مهمة كانت قائمة تحت هاجرة الجزائر . وفي سنة ١٢٤١ « كانت صحراء زهريز وهي منطقة بجنوبي تتري تشكل الحدود الغربية لنشاطات بني رياح وبني سليم » . ويشير ابن خلدون لتردد هاتين القبيلتين العربيتين في عبور هذه الحدود الخطرة .

أما المنطقة الواقعة قبلها أي في هدنة والجنوب التونسي فليسوا غرباء أبداً .

وأما من الجبهة التالية فتبدأ حدود وسط المغرب بلاد زناتة .وهذا شيء آخر .

اذا كان هنالك بدو (كالزغبة ومكيل) لكنهم لم يكونوا في مركز الآمر .
أما زناتة فهم من الأسياد ومن أشد البربر بأساً . ويحكى عن يغمراسن انه استعمل رأس قندوز واصحابه كحجارة للموقد . وزناتة ايضاً شديدو التبجح بعبقريتهم ويذكر أن يغمراسن هتف حين قيـل له انه من اسرة ادريس : « لو صح هذا لأفادنا أمام الله ، أمـا هنا على هذه الأرض فلانعتمد على غير سيوفنا » .

ان تقهقر الأسر الزناتية الكبرى قد مهد الطريق لسيطرة البدو ، وقـد عايش ابن خلدون تلك الفئة ، وقال ان جميع قبائل البربر المقيمة في وسط المغرب أصبحت خاضعة للعرب من بني زغبة ». ويعني المنطقة التي يعبرها نهر شلف . وهذا لا ينفي أن معظم سكان المنطقة كما ورد في كتابه هم من زناتة .

وفي تلك الحقبة لم يكن العرب قد توغلوا في مراكش . « فطنجة وساليه وأزمور كلها مدن بربرية » . ويقول ابن خلدون في موضـع آخر : « في سهول أزجر وتامينا وتدلا والدقالا (أي في السهول المراكشية الاطلسية) كانت تعيش شعوب من البدو والبربر والعرب . وقد دخل العرب اليها في فترة متأخرة ». وورد في كتاب القرطاس أن خطيب المسجد كان يحتـاج لمعرفة البربرية . والطابع البربري ظلّ غالباً في بلاد المغرب حتى القرن الرابع عشر عصر ابن خلدون . وقد وضع المؤلف العربي كتابه حول « تاريخ البربر » .

حتى بين المقاطعات التي يسيطر عليها البدو في هدنة وجنوبي تونس استطاع ابن خلدون أن يميز بين قبائل البدو والقبائل العربيـة الاصيلة . « تدعي قبيلة صدويقش انها تنتمي لبني سليم القبيلة العربية ، لكن ادعاءها لا أساس له من الصحة وهي من أصل كتامي » .

وكم من أشخاص ينتمون لهوارة وصدويقش أعلنوا نفسهم هلاليين أو سليميين.

فالخطأ في الأنساب كان قاعدة في بلاد المغرب .

وبنو زغبة مثلاً انضموا لبني بادين القبيلة الزناتية .

كما نعثر اليوم في السهول الوعرة وفي البقعة التي نشأ فيها بنو عبدالواد ، نعثر على بني غيل ومنهم فئة تسمى بني غرمراسن . ولعلّها نسيبة يغمراسن مؤسسة أسرة بني عبد الواد . ولكن لا يخطر ببال بني غيل أبداً أنهم من غير العرب الأقحاح .

بعد ذلك وقعت حوادث جديدة جعلت حركة الاستعراب تتقهقر . وذلك بعد خسارة المسلمين اسبانيـا وطرد « المور » من بلاد الأندلس . وحصلت في المغرب خضات عنيفة هزت كيانه الداخلي .

ويقول ابن خلدون « إن مقاطعتي بجاية وقسنطينة كانتا في السابق تابعتين لقبائل زواوه وكتامة وعجيسة وهوّارة ، أما اليوم فيقيم فيها العرب ما عـدا بعض الجبال التي يصعب الوصول اليها ، حيث نجد فيها آثاراً لتلك القبائل ».

ولكن يبدو الأمر مستغرباً بالنسبة الينـا نحن اليوم ، لاسيما وان بجاية هي معقل البربر . فهل أخطأ ابن خلدون في اعتباره هذا ؟

لقد عرف مؤرخ العرب الكبير مدينة بجاية الحفصية وريثة بجـاية الحمادية ، وهي مدينة كانت تتسع لمئة ألف شخص بأحيائها وتوابعهـا . وكانت فيها اللغة العربية اللغة الأولى . لكن البربر عاودوا الاستيلاء عليها وسيطرت اللهجـة البربرية على اللغة العربية رغم قوتها ومميزاتها . لاسيما وأننا في وسط بلاد القبائل بعيداً عن زناتة .

والزناتيون هم الذين استعربوا تمامـاً ، نظراً لمشابهتهم العرب من حيث نمط الحياة .

وهكذا نرى أن أولئك الذين نسميهم اليوم عرباً هم الزناتيون أنفسهم بعد أن استعربوا .

ويبدو هذا التحليل غريباً بعض الشيء . لأن العرب المستوطنين هناك لا يقرون بانتمائهم للبربر ، وهم موقنون بأنهم عرب أقحاح أباً عن جد . ذاك أن أثر البدو قد فعل فعله العميق في نفوسهم .

حيثما كان الزناتة إذن نجد العرب اليوم . لكنها عملية تبدل فظيعة . ففي العصر الوسيط الأول كانت الكراهية على أشدهـا بين صنهاجة وزناتة وبين البرانس والبتر ، وذلك بسبب اختلاف نمط الحياة . لكنهم كانوا أشقاء لدودين ينتمون لعرق واحد .

أما اليوم فتختلف الحـال . فليس التصادم بين مجتمعين ، البدو والحضر ، وانّما بين عرقين ، العرب والبربر . وهكـذا ازدادت عناصر الانحـلال في بلاد المغرب .

إن عصور المغرب المظلمة في العهد الوسيط بعيدة عنّا كل البعد . لكن تلك الحقبة تكوّن ثغرة عميقة في تاريخ هذه البلاد ، ولو استطعنا الإمساك بطرف خيوطها لسهل علينا الأمر حتى بالنسبة لحاضر المغرب .

وعلينا ألاّ نيأس من امكانية الوصول لحقيقة هذا التاريخ المغربي مهما كان صعباً . كما لا يغربن عن بالنا بأن تفهـم الماضي هو الذي يساعدنا على معرفة الحاضر .

وقبل ان نختم هـذا الكتاب حريّ بنا ان نشير الى ان فيـه عيباً رئيسياً . فالكتاب الذي يتنـاول فترة طويلة من التاريـخ لا بدّ وان يكون ملـّخصاً لدراسات عديدة مفصلة . وتاريخ المغرب فقير في هذا المجال . من هنا قد يتهمنا البعض بأننا أعددنا السكـّة قبل إحضار الثيران .

وعذرنا انه ليس بإمكاننا أن نفعل أكثر مما فعلناه ، اللهـم إلاّ اذا شئنا الاكتفاء بالتزام الصمت . وتاريـخ المغرب في العصر الوسيط الأوّل هو أكثر تواريخ العالم غنى بالفرضيات على حدّ قول رينان وعملنا هـذا يمكن اعتباره مؤقتاً .

لقد رأيت من واجبي أمام زحمة الوثائق المبهمـة التي أتى بها المؤرخون العرب ، وأمام اغفال المؤرخين لتاريخ المغرب ، أن أفتح المجال كبـيراً للافتراضات . فلعلّ بالإمكان تصنيف الوثائق المتوفرة لدينـا وتنسيقها . على انني شددت كثيراً على الانطـلاق من أسس ثابتة قـدر المستطاع . سوى ان الافتراضات كانت كثيرة ، وهذا ما يجعله بداية للتفكير ، ومن شأنه ان يثـير الفضول العلمي للنقد والتصويب والتصحيـح . ولعلـّه يكون بالنتيجة نقطـة انطلاق لدراسات معمقة عن تاريخ بلاد المغرب .

فهرس الاعلام والأمكنة

ا

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

المراجع

مؤلفات وأبحاث حديثة :

BARTH. Wanderungen durch die Kustenlander des Mittelmeeres, 1849.

BASSET (René). Etude sur la Zenatia du Mzab, de Ouargla, et de l'oued R'ir, dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

BEL (Alfred). Les Benou Ghanya et leur lutte contre l'empire almohade, dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

BEYLIE (De). La Kalaa des Beni-Hammad. Paris, Leroux, 1909.

CARCOPINO (Jérôme). Le limes de Numidie et sa garde syrienne. Extrait de la Revue Syria, 1925.

CAUVET (Commandant). Les mares à silures de l'Algérie, dans Bulletin de la Société d'histoire naturelle de l'Afrique du Nord, 15 juin 1915.

COHEN (Marcel). Le parler arabe des Juifs d'Alger. Collection linguistique publiée par la Société de Linguistique de Paris. T. IV. Paris, Champion, 1912.

COUR (Auguste). L'établissement des dynasties des chériffs au Maroc (1509-1830), dans Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux 1904.

DESTAING. Etude sur le dialecte berbère des Beni-Snous, dans Publicatoins de l'Ecole des Lettres d'Alger. Paris, Leroux.

DOUTTE. Excursion dans la région forestière du Cap Bougaroun, dans Bulletin Soc. Géog. d'Oran, 1897.

DUVEYRIER. Les Touaregs du Nord. Paris, 1864.

FERAUD. Notice sur les Oulad Abd-en-Nour, dans Recueil Soc. Archéol. de Constantine, 1864.

FERAUD. L'oued-el-Kebir et Collo (massacre du bey Osman), dans Revue Africaine, t. III, 1858-1859, p. 199 et s.

FERAUD. Mœurs et coutumes kabyles (il s'agit des Kabyles orientaux, c'est-à-dire des Ketamas) dans Revue Africaine, 1862, p. 272 et s.; 429 et s.; 1863, p. 67 et s.

FLAMAND (G. B. M.). Les pierres écrites du Nord-Africain, Paris. Masson, 1921.

FLAUBERT. Salammbô. Cité d'après l'édition Charpentier, 1885.

GAUTIER (E.F.). A travers le Sahara français, dans la Géographie, 1907. T.I.

GAUTIER (E.F.). Sahara Algérien. Colin, 1908. Interprétation biologique des grandes catastrophes, dans le Mercure de France. T. XI, 1919.

GAUTIER (E.F.) L'Algérie et la Métropole. Payot, Paris, 1920.

GAUTIER (E.F.). Structure de l'Algérie. Paris, Société d'éditions géographiques, 1922.

GAUTIER (E.F.). Le Sahara. Payot, Paris, 1923.

GAUTIER (E.F.). Nomads and sedentary folks of Northern Africa, dans Geographical Review, 1921, New York.

GAUTIER (E.F.). Native life in French North Africa, dans Geographical Review 1923, New York.

GAUTIER (E.F.). Un passage d'Ibn-Khaldoun et du Bayan,

dans Hespéris. Année 1924, 3e trimestre, p. 305. Paris, Larose.

GAUTIER (E.F.). Le Moyen-Atlas, dans Hespéris, 4e trimestre 1925. Paris, Larose.

GSELL (St.). L'Algérie dans l'Antiquité. Alger, 1903.

GSELL (St.). Monuments antiques de l'Algérie. Paris, Fontemoing, 1905.

GSELL (St.) Atlas archéologique de l'Algérie. Paris, Fontemoing, 1911.

GSELL (St.). Histoire ancienne de l'Afrique du Nord. Paris, Hachette, 1913.

JOLEAUD (L). Sur l'âge de l'elephas Africanus en Numidie, dans Recueil des notices ... Soc. archéol. de Constantine. Année 1914.

POMEL. Les éléphants quaternaires, dans Commentaire de la carte géologique de l'Algérie, 1895.

LA RONCIERE. Découverte de l'Afrique au Moyen Age. Paris, 1924.

MARCAIS (Georges). Album de pierre, plâtre et bois sculpté. Alger, Jourdan, 1909.

MARCAIS (Georges). Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle. Paris, Leroux, 1913.

MARCAIS (Georges). Achir (dessin fig. 1 représentant l'assiette de la ville), dans Revue Africaine. T. 63, année 1922, p. 22.

MASPERO. Histoire ancienne des peuples de l'Orient. Edition abrégée. Paris, Hachette, 1905.

MASPERO. Guide du Musée du Caire. Le Caire, 1915.

MASQUERAY. Le djebel Chechar, dans Revue Africaine. XXIIe année, 1878.

MASQUERAY. Traditions de l'Aouras oriental, dans Bulletin de Correspondance africaine. Quatrième année, 1885, p. 72 et ss.

MERCIER (Ernest). Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie), en 3 tomes. Paris, Leroux, 1888.

MERCIER (Gustave). La langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, dans Journal asiatique. Octobre-décembre 1924.

MERLIN (Alfred). Le sanctuaire de Baal et de Tanit près de Siagu, dans Notes et documents publiés par la Direction des Antiquités. Paris, Leroux, 1910.

PELLEGRIN (J.). Les vertébrés aquatiques du Sahara, dans C.R. Ac. Sc. CLIII, 1911, p. 972-974.

RENAN. Les Evangiles et la seconde génération chrétienne. Edition Calmann-Lévy.

RICH. Dictionnaire des Antiquités, traduit par Chéruel. Paris, 1861.

RODET (Capitaine). Les ruines d'Achir, dans Revue Africaine. T. 52, année 1908, p. 86 et ss.

ROLLAND. Hydrologie du Sahara. Documents relatifs à la mission Choisy. Paris, Imprimerie nationale, 1890 (planche XXIX).

SHAW. Travels and observations relating to several parts of Barbary. Oxford, 1738.

SHAW. Actes du XIVe Congrès international des Orienatalistes. Paris, Leroux.

SHAW. Journal asiatique. 1852, II, p. 59 (à propos du Canal à travers la lagune de Tunis).

SHAW. Recherches des antiquités dans le Nord de l'Afrique. Instructions adressées par le Comité des travaux historiques aux correspondants du ministère de l'I.P. Paris, Leroux, 1890.

SHAW. Revue générale des sciences. 1916, p. 112. Compte rendu d'un travail de Marais (Eugène) sur les effets d'une extrême sécheresse dans l'Afrique du Sud.

CAGNAT (René). L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs. Paris, Leroux, 1892.

DIEHL (Charles). L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709). Paris, Leroux, 1896.

MONCEAUX (Paul). Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis l'origine jusqu'à l'invasion arabe. Paris, Leroux, 1900-1923.

GSELL (S.). La Tripolitaine et le Sahara au IIIe siècle de notre ère. Extrait des Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres. T. XLIII, Paris, 1926.

J'ai tenu le plus grand compte des critiques aimables formulées par W. Marçais. Revue critique, juin 1929, p. 255 et s.

مؤلفون قدامى :

APPIEN. Edition Didot.

ARISTOTE. Edition Didot.

AELIEN. De natura animalium.

CORIPPUS. Johannides: de bellis libycis libri VII, dans Monumenta Germaniae historica.

DIODORE DE SICILE. Edition Didot.

FLORUS. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

FRONTIN. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

HERODOTE. Edition Didot.

MANILIUS. L'astronomie.

PLINE L'ANCIEN. Histoire naturelle. Edition Littré, dans la Collection Nisard.

PLUTARQUE. Vie des hommes illustres. Traduction Amyot.

PLUTARQUE. De Sollertia animalium.

POLYBE. Edition Didot.

POMPONIUS MELA. Bibliothèque latine-française de Panckoucke.

PROCOPE. De bello vandalico. Corpus scriptorum Historiae byzantinae. Bonnae, 1838.

SAINT AUGUSTIN. OEuvres complètes, par Péronne, Vincent Escalle, etc. Paris, 1870.

SALLUSTE. Bellum Jugurthinum, dans OEuvres complètes. Charpentier, 1874.

STRABON. Géographie. Edition Didot.

STRABON. Geographi graeci minores. Edition Didot.

STRABON. Histoire Auguste. Bibliothèque latine-française de Panckoucke (en particulier : Spartien, Vie de Septime Sévère, Caracalla).

مؤلفات عربية :

نورد المؤلفات العربية باسمائها الأجنبية لأن المؤلف رجــع الى ترجمتها الافرنسية او اللاتينية ، وقد وضع اسم المترجم محل اسم المؤلف في بعض الأحيان لتيسير الرجوع اليه.

ABOULFEDA. Géographie, traduite par Reinaud. Paris, 1848.
Aboulfeda est mort en 1341. Le tome 1er de l'édition Reinauld est une Introduction générale à la Géographie des Orientaux.

ABOU-ZAKARIA. Chronique d'Abou-Zakaria, traduite et commentée par Emile Masqueray. Alger, 1878.

BARGES (L'ABBE). Histoire des Beni-Zeiyan, rois de Tlemcen, par El-Tenessi, traduite par l'abbé Bargès. Paris. 1852.

BARGES (L'ABBE). Tableau historique de la dynastie des Beni-Djellab, sultans de Touggourt, par l'imam Cid-el-Hadj-Mohammed-el-Edrissy, traduit par l'abbé Bargès.

BAYAN (LE). Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, intitulée: Al-Bayano'l-moghreb, traduite par E. Fagnan. Alger, 1901.

EL-BEKRI. Description de l'Afrique septentrionale, traduite par de Slane. Alger, 1913 (réédition).
Le livre est de 1068 ap. J.-C.

FERAUD. Kitab-el-Adouani, dans Recueil des Notices et mémoires de la Société archéologique de Constantine. 1868.

EL-IAQUBI. Descriptio al-magribi ed. et vertit Goeje. Lugd. Batav., 1860.
Le document le plus ancien : xe siècle.

IBN-EL-ATHIR . Annales du Maghreb et de l'Espagne, traduites par F. Fagnan. Alger, 1901.
Ibn-el-Athir, Mésopotamien, qui semble n'avoir jamais quitté le Levant, est mort en 1233.

IBN-KHALDOUN. Prolégomènes historiques. Traduction de Slane, dans Notices et extraits des manuscrits publiés par l'Institut. T. XIX, XX, XXI.
Dans les références, on utilisera ces numéros qui correspondent aux tomes premier, second et troisième des prolégomènes.

IBN-KHALDOUN . Histoire des Berbères, traduite de l'arabe par M. le baron de Slane. T. I, II, III, IV. Alger, 1852-1856.
En appendices aux tomes I et II, de Slane a publié des fragments de :

1° IBN-ABD-EL-HAKEM :
«Tiré d'une histoire de la conquête de l'Egypte, composée dans la première moitié du IIIe siècle, par Ibn-Abd-el-Hakem.
.... Ces traditions sont les plus anciennes que les Arabes possèdent au sujet des premières invasions de l'Afrique.»

2° EN-NOWEIRI :
«Chapitres tirés du grand ouvrage encyclopédique d'En-Noweiri, auteur égyptien qui écrivit dans le XIVe siècle de notre ère.»

EL-KAIROUANI. Histoire de l'Afrique de Mohammed-el-Kairouani, traduite par Pellissier et Rémusat, dans Exploration scientifique de l'Algérie. Paris, 1845.

Cette histoire de l'Afrique est de 1681.

ROUDH-EL-QIRTAS . Histoire des souverains du Maghreb et Annales de la ville de Fès, traduite par Beaumier. Paris, 1860.

MARCAIS (Georges). Ibn-el-Ahmar. — Le jardin des Eglantines, Traduit par Ghaouti Bouali et Georges Marçais. Paris, 1917.
L'auteur arabe est mort en 1407.

EL-MERRAKECHI. Histoire des Almohades d'Abd-el-Wahid-Merrakechi, traduction française par E. Fagnan. Alger, 1893

El-ZERKECHI. Chronique des Almohades et des Hafcides, attribuée à Zerkechi, trad. E. Fagnan. Constantine, chez Braham, 1895.

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

كتاب يغوص عبر ثلاثة آلاف سنة من عمر الشمال الافريقي، ليسبر أغوار ماضيه السحيق.

ان اميل فيلكس غوتييه من المؤهلين القلائل للبحث في تاريخ افريقيا الشمالية، وهو يعد مرجعاً كبيراً في هذا المجال نظراً لسعة اطلاعه على مختلف المصادر التاريخية، شرقية وغربية، فضلاً عن شمول ثقافته في العلوم الانسانية.

والمصادر لابدّ لها من أن تُغربل، فليس غوتييه من يأخذها على علّاتها، فهنا نقرأ دراسة نقدية لكتاب «روض القرطاس»، المرجع العربي القديم وهناك نتعرف عن كثب على منهجية ابن خلدون، ناهيك بتقييم المؤلف لجميع المعلومات التي يتطرق إليها.

لاريب في أن القارئ العربي سيعجب بهذا النهج الرصين في دراسة التاريخ، تلك الدراسة التي أزاحت الحجب عن أكثر من حقبة غامضة من تاريخ المغرب القديم.